زكي مبارك

مدامع العشاق

دار الجيل
بيروت

زكي مبارك

مدامع العشاق

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

الإهداء

مدامع العشاق

إلى تلك النفس التي لا يعنيها من أمري شيء ، والتي أخلفت ما أخلفت من الوعود ، ونسيت ما نسيت من العهود ، والتي شغلت بنعمة المال ، والجمال ، عما أقاسي من محنة وعذاب ، والتي ما احسبني أطمع في أن تسكن إلي ، أوتعطف علي ، إلى تلك النفس الظلوم : أهدي هذا السفر الحزين !

ولست آمل والحمد لله والحب ، أن تتوجه بالقبول ، فان هـــذا امل عزيز المنال ، وكل ما أصبو إليه : أن تنفحني من أجله بظلم جديد .

فبعض الظالمين وإن تناهى   شهي الظلم مغفور الذنوب

زكي مبارك

مقدمة الطبعة الاولى

بسم الله الرحمن الرحيم

١

وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟ !

آية كريمة ، تذهب فيها النفس مذاهب شتى ، ولكنني أريدها لمعنى خاص : هو الحكم على الاقوال و الافعال .

وبيان ذلك اننا نرى غيرنا يقول ، او يعمل ، فنحكم عليه بالبر أو الفجور ، فتارة نخطيء ، وتارة نصيب . واكثر ما نكون شططاً إذا حكمنا على القول ، أو الفعل ، من غير ان نحيط خبراً بظروف القائل ، أو الفاعل . وهي وحدها محور الخير ، والشر ، والخطأ ، والصواب . فليست كل كلمة يكفر قائلها كما يقول الفقهاء بكفرة ، ما لم تشهد القرائن على ان قائلها معاند جحود ، وليست القصائد الخمرية شهادة على قائلها بالاثم ولا قصائد التشبيب رميـاً لصاحبها بالفسوق ، ولكن في الظروف وحدها الحكم بأن الشاعر فاسق أو سكير !

ومتى عودنا أنفسنا البحث في الحالة النفسية للقائل قبل البحث عن مدلول ما قال ، واجتهدنا في معرفة ظروف الفاعل قبل تأمل ما فعل من منكر أو خبيث فقد ترفع التهمة عن كثير ممن حكم عليهم بالكفر والمجانة ، لكلمة ظاهرها الكفر أو فعل ظاهره المجون .

وليس في ذلك خروج على اصول الدين ، فقد قال عليه السلام : «إنما الاعمال بالنيات ، وانما لكل امريء ما نوى » وليس لمتعنت أن يرد علينا بأن هذا خاص

بأعمال الخير ، لا الشر . فانه كما يجوز ان يفسد الخير حين يراد به شر ، كذلك يصلح الشر حين يراد به خير ، وتبقى التبعة على من يقصرون في ارشاد الناس إلى نتائج اعمالهم ، وما لها من الضر ، و النفع ، لتماثل النيات والاعمال .

وإذا أباح لك حسن النية ان تحكم على رجل بالصلاح لغلبة الخير على أقواله وأفعاله ، من غير أن تلم إلمامة بالأسباب القريبة والبعيدة ، لما يعمل وما يقول، وقد تكون نيته سيئة فيحبط عمله ، فمن من الواجب ان تنظر بدقة إلى ظروف من ساء قوله وعمله ، فقد تكون نيته حسنة فيرضى عنه علام الغيوب .

إن علماء الغرب لا يحكمون على خلق المؤلف إلا بعد ان يتبينوا العصر الذي عاش فيه ، والبيئة التي احدقت به ، فنال منها ونالت منه ، لاحتمال ان تسود كتابته فكرة كانت في عصره حسنة ، وهي عصرنا سيئة ، فنحكم عليه بما هو منه براء .

٢

ولنرجع الى الآية التي صدرنا بها هذا المقال(وفي أنفسكم أفلا تبصرون) فاني لا اكتم القراء اني وجدت في مذكراتي كلمة لو قرأتها لغيري الآن لأنكرتها عليه . مع اني اعرف اني كتبتها من قبل ، وانا نقي القلب ، خالص الضمير . ولقد تبدو تلك الكلمة ، وكأنها خطاب مفتوح لاهل الجمال ، وهي سذاجة طريفة ، تمثل عهداً من عهود الصبا ، خيل إليّ فيه ان الحسن يجب ان يكون ملكاً لجميع العيون ، تستمتع به آمنة مطمئنه لا يمانعها فيه غيور ، ولا يحجبها عنه ضنين . وليس في مقدوري الآن ان اكتب مثل تلك الكلمة ، لاني حرمت من تلك السذاجة ، واطلعت من الناس على بلايا ومناكر ، يلؤم من بعدها الكريم ، وحاشاي ! وسأفرض الآن اني في العهد الاول من عهود الشباب ، وان الناس كما كنت احسبهم منذ سنين اطهاراً بررة ، لا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ولا يتلولون الاقاويل ، ولأذكر طرفاً من ذلك الخطاب :

« يا أرباب الجمال !

ما لكم تضنون علينا بماسوف يشبع الدود منه لثما ، ويأكله التراب أكلا لما ؟

كم صائن عن قبلة خده   سلطت الارض على خدّه
وحامل ثقل الثرى جيده   وكان يشكو الضعف من عقده

أما والله إن أرواحنا لفي حاجة إلى بعض ما تنعم به الوسائد من الخدود ، والمراود من الجفون ، والمساويك من الثغور ، والأمشاط من الشعور ، والغلائل من الأعطاف ، والزينة من الأطراف .. فلم تحرموننا في حبنا لكم ، وإشفاقاً عليكم مما تكرمون به الجمال ليلا ونهاراً ، على أنه لا يعرف ما حف به من حسن ، وأحدق به من جمال ؟ !

يا أهل الملاحة !

إن الله ما خلقكم كالأزهار ، في القفار ، تزهر ، ثم تذبل ، ولا يتمتع أحد بشمها ، ولثمها ، وإنما خلقكم روحاً لكل حي ، ونعيما لكل موجود ، فاجعلوا لنا منكم حظاً ، ولا أقل من النظر ، فقد خفنا على أرواحنا أن تزهق ببخلكم ، وتموت بصدكم ، وما الله بغافل عما تعملون ! !

يا أعلام الحسن !

إن كنتم فطرتم على العزة ، وجبلتم على النخوة ، فهبونا بعض القرب منكم ، والأنس بكم ، ولكم منا ما تشاءون من ذلة واستكانة ، وخضوع وعبودية ، وقد عذرناكم لعزكم ، فارحمونا لذلنا ، وعشقناكم لحسنكم ، فاعشقونا لحبنا ، فكفى بالحب جمالا وبالعشق زينة ، وإن الحب المملول ، لخير من الحبيب الملول ، فان أبيتم إلا الصد والقطيعة ، والجفاء والاعراض ، فانا نبشركم بأن الحسن حال تحول ، ودولة تدول ، ثم يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين !

أوردية الخدين من ترف الصبا   ويا ابنة ذي الاقدام بالفرس الورْد
صلي واغنمي شكراً فما وردة الربى   تدوم على حال ولا وردة الخد

٣

ولقد يعجب قارىء هذا الخطاب حين يرى كاتباً يعتقد أن الجمال ملك العيون النواظر ، وأن البخل به إثم وعقوق ، ولكنه لو تروى لعرف أن النفس الطاهرة كثيرة الشطط ، وأن صاحبها لا يسلم من الاسراف ، ورحم الله ذلك

العهد الذي كنت أعيش فيه بأمل غير محدود ! !

ليـــالي لا تنجو بنبلي خريدة   وإن عز حاميها وجم عديدها
إذا مـــا رمتني ذات دل رميتها   بعين لها منــــها مقيد يقيدها

على أنني لا أمنع أحداً من أن يسيء الظن بما كتبت منذ سنين ، فان الذي يطمع في معرفة النفس البشرية ، لا يبخل بوضع نفسه على المشرحة ، ليسهل عليه وعلى غيره التحليل ، ومثله في ذلك مثل الطبيب المخلص لعلمه ، لا يبخل بتضحية نفسه وهو يفحص صرعى السل والتيفوس ، فهل يعقل هؤلاء الذين يطيعون أهواءهم ، وشهواتهم ، فينسون أنفسهم ، ويسلقون إخوانهم بألسنة حداد ؟

إن قليلا من الروية والأناة لكاف لسلامتنا من الزلل والعثار ، حين الحكم على ما يعمل الناس وما يقولون .

٤

وليت الامر وقف عند هذا الحد ، بل أسرف الكاتب حين هم بنشر مدامع المشاق في جريدة الصباح سنة ١٩٢٢ وافتتحها بهذه الكلمة الجريئة ، موجهة إلى إحدى العذارى

« قضي الامر ، واصبحت حياً كميت ، وموجوداً كمعدوم ! فمـــا ضرني لو أذعت هذا الحب ، ومـــا أبقى هواك مني ما أسمع به ملاماً أو أرى وجـــه عذول ؟

على أن قلبي يحدثني بأن الاشادة بما بيننا من هوى قد تزيد حقد الحاقدين ، وما إلى ردعهم سبيل ! وأنت المعنية بهذا الاشفاق ، أما أنا فما كنت لأرهب قوماً لا سلاح لهم غير القيل والقال .

فليت رجالا فيك قد نذروا دمي   وهموا بقتلي يا بثين لقـــوني
إذا ما رأوني طالعاً من ثنية   يقولون : من هذا ! وقد عرفوني

وبعد فانه لم يبق ما أسكن اليه في هذا الوجود غير حديث الحب ، وبلايا المحبين ، وقد رأيت أن أساير شعراء العرب في أعذب ما جرى على ألسنتهم : وهو النسيب ، وأن أبدأ ذلك بما انتهوا اليه ، وهو الحديث عن الدموع ، وما

لها من سبب قريب أو بعيد ، حتى إذا هدأت ثورة القلب بعد هـــذا الدمع المفسوح ، عدت فصاحبت الشعراء ، وذكرت كيف فتكت بهم النظرة الأولى، وبينت مهوى عيونهم ، ومصرع قلوبهم ، بين الخدود الفواتن ، والعيون الفواتك ، ولن أتحرج من ذكر ما كان من الوقائع بين الخصر النحيل ، والردف الثقيل ، وعلي وحدي إثم الفتنة التي ستقيمها هذه الأبحاث الشائـــقة في صدور الشباب والكهول ، ولمن شاء السلامة من القراء أن يكف منذ الآن عن قراءة هـــذا الحديث .

نصحتك علماً بالهوى ،والذي أرى مخالفتي ، فاختر لنفسك ما يحلو

٥

وهذا خطاب أقل ما يؤخذ عليه أنه لا يوجه إلى فتاة ، فضلا عمــا فيه من المجازفة ، في حمل إثم الآثمين ، وفتك الفاتكين ، ولقد آذتني آثامي ، فكيف أحمل آصار الناس !

ولم يمر ذلك الخطاب بدون أن تضح له إحدى الجرائد الاسبوعية ، وبدون أن ينالني أحد الكتاب بلسان حديد ، فكتبت في الرد عليهم هذه الكلمة القاسية :

« في مصر قوم لا يعرفون من الجد غير الغطرسة والكبرياء والكاتب الجاد في نظرهم هو الرجل السليط ، الذي يخيل اليه كا كتب : أنه قسيس في كنيسة حافلة ، أو خطيب في مسجد جامع ، فهو مسئول عن سرد الرذائل وعـــد المنكرات ! ؟ فأما الكاتب المفتون بما أودع الله هذا العالم من روائع الحسن ، وبدائع الجمال ، فهو في رأيهم كاتب ماجن خليع ! !

ولا أدري بماذا يجيب هؤلاء لو سألتهم من خلق هــذه الصور الجميلة ، التي طارت بألباب الشعراء ؟ وصيرتهم في كل واد يهيمون ؟ أتراهم يقولون انها مـن خلق الله ، أم من خلق الشيطان ؟ فاذا كانت من خلق الله ، فلم ينكرون علينا أن نتغنى بصنعه البديع ؟ وإن كانت من خلق الشيطان ، فلم لا يمحون الحسن من وجوه الحسان ، لأنه من عمل الشيطان الرجيم ؟

آمنت بالله وكفرت بما لهم من منطق مقلوب !

يريد جماعة ممن أظلمت الدنيا في وجوههم ، وعموا عن صنع الله الذي أتقن كل شيء ، ماذا يريدون ؟ إنهم يريدون أن اجاريهم في عمايتهم ، وأن أسايرهم في جهالتهم ، فلا أكتب في غير مايروقهم من ذم الدنيا ، والتبرم بالوجود ! ولكنني عرفت ما لم يعرفوا من « أفنان الجمال » في هذه الدنيا البديعة التي حملت الغزالي على ان يصرح بأن ليس بالامكان أبدع مما كان ، فعدت خليقاً بحمد الحسن ، والتقديس له ، كلما أمعنوا هم في الجحود !

يقولون ان مدامع العشاق التي أنشرها في جريدة الصباح مما يفسد الشباب ، وذلك منهم جهل بأسرار الجمال ، وماله من الاثر في تهذيب النفوس ، وتثقيف العقول ويهددون ويوعدون بالويل والثبور ، إذا أنا مضيت في هـــذا البحث الشائق الطريف ! فهل حسب هؤلاء السفهاء أني أكتب لهم حتى أنزل عند رأيهم السخيف المأفون !

أبينا أن نطيعكم أبينا فلا تلقوا نصيحتكم الينا
ركبنا في الهوى خطراً فإما لنا ما قد كسبنا أو علينا
ولو لم يرض ربك ما أردنا لما أعطى لنا أذناً وعينا
فما تسآ لكم عن كل صب كأن لكم على العشاق دينا

٦

إلى هنا وقف القارىء على ألوان مـــن الخواطر ، مرت بخاطر شاب يهيم بالتمرد على ما ألف الناس ، وما كنت لأذكر هذه التفاصيل لولا بغضي الرياء ، فأنا بصريح القول : موكل بالحسن أتبعه ، ومغرم بالتغريد على افنان الجمال . وإني لأقول :

اشجاك ما خلف الستار وإنما خلف الستائر لؤلؤ مكنون
والناس في غفلاتهم لم يعلموا أني بكل حسانهم مفتون

واقول :

فيا رب إما رمت لي الخير منعما ففي قرب من اهوى وبعد اخي اللوم

وإن كان لي فيما قضيت مساءة   فحزن على النائين جيرتي القدم

وإن شئت لي يوماً جوارك فلأكن   شهيد الجوى لا نضو هم ولا سقم

وطوّل حسابي في المعاد على الهوى   فطول احاديث الصبابة من همي

وما كان اغناني عن الفزع إلى حكم الاخلاق، لارجع الخير والشر إلى النيات، لا إلى الاعمال ، فقد آن لنا ان نعرف ان من الحق ، بل من الواجب ، ان ندرس الجمال ، وان نتغنى به ، وان نصفه بالنثر البليغ ، والشعر الجميل ، وأن نكتب عمن كلفوا بالحسن : من العشاق ، والشعراء .

ولقد يروون عن رسول الله انه قال : (ان الله ليعجب من شاب لا صبوة له) وأنا لا اريد ان يعجب الله مني ! وسينكر المتعنتون هذا الحديث ، وانا قبلهم لا أجزم بصحته ، ولكنني اثق بأنه يقرر حقيقة واقعة ، فما كان الله ليخلق الجمال لنعمى عنه ، او لنرمي عشاقه بالاثم والفجور ، وهؤلاء المتزمتون الاغبياء لا يملون من الدعوة الى الاستمتاع بجمال الطبيعة ، لهم الويل ! وهل الانسان إلا لباب الطبيعة ، وسرها المكنون ؟ !

وماذا اصنع بالاشجار ، والازهار ، والثمار ، والانهار ، والكواكب ، والنجوم ، والسهول ، والحزون ، والجبال ، والوديان ، والطيور الصوادح ، والظباء السوانح ؟؟

ماذا اصنع بكل اولئك ، إذا لم يكن معي إنسان أطارحه القول ، واساجله الحديث ، واساقيه صهباء هذا الوجود ؟ !

وهذا الانسان ؟ أليس لي الحق في اختياره ، قبل اصطفائه ، وكيف أختاره إن لم احكم الذوق ، في تمييز جسمه وروحه ، وعقله وشعوره ، وحسه ووجدانه ؟

وما قيمة الليل ان لم تظلني في الحب ظلماؤه ؟ وما جمال الاغصان إن لم تهزني إلى ضم القدود ، وما حسن الازهار ان لم تشقني الى لثم الخدود ؟ وكيف اميل إلى الظباء ، لو لم تشبه بعيونها واجيادها ، ما للحسان من اعناق وعيون ؟ وكيف اصبو إلى غنة الغزال ، لولا ذكرى تلك النبرات العذاب ، التي يسمونها السحر الحلال ؟

وانك لتعلم أيها القمر ، كيف كنت اصدف عنك ، وانا اطالع ذلك الوجه ، الذي نعمت معي بثغره المفلج ، وانفه الاقنى ، وطرفه الاحور ، وجبينه الوضاح ، وانك لتعلم ايها القمر ، كيف هجرتك حين غاب ، وتعلم اني لا انظر إليك إلا حين السرار ، لأرى كيف يفعل الشحوب بك ، وكيف تنال منك الليالي ! وانها لشماتة طفيفة ، احزن من بعدها على خلود متعتك بصباح الوجوه وعلى عودتك لشبابك ، في حين اودع كل يوم جزءاً من شبابي ، وواحسرتاه على ما اودع من اجزاء الشباب !!

لأصبحت نهب الاسى والحزن ... لجسم اقام وقلب ظعن

فيا ويحهم يزمعون الرحيل ... وما زودوني غير الشجن

دموع تحدر فوق الخدود ... كصوب الغمام إذا ما هتن

وقلب يقلب بين الضلوع ... بعيد القرار فقيد السكن

وأصبحت والرأس مرعى المشيب ... قليل السرور كثير الحزن

لعمري لئن شبت قبل الاوان ... لقد شاب حظي وشاب الزمن

كأن الشعور عراها البياض ... سهام الردى او خيوط الكفن

وإن الشباب اذا ما انقضى ... لكالحلم اقلع عنه الوسن

٧

أما بعد فقد اخرجنا للناس كتاب « الاخلاق عند الغزالي » فرمونا من اجله بالكفر ، واليوم نخرج لهم مدامع العشاق ؟ وسيرموننا من اجله بالفجور ، وسنصبر على عدوانهم حتى نخرج كتاب « آراء الجاحظ الفلسفية والادبية » وكتاب « افنان الجمال » ثم نجنح بعد ذلك إلى المتاب !

وقد زعمت ليلى بأني فاجر ... لنفسي تقاها او عليها فجورها

الملحد الفاجر فيما يزعمون

زكي مبارك

سنتريس في ١٢ ربيع الاول سنة ١٣٤٣ هجرية

مذاهب النسيب

اكثر شعراء العرب من الحديث عن الحب ، وعن الحسن وتنوعت مذاهبهم في وصف ما يشقى به المحب ، وما ينعم به الحبيب !

ويمكن رجع كلامهم في النسيب إلى اصلين اثنين :

الاول — وصف ما يلاقي المحبون من عنت الحب . ويدخل في ذلك كل ما يهيج الوجد ، ويثير الدمع ، كحديث الفراق ، والعتاب ، والذكرى ،والحنين.

الثاني — وصف ما يرى الشعراء في احبابهم من روعة الحسن ويدخل في ذلك كل ما تتمتع به النفس ؛ والعين ، من جمال الابدان والارواح ، كوصف العيون ، والخدود ، والثغور ، والنحور ، والصدور ، وكالحديث عن العطف ، والرفق ، والوفاء والعفات .

وقد رأيت ان افصل مذاهب النسيب في وصف ما يشقى بـه المحبون في كتاب اسميه « مدامع العشاق » وان اشرح مذاهبهم في الكلام عن الحسن في كتاب اسميه « افنان الجمال » .

وكان الواجب ان نبدأ بطبع « افنان الجمال » لانه اوفى وامتع ، ولأن افنان الجمال ، وجدت قبل مدامع العشاق .

ولكن دولةالحسن لا عدل فيها ولا رحمة ، فلنتابعها فيالظلم، ولنقدم الفروع على الاصول !!

موجبات الدموع

نذكر في هذا الباب حديث الشعراء عن اسباب البكاء ، وموجبات المدامع ثم ما يعرفون عن احمرار الدموع بعد ان كانت بيضاء ، وابيضاضها بعد ان كانت حمراء !!

وللدموع اسباب عامة ، واسباب خاصة . فأما الاسباب العامة فهي الحرق الدخيلة ، والجوى الدفين ، وما الى ذلك من البث والحزن ، واللوعة والحسرة، فمن هذا قول العباس بن الاحنف :

ظلمت عيناك عيني انها   بادلتها بالرقاد الارقا

سلط الشوق على الدمع فما   هب داعي الشوق إلا اندفقا

وما كان له ان ينسب الى عينيها الظلم ، لابتلائه بالسهاد . وخير منه قول صريع الغواني :

أسهرتموني أنام الله أعيـــنكم   لسنا نبالى إذا ما نمت من سهرا

ولو قال :

رحمت عيناك عيني انها   بادلتها بالرقاد الأرقا

لكان أقرب إلى الصدق وعرفان الجميل ، فحسب المحب ما أهدتـــه عينا حبيبه من ضني الجسم ، وسهد الجفون . وقال البحتري :

قد أرتك الدموع يوم تولت   ظُعُنُ الحي ماوراء الدموع (١)

عبرات ملء الجفون مرتها   حرق للفؤاد ملء الضلوع (٢)

---

(١) الظعن والظعائن : جمع ظعينة ، وهي المرأة في الهودج

(٢) يقال مرى الراعي الناقة : إذا مسح ضرعها لتدر اللبن . ويريد الشاعر أن يقول ان اللوعة مرت الدمع ، أي حملته على ان يفيض .

فرقة لم تدع لعيني محب منظراً بالعقيق غير الربوع

ولا أدري ما الذي أراده البحتري بما وراء الدموع ! أهو الدم الاحمر الذي تجود به الشئون عندما تفيض المدامع ، أم هي الحرق الدخيلة التي ينبيء عنها الدمع ، ويفصح عن مكنونها البكاء ! وقال الشريف الرضي :

يقولون ما أبقيت للعين عبرة فقلت جوى لو تعلمون أليم

أيسمع جفني بالدموع وأغتدي ضنيناً بها ؟ اني إذن للئيم

ولو بخلت عيني إذن لعتبتها فكيف ودمع الناظرين كريم

ولعل هذا خير ما قيل في الاعتذار عن البكاء ، بذكر موجبه ، والداعي إليه ، وانه لشعر بديع . أما الاسباب الخاصة فهي كثيرة . فمن العشاق من يبكي لتلمس الاخبار ، كما قال ابن هرم .

وأستخبر الأخبار من نحو أرضها وأسأل عنها الركب عهدهم عهدي

فان ذكرت فاضت من العين عبرة على لحيتي نثر الجمان من العقد

واني ليروقني قوله (وأسأل عنها الركب عهدهم عهدي) فانه يدل على حيرة ووله ، إذ كان يسأل من لا يعلم من أخبارها شيئاً ، استرواحاً بالسؤال عنها ، وكذلك يفعل المشوق ! ولا يبعد أن يستنكر الغواني فيض الدموع على اللحية في هذا الشعر ، لأن الأمر كما قال أبو تمام :

أحلى الرجال من النساء مواقعاً من كان أشبههم بهن خدودا

وقاتل الله الشيب ، ولا عفا عن جنايته على الشباب !

ومنهم من يبكي عند ظهور المعالم ، أو مطالعة الرسوم . كما قال ابن الدمينة :

هل الحب إلا زفرة بعد زفرة وحر على الاحشاء ليس له برد

وفيض دموع العين يا مي كلما بدا علم من أرضكم لم يكن يبدو

وما كان الحب زفرة ولا عبرة ، كما قال ابن الدمينة — ولكنه شيء به الروح تكلف — وما أحسن قول ابن أسباط القيرواني :

قال الخلي الهوى محال فقلت لو ذقته عرفته

فقال هل غير شغل قلب إن انت لم ترضه صرفته

وهل سوى زفرة ودمع　　إن لم ترد جريه كففته

فقلت من بعد كل وصف　　لم تعرف الحب إذ وصفته

ومنهم من يبكي عند الوقوف بالرياض ، إذ تذكره رشاقة اغصانها ، وحمرة ازهارها ، بالقدود الرشيقة ، والخدود الوردية ، كما قال ابن المعتز :

وقفت بالروض ابكي فقد مشبهه　　وقد بكت بدموعي اعين الزهر

لو لم تعرها الجفون الدمع تسفحه　　لرحمتي لاستعارته من المطر

وهذا نوع من الاسعاد ما عرفه الناس قبل ابن المعتز فيا أعلم ! وانما كانت تسعد الحمائم ويبكي الرفيق [١] .

ومن الشعراء من يبكي عند هبوب النسيم . كما قال بعض الاعراب :

لعمرك ما ميعاد عينيك والبكا　　بدراء إلا ان تهب جنوب

أعاشر في (داراء) من لا احبه　　وبالرمل مهجور إلي حبيب [٢]

إذا هب علوي الرياح وجدتني　　كأني لعلوي الرياح نسيب [٣]

ومنهم من يبكي لبكاء الحمائم ، وهو كثير في كلامهم . ولعل من أبدعه واروعه قول الشبلي يصف شجو حمامة هاجت شجوه :

رب ورقاء هتوف في الضحى　　ذات شجو صدحت في فنن [٤]

ذكرت إلفاً وعيشاً سالفاً　　فبكت حزناً فهاجت حزني

فبكائي ربما أرقها　　وبكاها ربما أرقني

ولقد تشكو فما افهمها　　ولقد اشكو فما تفهمني

غير أني بالجوى اعرفها　　وهي أيضاً بالجوى تعرفني

أتراها بالبكا مولعة　　ام سقاها البين ما جرعني

وهذه الابيات من احسن الشعر تقسيما ، وابرعه تصويراً ، ولقد افتتح بها

---

(١) الاسعاد هو المشاركة في البكاء .

(٢) داراء اسم موضع ، وكذلك الرمل.

(٣) علوي نسبة شاذة الى عالية نجد

(٤) الورقاء هي الحمامة ، والشجو الحزن ، والفنن الغصن ويجمع على أفنان.

الشيخ علي الجارم خطبته في تأبين المرحوم الشيخ حمزة فتح الله فخرج الناس وهم يقدمونه على سائر الشعراء ، ظناً منهم انها له ولولا الجهل بتاريخ الآداب العربية لما عاش الاحياء على حساب الاموات ، من حيث لا يشعر الناس !!

ومما ابتدعه المتأخرون في موجب البكاء ، ما جعله بعضهم عقاباً للعين ، جزاء بما اهدت نظراتها للقلب من شجى ، وللجسم من نحول ، فقال :

لأعذبن العين غــير مفكر	فيما جرت بالدمع او سالت دما
ولأهجرن من الرقاد لذيذه	حتى يعود على الجفون محرما
هي اوقعتني في حبائل فتنة	لو لم تكن نظرت لكنت مسلما
سفكت دمي فلأسفحن دموعها	وهي التي بدأت فكانت اظلما

وهو مذهب غريب ، يدل على مبلغ صاحبه من إدراك الحسن ، وفهم الجمال ! وإلا فأي عاشق يذكر جناية النظر عليه ، ولا يدعو لعينيه بطول البقاء . ولله در القائل :

قالت اترقد إذ غبنا ؟ فقلت لها	نعم ، وأشفق من دمعي على بصري
ما حق طرف هداني نحو حسنكم	اني اعذبــه بالنوح والسهر

ومنهم من جعل الدمع غسلا للعين مما زنت بالنظر ، فقال :

وقائلة ما بــال عينك مذ رأت	محاسن هذا الظبي ادمعها هطل
فقلت زنت عيني بطلعة وجهه	فحق لها من فيض مدمعها غسل

وقال الآخر :

إنسانــة فتــانة	بدر الدجى منها خجل
إذا زنت عيني بهــا	فبــالدموع تغتسل

وهو خيال فقهاء ، لا خيال شعراء !!

وقد نظر الارجاني إلى قول ابي تمام :

بسطت اليــك بنانــه اسروعا	تصف الفراق ومقلة ينبوعــا [1]

---

(١) الاسروع ويجمع على اساريع دود ابيض احمر الرأس يشبه به العرب الانامل الرقيقة .

كادت لعرفان النوى ألفـــاظها   من رقة الشكوى تكون دموعا

فولد منه معنى لطيفا ، إذ جعل دموعه عند الفراق ، وقد تحدرت كاللآلىء بقية ما نفثه المودعون في آذانه من حديث هو الدر النفيس . وذلك قوله :

لم يبكني إلا حديث فراقهم   لمـا اسر بــه إلي مودعي
هو ذلك الدر الذي اودعته   في مسمعي ألقيته من مدمعي

❀

اما السبب في احمرار الدموع فلم اجد فيه ابلغ من قول صرّدُرّ :

حتام ارعى وردة لا تجتنى   في الخد او تفاحـة لا تلثم
أيذاد عن تلك المحاسن ناظري   ويريد مني ان يسوغها الفم
في كل يوم للعيون وقـــائع   إنسانها الطماح فيـــها يكلم
لو لم تكن جرحى غداة لقائهم   ما كان يجري من مآقيها الدم
لم أدر ان الحب حومة مأزق   تصلى ولا ان اللواحظ اسلم

وهو مأخوذ بلطف من قول مسلم بن الوليد :

يا واشياً حسنت فينا إساءته   نجى حذارك انساني من الغرق
اني اسد دموعاً لج سائقهـا   مطروفة العين بالمرضى من الحدق

ويرى القارىء ان اصحاب هذه الاخيلة الشعرية ، يرون ان احمرار الدموع انما هو اثر للحرب القائمة بين عين العاشق وعين المعشوق . فيا لهـــا من حرب ضروس تطأ فيها اقدام الجنس اللطيف اعناق الجنس النشيط . وإنا بهذه الهزيمة لفرحون ! !

وكان عجيباً ان تبيض الدموع بعد احمرارها ! ! وقد رأيـــنا كيف آولوا احمرار الدموع . ولنذكر ان اصدقهم سبط بن التعاويذي حين يقول :

أتبعتهم يوم استـقل فريـقهم   نظر المشوق وانـة المفـجوع
لم تبك يوم فراقهم عيني دماً   إلا وقد نزف البكاء دموعي

والآن نريد ان نعرف كيف يتأولون ابيضاض الدموع بعد ان صيرها الحزن حمراء . فمن الشعراء من يرى الدمع الابيض ماء ورد الخدود التي قطفها بعينيه

عند الرحيل ، كما قال بعض الظرفاء :

كانت دموعي حمراً يوم بينهم   فمذ نأوا قصرتها بعدهم حرقي
قطفت باللحظ ورداً من خدودهم   فاستقطر البين ماء الورد من حدقي

ومنهم من جعله شيباً للدموع بعد طول عمر البكاء كقوله :

قالت عهدتك تبكي   دماً لطول التنائي
فلم تعوضت عنا   بعد الدماء بماء
فقلت ما ذاك مني   لسلوة وعزاء
لكن دموعي شابت   لطول عمر بكائي

وأشجى منه قول الآخر :

وقائلة ما بال دمعك أبيضاً   فقلت لها يا عز هذا الذي بقي
ألم تعلمي أن البكا طال عمره   فشابت دموعي مثل ما شاب مفرقي
وعيا قليل لا دموعي ولا دمي   ترين ولكن لوعتي وتحرقي

وهذه الأبيات من أكثر الشعر حزناً ، وأغزره دمعاً ، وهل تجد أدعى للشجو والبث من قوله :

فقلت لها يا عز هذا الذي بقي !!

ويذكرني هذا بقول الشريف الرضي في إتيان الدموع على العيون ، والغليل على الضلوع :

محا بعدكم تلك العيون بكاؤها   وغال بكم تلك الاضالع غولها
فمن ناظر لم يبق إلا دموعه   ومن مهجة لم يبق إلا غليلها
دعوا لي قلباً بالغرام اذيبه   عليكم وعيناً في الطلول اجيلها

ويذكر الشعراء ان الدموع حين تبيض بعد احمرارها تكون أرق من الهواء. ولهم في ذلك فنون من القول ، وشجون من الحديث ، وأجمل ما رأيت في ذلك قول خالد الكاتب في رفق عذاله به ، وإسعادهم له :

بكى عاذلي من رحمة فرحمته   وكم مسعد لي في الهوى ومعين
ورقت دموع العين حتى كأنها   دموع دموعي لا دموع جفوني

عذر ارباب الدموع

لا تعذل المشتاق في أشواقه حتى يكون حشاك في أحشائه
إن القتيل مبللا بدموعه مثل القتيل مضرجاً بدمائه

نذكر هنا ما يعتذر به الباكون عن بكائهم ، وما يحتجون به لدى عذالهم . وهو نوع من الافصاح عن موجب الدمع ، وداعي البكاء . والشعراء فيه رجلان رجل غلبه الحب ، وقهرته الصبابة : فباح بمكنون سره ، ومكتوم حبه ، ورجل تخوف الرقباء ، وتهيب العذال ، فأخذ يختلق العلل ، وينتحل الأسباب ، دفعاً لكيد الواشين ، ودرءاً لعذل اللائمين ... فمن الأول قول البحتري :

سارت مقدمة الدموع وخلفت حرقاً توقد في الحشا ما ترحل
إن الفراق كما علمت فخلني ومدامعاً تسع الفراق وتفضل
إلا يكن صبر جميل فالهوى نشوان يحمل فيه ما لا يحمل

وحسن البيت الأول في خلود اللوعة ، وبقاء الغليل ! وهو خير من قول ذي الرمة :

لعل انحدار الدمع يعقب راحة من الوجد ان يشفى شجي البلابل

والبيت الاخير اروع من قول أبي تمام في نفس المعنى :

والصبر أجمل غير أن تلدداً في الحب احرى ان يكون جميلا

وقال البحتري في الاعتذار عن البكاء :

لا تلمني على البكاء فاني نضو شجو ما لمت فيه البكاء
عذلا يترك الحنين انيناً في هوى يترك الدموع دماء
كيف أغدو من الصبابة خلواً بعد ما راحت الديار خلاء

ومن بديع الاعتذار عن البكاء قول خالد الكاتب :

عش فحبيك سريعاً قاتلي والضنى إن لم تصلني واصلي
ظفر الحب بقلب دنف فيك والسقم بجسم ناحل

فهما بين اكتئاب وضنى صيراني كالقضيب الذابل
وبكى العاذل لي من رحمة فبكائي لبكاء العاذل

وهذا معنى جميل ، لا ينقص غير القرب من الحقيقة : فقد يندر أن يبكيه اللائمون رفقاً بالمحب الحزين !

ومما انتحل فيه الشعراء للبكاء اسباباً غير اسبابه قول كثير :

إذا زرفت عيناي أعتل بالقذى وعزة لو يدري الطبيب قذاهما

وهو نوع من الكتمان يفزع اليه الشعراء عند اليأس من احبابهم :

يأس يحسن لي التستر فاعلمي لو كنت اطمع فيك لم أتستر

ومن طريف هذا النوع قول أبي العتاهية يعتذر عن بكائه ، وقد استحيا من صديقه :

كم من صديق لي أسا رقه البكاءَ من الحياءِ
فاذا تأمل لامني فأقول ما بي من بكاءِ
لكن ذهبت لأرتدي فطرفت عيني بالرداءِ

الاكتفاء بالدموع

هو نوع من القناعة في الحب يكون عند القنوط . ومن جيد الشعر فيه قول بعض الأعراب :

فان تمنعوا ليلى وحسن حديثها　　فلن تمنعوا مني البكا والقوافيا

فهلا منعتم إذ منعتم حديثها　　خيالا يوافيني على النأي هاديا

وهي سذاجة طريفة تذكرنا بقول جحدر وهو في السجن :

أليس الليل يجمع أم عمرو　　وإيانا فذاك لنـــا تداني

نعم وارى الهلال كما تراه　　ويعلوها النهار كما علاني

وما الذي يضير اعداء المحب من ان يرى القمر كما تراه ، ويعلوها النهار كما علاه ، ما داموا قد ابعدوه عنها ، وحرموه منها . وقد تنبه بعض الاعراب إلى تفاهة هذه القناعة فقال :

بربك هل ضممت اليك ليلى　　قبيل الصبح او قبلت فاها

وهل رفت عليك فروع ليلى　　رفيف الاقحوانة في شذاها

على انه لا ينبغي ان لا ينسينا جمال هذا الخيال ما في شعر جحدر وامثاله من روعة الصدق ، وجلال الوفاء . وماذا عسى أن تكون الصبابة إن لم يصبح البكاء اشهى من الحديث المعسول ، حين يغدو المحب ولا أمل له في غير الوجـد المشبوب ، والدمع المسكوب ، والصبر المغلوب !

من اجل هذا نخالف استاذنا الجليل الشيخ سيد المرصفي ونرجوه ان يصفح عن اعجابنا بقول قيس بن ذريح في الاكتفاء بدمعه الدائم ، وحزنه المقيم :

فان يحجبوها او يحل دون وصلها　　مقالة واشٍ او وعيد امير

فلن يمنعوا عيني من دائم البكا　　ولن يذهبوا ما قد اجن ضميري

إلى الله اشكو ما الاقي من الهوى　　ومن كرب تعتادني وزفـــير

ومن حرق للحب في باطن الحشا وليل طويل الحزن غـــير قصير
سأبكي عـــلى نفسي بعين قريحة بكاءَ حزين في الوثاق اســير
وكنا جميعاً قبل ان تظهري النوى بأنعم حاليْ غبـــطة وسرور
فما برح الواشون حتى بدت لنـا بطون الهوى مقلوبـــة لظهور
لقد كنت حسب النفس لو دام وصلنا ولكنما الدنيا متاع غرور

وتمتاز هذه القطعة بتصويرها للنفس الانسانية أجمل تصوير ، وتمثيلها ادق تمثيل . ألم تر إلى الشاعر وقد اوجز في قناعته بالبكاء ، ثم انطلق يشكو إلى الله لوعته ، وحرقته ، ولياليه الطوال !! ألم تر اليه وقد كان يحسب الدمع نعمة سابغة يكبت بخلودها الاعداء ، فماد يرى الدمع آية الذل والمسكنة ، وآخر ما يفزع اليه الاذلاء المساكين !!

الفزع الى الدموع

قال ابو بكر بن عياش : نزلت بي مصيبة اوجعتني فذكرت قول ذي الرمة :

لعل انحدار الدمع يعقب راحة　　من الوجد او يشفي شجي البلابل

فخلوت فبكيت فسلوت !! ولست ادري كيف تذهب بالوجد زفرة ، او تودي به عبرة ، وهو كما قيل :

ظن الهوى لبسة تبلى فيخلعها　　فكان في الروح مثل الروح في البدن

وكنت اسمى هذا النوع من الشعر استشفاء بالدموع ، وفقاً لما يجنح اليه الشعراء ، ولكنني رأيت ان اسميه « فزعاً إلى الدموع » حين تبينت ان الدمع لا يطفىء اللوعة ، وانه نار حامية ، لا برد وسلام !!

وهل تجد ادعى للبث ، واجلب للحزن ، من قول كثير ، وقد ترحلت حبيبته :

كفى حزناً للعين ان رد طرفها　　لعزة عير آذنت برحيل

وقالوا نأت فاختر من الصبر والبكا　　فقلت البكا اشفى إذن لغليلي

توليت محزوناً وقلت لصاحبي　　اقاتلتي ليلى بغير قتيل

وما اختار البكاء لانه اشفى للغليل كما قال . ولكنه اختاره ليفر من الصبر الذي رآه مر المذاق !! وقد حسب بعض الشعراء ان التفضيل بين الصبر والبكاء مما ينال ، وفي ذلك يقول :

إذا ما دعوت الصبر بعدك والبكا　　اجاب البكا طوعاً ولم يجب الصبر

وهو ضلال مبين : فان البكاء لا ينتظر دعوة المحزون ، ولكنه ينقض عليه انقضاض الصاعقة ، فاذا هو صريع ! وامثال هذا الشاعر لا يتحدثون عن حزنهم المقيم . ولكنهم يمنون على احبابهم بهذا الدمع المجلوب .

ومن الشعراء من تنبه إلى ان السلامة من الجوى امض من الجوى ، وهؤلاء

يبكون وجدهم الذاهب وضلالهم القديم « ومن اسماءِ الحب الضلال » ومن مختار الشعر في هذا البكاءِ قول المتنبي :

يراد من القلب نسيانكم   وتأبى الطباع على الناقل
ولو زلتم ثم لم ابككم   بكيت على حبي الزائل

واوجع منه قول البحتري :

وأود انى ما قضيت لبانتي   منكم ولا اني شفيت غليلي
واعد برئي من هواك جناية   والبرء اعظم غاية المخبول

ذلك بأن القلب الجريح لا يجد شفاءَه في السلوة ، ولا في البكاء .. وهل السلوة إلا رزء جديد يقصم الظهر ، ويقصف العمر ؟ أرأيت آدم وقد خرج من الجنة ؟ أليست لوعته على ذلك الفردوس الضائع ، هي سر ما يعتادنا من انين قد لا نعرف له سبباً قريباً ؟ وهل البكاء إلا اثر من آثار الوجد يخشع لرهبته غلاظ الاكباد ، ويرق له قساة القلوب ؟

تلك حسرة البحتري افصح عنها بقوله :

وأود ماني ا قضيت لبانتي   منكم ولا اني شفيت غليلي

فما الذي جعله يرجو من الدمع الشفاء حين يقول :

قف مشوقاً او مسعداً او حزيناً   او معيناً او عاذراً او عذولا
وخلاف الجميل قولك للذا   كر عهد الاحباب صبراً جميلا
عل ماء الدموع يخمد ناراً   من جوى الحب او يبل غليلا
وبكاء الديار مما يرد الشو   ق ذكراً والحب نضواً ضئيلا
لم يكن يومنا طويلا بنعما   ن ولكن كان البكاء طويلا

ان فهم ذلك يحتاج إلى تأمل النفس البشرية : فهي ليست موحدة المشاعر والميول . ولو جاز ان نجد نفساً خالدة الالم لفقد شقيقتها في عالم النفوس ، لجاز ايضاً ان تكون في لوعتها الخالدة ذات تصاريف في الشكوى والانين ! وليس طلب السلوة الا صرخة الوجد يعجز عن كبحها المتيم العاني : ومن الذي يحرم على شقي ان يلتمس الى السعادة السبيل ؟ ومتى كان المحبون سعداء حتى يكون

طلب الخلاص من بلواهم كفراً بنعمة الحب التي ابتلى الله بها اولئك الشهداء ؟ !
وقد يحسن ان ننشد القارىء قول البحتري نفسه :

قد كان مني الوجد غب تذكر ان كان منك الصد غب تناسي
تجري دموعي حيث دمعك جامد ويرق قلبي حيث قلبك قاسي

ألا تراه جعل الوجد اثراً للتذكر الذي حسب البكاء يفضي اليه فيريحه من الشوق في قوله:

وبكاء الديار مما يرد الشو ق « ذكرا » والحب نضواً ضئيلا

فهو يجعل الذكر دواء تارة ، ويجعله داء تارة اخرى ! ولسنا نتخذ من ذلك دليلا يرضاه المنطق عن خلود الصبابة ، والعالم كله لن يرزق الخلود ، ولكنا نستدل به على الحيرة يرزأ بها المتيم المحزون ، فما يدري ايشفيه الدمع ، ام يزيد لوعته اضطراما ..

على انه لا عيب على الشاعر في ان « تتناقض » خواطره ، لان الشعر كالمرآة والنفس دنيا ثانية ، تتراءى صورها المختلفة ؛ في لوحة الشعر الجميل .

الدمع عند الوداع

نذكر هنا نماذج من وصف الدموع عند الفراق . فمن ذلك قول ابن الرومي :

لو كنت يوم الفراق حاضرنا   وهن يطفين غلة الوجد
لم تر إلا دمــوع باكية   تقطر من مقلة على خد
كأن تلك الدموع قطر ندى   يقــطر من نرجس على ورد

وقد يؤخذ على هذه الأبيات ما فيها من الغزل في غير حينه : وهو قول ابي نواس في جنان :

يا قمراً أبصرت في مأتم   يندب شجواً بين أتراب
يبكي فيذرى الدر من نرجس   ويلطم الورد بعناب

والأدباء يرون هذا من وثبات الخيال ، ونراها أخيلة عادية ليس لهـا جمال خاص ، فقد يجد الشاعر في الجميلة الباكية ما ينسيه وصف طرفها الساحر وخدها الاسيل !! وقد أجاد ابن الرومي أو كاد في قوله :

تلاقينا لقاء لافتراق   كلانا منه ذو قلب مروع
فما افترت شفاه عن ثغور   بل افترت جفون عن دموع

ومما جمع بين براعة التصوير ، ومتانة التعبير ، قول المتنبي :

لما تقطعت الحمول تقطعت   نفسي أسى وكأنهن طلوح
وجلا الوداع من الحبيب محاسناً   حسن العزاء وقد جلين قبيح
فيد مسلمة ، وطرف شاخص   وحشاً يذوب ومدمع مسفوح
يجد الحمام ولو كوجدي لانبرى   شجر الاراك مع الحمام ينوح

وقال مهيار في الاعتذار عما للمودع من الزفرات والعبرات :

دعوني فلي ان زمّت العيس وقفة   أعلم فيها الصخر كيف يلين
وخلوا دموعي أو يقال نعم بكى   وزفرة صدري أو يقــال حزين

فلولا غليل الشوق أو دمعة النوى لمـــا خلقت لي اضلع وجفون

وهي مدافعة حسنة تذكرنا بقول صردر :

إذا لم أفز منكم بوعد فنظرة اليكم فيا نفعي بسمعي وناظري

وقال السري الرفاء في ذكر مظاهر الوداع : من اللوعة ، والحنين ، وتخديد الخد بالدمع ، مع ذهاب العزاء :

وقفتنا النوى على الكره منا موقفاً ضم شائقاً ومشوقـا
حال ورد الخدود فأضحى النـ رجس الغض بالدموع غريقا
لوعة افرطت فعادت حريقا وحنين أربى فعـــاد شهيقا
وخليق بلوعة الحب صب لم يكن بالعزاءِ فــيه خليقا

ومن شجي الشعر في ذلك قول الشريف الرضي :

ولمـــا تواقفنا ذهلت ولم يحن لطير قلوب العاشقين وقوع
عشية لي من رقبة الحي زاجر عن الدمع إلا أن تشذ دموع
وقد امرت عيناك عيني بالبكا فقـــل لي اي الآمرين اطيع

ولهذا الشعر مزية خاصة : وهي ترتيب المعاني ترتيباً لولا حيرة المودع لكان غاية في الوضوح . ولا يفوتنا ان نذكر هنا قول ابن زريق :

ودعته وبودي لو يودعني صفو الحياة واني لا اودعه
وكم تشفع بي أن لا أفارقـــه وللضرورات حال لا تشفعه
وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحى وادمعي مستهلات وادمعه

ومن الشعراءِ من يفرح بالوداع ، إذ يمكنه من معشوقة قد لا تراها العين إلا عند الرحيل . فمن ذلك قول البحتري :

إن للبين نعمة لا تؤدى ويداً في تماضر بيضاءَ
حجبوها حتى بدت لفراق كان داءً لعاشق ودواءَ
أضحك البين يوم ذاك وأبكى كل ذي صبوة وسر وساءَ
فجعلنا الوداع فيه سلاماً وجعلنا الفراق فيه لقاءَ

وفي هذا المعنى يقول بعض الظرفاء :

لم أنس إذ ودعته والتقى ذا البدن الناعم والناحل
كأنما جسمي على جسمه غصنان ذا غض وذا ذابل
يا رب ما اطيب ضمي له إلي لولا انه راحل !

وقد الم الشريف بهذا المعنى في هذه الابيات :

افي كل يوم لفـــتة ثم عـــبرة على رسم دار او مطي موقف
وركب على الاكوار يثني رقابهم لداعي الصبا عهد قديم ومألف
فمن واجد قد الزم القلب كفه ومن طرب يعلو اليفاع ويشرف
ومستعبر قد اتبع الدمع زفرة تكاد لهـــا عوج الضلوع تثقف
قضى ماقضى من أنة الشوق وانثنى بدار الجوى والقلب يهفو ويرجف
ولم نغن حتى زايل البعد بيننا وحتى رمانا الأزلم المتغطرف [١]
كأن الليالي كن ألين حلفة بأن لا يرى فيهن شمل مؤلف
ايا وقفة التوديع هل فيك راجع إشارته ذاك البنان المطرف
وهل مطمعي ذاك الغزال بلفتة وإن ثور الركب العجال واوجفوا [٢]

وهذه الابيات وصف سابغ للمرور بمنازل الاحباب ، ولكن فيها تصويراً لانتهاب الحسن عند الوداع ، وإمتاع العين باللفتة وإشارة البنان ، وليست هذه المتعة بالشيء القليل !

---

(١) لم نغن : لم نقم . والأزلم المتغطرف هو الدهر . (٢) أوجفوا : أسرعوا

الدمع بعد الفراق

ذكرنا في الكلمة السالفة مذاهب الشعراء في وصف الوداع ، واليوم نذكر من شعرهم في الدمع بعد الفراق . فمن ذلك قول دعبل في راحلين ما يدري ايلقاهم وهو حي ، ام ينتظرهم في عالم البقاء :

ألم يأن للسفر الذين تحملوا | إلى وطن قبل الممات رجوع
فقلت ولم املك سوابق عبرة | نطقن بما ضمت عليه ضلوع
تبين فكم دار تفرق شملها | وشمل شتيت عاد وهو جميع
طوال الليالي صرفهن كما ترى | لكل اناس جدبة وربيع

ويذكر صاحب « مواسم الادب » ان المأمون كان يعجب بهذه الابيات ، وكذلك كان المؤلفون « يسجلون » إعجاب الملوك بما يقول الشعراء ، كأن الشعر « نقود » لا يتداولها الناس إلا إن حملت شارات الملوك !! على ان من العدل ان نذكر بهذه المناسبة ان إقبال المأمون على الشعر الجيد ، وتشجيعه للشعراء المجيدين ، كان مما رفع الادب ونهض بالادباء . وهناك ظاهرة اخرى لاعجاب المأمون بهذه القطعة الوجدانية : هي إقبال كرائم النفوس على مناهل الوفاء ، وان اسبغت عليها نعمة العلم والجاه !! ولنا ان نقول : ان في عجز العلم والملك عن قتل الحب في صدور الملك والعلماء لدليلا على ان نعم الوجود تتلاشى امام هذه النعمة الساحرة ، القاهرة : نعمة الجمال !! وفي الفزع من الموت قبل اللقاء ، يقول الطغرائي :

اني لأذكركم وقد بلغ الظما | مني فأشرق بالزلال البارد
واقول ليت احبتي عاينتهم | قبل الممات ولو بيوم واحد

وللشريف الرضي في الوجد بعد الفراق شعر باك حزين كقوله :

الدمع مذ بعد الخليط قريب | والشوق يدعو والزفير يجيب
ان لم تكن كبدي غداة وداعكم | ذابت فأعلم انها ستذوب

داءٌ طلبت له الأساة فلم يكن ... الا التعلل بالـــدموع طبيب
اما اقمت فان دمعي غالب ... لعواذلي وتجلدي مغلوب

ومن الشعراءِ من ينفد دمعه ، فيوصي بالبكاءِ عنه ، كما قال الشريف :

ايها الرائح المغذ تحمل ... حاجة للمتيم المشتاق
إقر عني السلام اهل المصلى ... فبلاغ السلام بعض التلاقي
واذا مامررت بالخيف فاشهد ... ان قلبي اليه بالاشواق
واذا ما سئلت عني فقل نضـ ... ـو هوى ما اظنه اليوم باق
ضاع قلبي فانشده لي بين جمع ... ومنى عند بعض تلك الحداق
وابك عني فطالما كنت من قبـ ... ـل اعير الدموع للعشاق

وتذكرنا هذه الابيات بقول عبد الرحمن الداخل :

ايها الراكب الميمم ارضي ... إقر من بعضي السلام لبعضي
ان جسمي كما علمت بأرض ... وفؤادي ومالكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا ... وطوى البين عن جفوني غمضي
قد قضى الله بيننا بافتراق ... فعسى باجتماعنا سوف يقضي

ومن الشعراءِ من يبكي في القرب والبعد ، كما قال بعض الظرفاء :

وما في الارض اشقى من محب ... وان وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكياً في كل حـــال ... مخافة فرقـــة او لاشتياق
فيبكي ان نأوا شوقاً اليهم ... ويبكي ان دنوا خوف الفراق
فتسخن عينه عنـــد التنائي ... وتسخن عينه عـــند التلاقي

وليس لنا الا ان نذكر أمثال هذا الشاعر بما قاله الاخطل لعبـد الملك بن مروان وقد سأله كيف تشرب الخمر : واولها مر ، وآخرها سكر ؟ فقـــال صدقت يا امير المؤمنين ! ولكن بين السكر والمرارة لحظة دونها ملكك الطويل العريض !

وبين دموع التلاق ، ودموع الفراق ، لحظة دونها حياة الابرار في جنـات النعيم !!

ومن الشعراء من يتوجع على عهده قبل الفراق . كقول الشريف :

هل عهدنا بعد التفرق راجع ... او غصننا بعد التسلب مورق

شوق اقام وانت غير مقيمة ... والشوق بالكلف المعنى اعلق

ما كنت احظى في الدنو فكيف بي ... واليوم نحن مغرب ومشرق

وفي البيت الاخير حسرة تذيب لفائف القلوب .

وقد اجاد الارجاني في وصف اليأس بعد الفراق ، حين قال :

رحلوا : امام الركب نشر عبيرهم ... ووراءهم نفس المشوق الصادي

فكأن هذا من وراء ركابهم ... حاد لها وكأن ذلك هادي

لله موقف ساعة يوم النوى ... بمنى واقمار الحدوج بواد

لما تبعت وللمشيع غاية ... اظعانهم وقد امتلكن قيادي

اتبعتهم عيني وقلبي واقفاً ... فوق الثنية والمطي غواد

كيف السبيل الى التلاقي بعدما ... ضرب الغيور عليه بالاسداد

والحي قد ركزوا الرماح بمنزل ... فيه الظباء ربائب الآساد

وعد المنى بهم فقلت لصاحبي ... كم دون ذلك من عدى وعواد

عهدي بهم وهم بوجرة جيرة ... سقيت عهودهم بصوب عهاد

فاليوم من نفس النسيم اذا سرى ... نبغي شفاء غلائل الاكباد

ومن العشاق من يقف بالديار فيبكي لما صنعت بها ايدي الفراق حين نفرت عنها الظباء ، كسبط ابن اسايذي حين يقول :

يا موقفاً بالبان لم تثمر لنا ... غير الصبابة والاسى شجراته

هل نفرت لا نفرت غزلانه ... او صوحت لا صوحت باناته

عهدي به يلوي الديون قضاته ... وتصيد ألباب الرجال مهاته

فاليوم لاجيرانه جيرانه ... قدماً ولا فتياته فتياته

يا حادي الاظعان في آثاركم ... قلب تقطعه جوى حسراته

ولقد يرى ثبت الحصاة فماله ... امست تذوب على البعاد حصاته[1]

---

(١) الحصاة : القلب

شكوى الصبابة

نظرت ما قال الشعراء في الشكوى فاذا هم مختلفون : فمنهم من يشكو الى من يعلم السر والنجوى ، ومـــن يقدر على تصريف الخواطر ، وتقليب القلوب .

ألان لداود الحديد بقدرة مليك على تيسير قلبك قادر

وهؤلاءِ اصدق الناس حباً واحسنهم ايماناً . وسيدهم ابو صخر الهزلي حين يقول :

بيد الذي شغف الفؤاد بكم تفريج ما ألقى من الهم

فانه جعل الهوى قدراً ، وجعل الامر في تيسير قلب من يهوى وتذليله للذي خلق الحب ، واودع الذل فيه . ولم اجد في هذا المعنى اوجع من قول قيس ابن زريح :

الى الله اشكو فقد لبنى كما شكا الى الله بعــــد الوالدين يتيم

يتيم جـــفاه الاقربون فدمــــعه غزير وعهد الوالدين قديم

واذا كان محالا ان يجد المرءُ بعد ابويه من يعوله ، ويحدب عليه ، ويمنحه من العطف والحنان ما كان جديراً ان يفوز به لو عاش ابواه ، فكذلك لا يجد قيس من بين النساءِ من من تبره برلبنى . وهذا وجه الحسن في هذين البيتين ، اللذين يفيضان ناراً وحرقة . وقال ابن المعتز :

الى الله اشكو الشوق لا ان لقيتها يقل ولا ان بنت يخـــلقه الدهر

مقيم على الاحشاءِ قد قطعت به فساعته يوم وليـــلته دهر

ولم يذكر الشاعر هنا من موجب الشكوى غير فرط حبه ، وخلود وجده . وانما يشكو المحب قسوة الهجر ، ومرارة الصدود : وقال معين الدين الخطيب في الشكوى من لوعته وحسن محبوبه :

اشكو الى الله من نارين واحـــدة   في وجنتيه واخرى منه في كبدي
ومن سقامين سقم قد احل دمي   من الجفون وسقم حل في جسدي

وهذا شعر منتقد . فانه إذا صح ان يشكو المحب إلى الله سقمه ووجده ، أملا في الراحة من بلاءِ الحب ، فما الذي يريده بشكوى السقم في جفن محبوبه والنار في خديه ؟ وقد أجاد أو قارب في قوله :

ومن نمو مين دمعي حين أذكره   يذيع سري وواش منه للرصد
ومن ضعيفين صبري حين يهجرني   ووده ويراه النـــاس طوع يدي

فانه لا بأس من شكوى الواشي والود الضعيف !

ومن المحبين من يشكو إلى المعاهد والرسوم . وهو نوع من الولـه ، وصنف من الصبابة . تقربه عين المحب . وتطيب به نفس المشوق . كقول ابن المعتز :

أياسدرة الوادي على المشرع العذب   سقاك حيا حي الثرى ميت الجدب
كذبت الهوى إن لم اقف اشتكي الهوى   اليك وإن طال الطريق على صحبي
اصانع اطراف الدموع ومقلتي   موقرة بالدمع غرباً عـــلى غرب
وهل هي إلا حـــاجة قضيت لنا   ولوم تحملناه في طاعة الحب
تبدلت شيباً بالشباب فان تطر   شياطـــين لذاتي يقعن على قرب

ومنهم من يشكو إلى المسعد والرفيق . وهو أصل هذا الباب . ومنه هـذا البيت السائر :

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة   يواسيك أو يسليك أو يتوجـــع

ويعجبني في هذا المعنى قول البهاء زهير :

أين من يرحمـني أشكو لـــه   انما الشكوى إلى مـن يرحم
أنا من قلبي ومنها آيس   لم يكن مـــن مقلتيها يسلم
ايها السائل عن وجدي بهـــا   إنه اعظم ممـــا تزعم
ولقد حدثت عن شرح الهوى   أنت يا رب بحالي أعلم
طال ما ألقاه من نار الجوى   وحديثي لك يا من يفهم
عشق الناس ومثلي لم يكن   فاعـــلموا اني فيهم علم

سطرت قبلي احاديث الهوى　　وبسك مــــن حديثي تختــم

وهذا شعر يشف عن كثير من سلامة الذوق ، وخفة الروح . ولعلك لا تجد أظرف من قوله :

أين من يرحمني أشكو لــه　　انما الشكوى إلى مــن يرحم

فانه خير ما قيل في معناه ... ومن المغرمين مــــن يشكو إلى حبيبه وهو أوجب لرحمته ، وأدعى الى إنصافه . ومنه قول الطغرائي :

لعمرك ما يرجى شفائي والهوى　　له بين جسمي والعظام دبيب
اجلك ان اشكو اليك وأنطوي　　على كمـــدي ان الهوى لعجيب
وآمل برءاً من هوى خامر الحشا　　وكيف بـــداءٍ لا يراه طبـيب
نصيبك من قلبي كما قـــد عهدته　　وما لي بحمد الله منـــك نصيب
وما ادعى الا اكتفـــاءً بنظرة　　اليك ودعوى العاشقين ضروب
وما بحت بالسر الذي كان بيننا　　ولكنما لحظ المحب مريب

وقوله « نصيبك من قلبي كما قد عهدته » مأخوذ من قول ابن الأحنف :

اليك اشكو رب ما حل بي　　من صد هذا التائه المعجب
صب بعصياني ولو قـــال لي　　لا تشرب البارد لم أشرب
ان قال لم يفعل وان سيل لم　　يبذل وان عوتب لم يعتب

وقوله « وما أدعى الا اكتفاءً بنظرة » مأخوذ من قول الشريف :

عشقت وما بي يعلم الله حـــاجة　　سوى نظري والعاشقون ضروب

ومما حسنت معانيه وصحت تقاسيمه – في الشكوى الى المحبوب – قول بعض الاعراب :

شكوت فقالت كل هـــذا تبرماً　　بحبي أراح الله قلبك مـــن حبي
فلما كتمت الحب قالت لشد مــا　　صبرت وما هذا بفعل شجي القلب
وأدنو فتقصيني فأبعد طالبــاً　　رضاها فتعتد التباعد مـن ذنبي
فشكواي تؤذيها وصبري يسوءها　　وتجزع من بعدي وتنفر من قربي
فيا قوم هل مـــن حيلة تعرفونها　　أشيروا بها واستوجبوا الشكر من ربي

وهذا شعر الطبع والسليقة ، والموفقون الى مثله قليل .

وقد اجاد في هذا المعنى من شعراءِ العصر حافظ بك ابراهيم حين قال :

كم تحت اذيال الظلام متيم   دامي الفؤاد وليله لا يعلم
ما انت في دنياك أول عاشق   راميه لا يحنو ولا يترحم
أهرمتني يا ليل في شرخ الصبا   كم فيك ساعات تشيب وتهرم
لا انت تقصر لي ولا انا مقصر   اتعبتني وتعبت ، هل من يحكم
لله موقفنا وقد ناجيتها   بعظيم ما يخفي الفؤاد ويكتم
قالت من الشاكي تسائل سربها   عني ومن هذا الذي يتظلم
فأجبتها وعجبت كيف تجاهلت   هو ذلك المتوجع المتألم
انا من عرفت ومن جهلت ومن له   لولا عيونك حجة لا تفحم
اسلمت نفسي للهوى واظنها   مما يجشمها الهوى لا تسلم
وأتيت يحدوني الرجاء ومن اتى   متحرماً بفنائكم لا يحرم
أشكو لذات الخال ما صنعت بنا   تلك العيون وما جناه المعصم
لا السهم يرفق بالجريح ولا الهوى   يبقي عليه ولا الصبابة ترحم
لو تنظرين اليه في جوف الدجى   متململا من هول ما يتجشم
يمشي الى كنف الفراش محاذراً   وجلا يؤخر رجله ويقدم
يرمي الفراش بناظريه وينثني   جزعاً ويقدم بعد ذاك ويحجم
فكأنه واليأس ينسف نفسه   للقتل فوق فراشه يتقدم
رشقت به في كل جنب مدية   وانساب فيه بكل ركن ارقم
فكأنه في هوله وسعيره   واد قد اطلعت عليه جهنم
هذا وحقك بعض ما كابدته   من ناظريك وما كتمتك اعظم
قالت اهذا انت ويحك فاتئد   حتى م تنجد في الغرام وتتهم
انا سمعنا عنك ما قد رابنا   وأطال فيك وفي هواك اللوّم
اصغت الى قول الوشاة فأسرفت   في هجرها وجنت علي واجرموا
حتى اذا يئس الطبيب وجاءها   انى تلفت تندمت وتندموا

وأنت تعودمريضها لا بل اتت   مني تشييع راحلا لو تعلم

وفي هذه القصيدة صورة شعرية بديعة ، تمثل العاشق، وقد طال عليه الليل، وهجر جفنيه المنام . وهي غاية في حسن القصص ، وسحر البيان .

ولنذكر الشكوى الى ساقي الراح في قول ابن المعتز :

ايها الساقي اليك المشتكى   قد دعوناك وان لم تسمع
ونديم همت في غرته   وبشرب الراح من راحته
كلما استيقظ من سكرته   جذب الزق اليه واتكا
وسقاني اربعا في اربع

ما لعيني عشيت بالنظر   انكرت بعدك ضوء القمر
واذا ما شئت فاسمع خبري   عشيت عيناي من طول البكا
وبكى بعضي على بعضي معي

غصن بان مال من حيث التوى   مات من يهواه من فرط الجوى
خفق الاحشاء موهون القوى   كلما فكر في البين بكى
ويحه يبكي لما لم يقع !

ليس لي صبر ولا لي جلد   يا لقومي عذلوا واجتهدوا
انكروا شكواي مما اجد   مثل حالي حقه ان يشتكا
كمد اليأس وذل الطمع

كبد حرى ودمع يكف   اصرف الدمع فلا ينصرف
ايها المعرض عما اصف   قد نما حبي بقلبي وزكا
لا تقل في الحب اني مدعي

وفي هذه الموشحة شكوى أليمة . تهم بمثلها النفس الشجية ، من حين الى حين ؟

وتعجبني شكوى ابن الرومي في قوله :

ظبي يصيد ولا يصاد محاذر   نبل الهوى وحبائل الايناس
غر شموس ان احس بريبة   اعجب بجامع غرة وشماس

يسبي القلوب بمقلة مكحولة	بفتور غنج لا فتور نعـــاس
يا للرجال ألا معين لأيـــد	صب الفؤاد على ضعيف قاس[1]
ايضيمني خنث الشمائل لو نضا	عنه غلالته حساه الحاسي ؟
ومن العجائب ان تحل ظلامة	بفتى اناس من فتـــاة اناس

ومن المعذبين من يبث شكواه من دهره واخوانه الى صديق اقصته في بره الليالي . ومن شعراءِ العصر من قارب الإجادة في هذا المعنى ، كصاحب البدائع حين يقول [2] :

انت الذي علمتني	يا سيدي بر الصديق
وتركتني في فتـــية	مـــا فيهم بر رفيق
لم ألق بعدك منهم	الا الجفاءَ او العقوق
حتى كأني لم ابت	منهم على عهد وثيق
وكأنهم لم يبصروا	في خلقي الحر الصدوق
فنسوا هواي ولم يفق	من ودهم قلبي المشوق
ونسوا طريف حديثنا	عند الصبوح او الغبوق
ليت الهوى ما قادني	يوماً الى ذاك الطريق
أو ليتني لم انخدع	جهلا بهاتيك البروق
بل ليتني بعد الذي	عانيت من صبحي افيق

●

مولاي لو ابصرتني	لفزعت من دمعي الطليق
وشجاك جسمي ناحـــلا	وكأنه الطيف الطروق
أشكو اليك وانما	يشكو المضيم الى الشفيق
فارحم فديتك مهـــجة	أودى بها الحزن العميق

---

(١) ايد : قوي . من الأيد بسكون الياء وهو القوة

(٢) أرسلت هذه القصيدة للصديق العزيز محمد محمود حسين

حزن يتقـــطع في الحشا　　فكأنه غـدر الصديق

●

يا ويـح قـــلبي لم يزل　　يهفو به الروح الخـفوق
وتقـــوده الذكرى الى　　عهد الهوى الغض الرقيق
أيام نمرح في الصبـــا　　في ذلك العيش الانيق
أيام نسقى في الهـــوى　　والود كأساً من رحيق
تلك الليـــالي لم تدع　　من بعدها حسناً يروق
كلا ولا خلت لنـــا　　الا الزفير او الشهـيق

عند منازل الاحباب

كان ابو نواس يكره الشعر في بكاءِ الرسوم والاطلال ، وادباء هـذا العصر يعدون هذه النزعة توديعاً للقديم ، وترحيباً بالجديد ، وهذا حق ادا لوحظ ان الشعراء كانوا يبدأون قصائدهم ببكاءِ الديار ، وان لم يكونوا بنار الفراق مـــن المحرقين ! ولكن من العبث في تحليل العواطف ان نجهل ما يجده المحبون عنـد المرور بديار احبابهم المبعدين ، ومن الغبن للآداب العربية ان نغفل ما قيل في منازل الاحباب من الشعر الباكي الحزين ؟ وها نحن اولاء نبسط القول عن هذه الوقفة الاليمة ، وقفة المحب على ديار خلت غرفها من الظباء الغرائر ، وعفت سررها من النساءِ الحرائر ، بعد ان كان ساكنوها امل الآمل ، وامنية المتمني ! ! فمن ذلك قول بعض الاعراب وقد وقف (بالحزن) بفتح الحاء — وكان ملعب شبابه ، ومنتدى هواه ، وصورة أيامه الخوالي :

ومستنجد (بالحزن) دمعاً كأنه ... على الخد مما ليس يرقأ حائر
اذا دية منه استقلت تهللت ... اوائل اخرى ما لهن اواخر
ملا مقلتيه الدمع حتى كأنه ... لما انهل من عينيه في الماءِ ناظر
وينظر من بين الدموع بمقـلة ... دمى الشوق في انسانها فهو ساهر

وفي هذا المعنى يقول ابن الملوح :

نظرت كأني مـــن وراءِ زجاجة ... الى الدار من ماءِ الصبابة انظر
فعيناي طوراً تغرقان مـــن البكا ... فأعشى وطوراً يحسران فأبصر

ومما يغري القلب بالحزن ، والعين بالدمع ، قول البحتري :

وقفـــنا فحيينا لاهلك باللوى ... ربوع ديار دارسـات المعـــالـم
ذكرنا الهوى العذري فيها فأنسيت ... عزاها مشوقات القلوب الهوائم
خلعنا بها عـذر الدموع فأقبلت ... تلوم وتلحى كل لاح ولائم

لقد حكم البين المشتت بالبلى   عليك وصرف الدهر اجورحاكم
لعل الليالي يكتسين بشاشة   فيجمعن من شمل الهوى المتقادم

ونود لو تأمل القارىء ما في هذه الابيات من الترتيب والتنسيق : فقد وقف الشاعر بالديار ، ثم حياها وهو يتنقل بروحه بين الشقاء الحاضر والنعيم الماضي ، ثم اشتعل الحزن في قلبه اشتعالا ، فنسي جمال الصبر وحسن العزاء ، فاندفع يبكي وينتحب ، ثم اغرب في البكاءِ والنحيب ، حتى خشع عاذلوه ، وخضع لائموه ! ! ثم توجع للديار مما حكم عليها البين وصنعت بها الليالي ! ! ثم تمنى لو ضحك الزمن بعد العبوس ، فاجتمع الشمل بعد الفراق ! ! وقال ابو فراس :

علي لربع العامرية وقفة   ليملي علي الشوق والدمع كاتب
فلا وابي العشاق ما انا عاشق   اذا هي لم تلعب بصبري الملاعب
ومن مذهبي حب الديار واهلها   وللناس فيما يعشقون مذاهب

ولا يفهم احد كيف يكون حب الديار واهلها مذهباً لأبي فراس ، مع ان ابياته هذه ليست شيئاً في جانب ما قيل في منازل الاحباب ، ويكفي ان نذكر قول نبهان العبسي في البئر الذي كانت تشرب منه حبيبته سليمى :

سأسري الى الماءِ الذي شربت به   سليمى وان مل السري كل واحد
وألصق احشائي ببرد ترابه   وان كان مخلوطاً بسم الاساود

ويذكرني هذا بقول بعض الاعراب في (الوشل) وهو ماء كان يطالع عنده وجوه الكواعب :

اقرأ على الوشل السلام وقل له   كل المشارب مذ هجرت دميم
سقياً لظلك بالعشي وبالضحى   ولبرد مائك والمياه حميم
لو كنت املك منع مائك لم يذق   ما في قلاتك ما حييت لئيم (١)

وللشريف الرضي في بكاء الديار بدائع ، فمن ذلك قوله :

تزافر صحبي يوم ذي الأثل زفرة   تذوب قلوب من لظاها واضلع

---

(١) القلات جمع قلت بفتح فسكون وهو النقرة تكون في الصخره .

منازل لم تسلم عليهن مقلة ... ولا جف بعد البين فيهن مدمع
فدمع على بالي الديار مفرق ... وقلب على أهل الديار موزع
ألا ليت شعري كل دار مشتتة ... ألا موطن يدنو بشمل ويجمع

ومن جيد شعره في هذا المعنى قوله من كلمة ثانية :

وقفت على تلك الديار ووحشها ... دوان ومن يحكين غير دوان
فأنكرت العينان والقلب عارف ... قليلا ولجا بعد في الهملان

وهذا آخر ما يقال في رسوم الديار ، فحسب اطلالها من البلى ، ورسومها من العفاء ، ان تنكرها العينان ، ولا يعرفها القلب إلا قليلا ! والادباء ينكرون أن يتردد القلب في معرفة دار كانت بالأمس جنة ونعيما ، ويعجبون بقول طريح ابن اسماعيل الثقفي :

تستخبر الدمن القفار ولم تكن ... لترد اخباراً على مستخبر
فظللت تحكم بين قلب عارف ... مغنى أحبته وطرف منكر

ومن الشعراء من يرى الديار الخالية ، وكأنها بأهلها مأهولة ، كأبي نواس حين يقول :

لمن دمنٌ تزداد طيب نسيم ... على طول ما اقوت وحسن رسوم
تجافى البلى عنهن حتى كأنما ... لبسن على الاقواءِ ثوب نعيم

وكقول الاخطل :

لأسماء محتل بناظرة البشر ... قديم ولما يعفه سالف الدهر
يكاد من العرفان يضحك رسمه ... وكم من ليال للديار وكم شهر

وكقول ابن احمر العقيلي :

تراها على طول القواء جديدة ... وعهد المغاني بالحلول قديم

والمعروف في هذا المعنى ان الديار تجد مثل ما يجد المتيم المحزون ، كقول محمد بن وهب :

طللان طال عليها الامد ... درسا فلا علم ولا قصد
لبسا البلى فكأنما وجدا ... بعد الاحبة مثل ما اجد

وكقول مالك ابن اسماء الفزاري :

بيناهم سكن لجارهم ذكروا الفراق فأصبحوا سفرا
فظللت ذا وله يعاتبني من لا يرى مثلي له أمرا
بكت الديار لفقد ساكنها افعند قلبي ابتغي الصبرا

ومن بديع الشعر في هذا الباب قول ابن سنان الخفاجي :

ولما وقفنا بالديار وعندنا مدامع نسديها لكم ونثيرها
شكونا اليها مالقينا من الضنى فعرفنا كيف السقام دثورها
وقد درست إلا امارة ذاكر تلوح له بعد التمادي سطورها
خليلي قد عم الاسى وتقاسمت فنون البلى عشاق ليلى ودورها
فلا دار إلا دمنة ورسومها ولا نفس إلا لوعة وزفيرها
لعمر الليالي ما حمدت قديمها فيوحشني ذهابها ومرورها
وقالوا عطاء الدهر يبلى جديده ومن لي بدنيا لا يزول سرورها

ونود لو نأمل القارىء ابداع ابن سنان في هذين البيتين :

خليلي قد عم الاسى وتقاسمت فنون البلى عشاق ليلى ودورها
فلا دار الا دمنة ورسومها ولا نفس إلا لوعة وزفيرها

وحسب العاشق من موجب الاسى ، وداعي الحزن ، ان يرى منازل احبابه هامدات ، باليات !

تعفو المنازل ان نأوا عنها وتغبر البلاد
والحي اولى بالبلى شوقاً اذا بلي الجماد

وهل تأملت كيف شكا الى الديار ما لقي من الضنى ، وكيف عرف ما به من السقم لما تبين دثورها ، وتعرف عفاءها ! ويا ليت شعري هل شكت اليه ما تجد اليه من بعد سكانها ، وبين ملاكها ؟ اما والهوى انها لتشكو في صمتها الرهيب : إذ كانت تحزن بغير قلب ، وتبكي بغير دمع ! !

كفى حزناً للهائم الصب ان يرى منازل من يهوى معطلة قفرا

ومما يقرب من فلسفة الشعر ، وفقه الادب ، في بكاء الرسوم الهوامد ،

والاطلال الدوارس ، مع الافصاح عن الاسى والبث ، والشجى والحزن ، قول ابن الخياط في ديار لقيت من بعد سكانها مالقي المحب بعدهم من الضنى والنحول :

وقفت اداري الوجد خوف مدامع   تبيح من السر الممنع ما احمي
أغالب بالشك اليقين صبابة   وأدفع من صدر الحقيقة بالوهم

وهذا من خير ما قيل في مصانعة النفس ، ومغالبة الوجد : فقد عرف الديار بقلبه ، لما ضمنت منه الضلوع لاهلها النازحين ، وانكرها بطرفه ، لما لقيت من الدثور والعفاء ، فهو يريد ان يعتصم بالشك ، لينجو من قسوة اليقين ، ولكنه غلب على امره فقال :

فلما ابى إلا البكاء لي الاسى   بكيت فما ابقيت للرسم من رسم
كأني بأجزاع النقيبة مسلم   إلى ثائر لا يعرف الصفح عن جرم

يرحمه الله ! فهل رأى ثائراً أظلم من الوجد ، وحاكماً اجور من الصبابة ! ثم اخذ يقارن بين بليته وبلية الديار ، فقال :

لقد وجدت وجدي الديار بأهلها   ولو لم تجد وجدي لما سقمت سقمي
عليهن وسم للفراق وانما   علي له ما ليس للنار من وسم

وهذا من الابداع في وصف الديار الخالية ، وهل تجد المنزل بعد اهله إلا باكياً حزيناً ؟ اوليست وحشة المنزل الخالي ذلة بادية يطالع بها الرائح والغادي، عساه يعرف شيئاً عن سكانه الراحلين ، وملاكه الغائبين ؟ ان السكان للمنازل كالارواح للاجسام ، فاذا ارتحلوا آن حمامها ، وحان دثورها ، وحل دمارها ! وقد رأى الشاعر بعد ذلك ان البين جائر في قسمة الضنى بينه وبين المنزل الخالي، فقال :

وكم قسم البين الضنى بين منزل   وبيني ولكن الهوى جائر القسم
منازل ادارس شجاني نحوها   فهلا شجاها ناحل القلب والجسم

وهذه استغاثة بالطلل البالي ، يشعر بمثلها ذو اللوعة الحزين !

وكان ابن الخياط من اغزر الناس دمعاً عند مغاني الاحباب ، فمن ذلك قوله :

يا عمرو ما وقعة في رسم منزلة اثار شوقك فيها محو آثار
أنكرت فيها الهوى ثم اعترفت به وما اعترافك إلا دمعك الجاري
لو كنت ناسي عهد من تقادمه نسيت فيها لباناتي وأوطاري
أيام يفتك فيها غير مرتقب ظبي الكناس بليث الغابة الضاري
لا أرسل اللحظ الا كان موقعه على شموس منيرات واقمار
ما اطيب العيش لو اني وفدت به على زمان ودهر غير غدار

وهذا شعر يخالط النفس ، ويلابس الفؤاد ، ومثله في اللوعة قوله من كلمة ثانية :

أبجدك ما تنفك بالغور ناشداً فؤاداً بنجد ؟ يا لقلبك من نجد !
واني لتصميني سهام ادكاركم وان كان رامي الشوق مني على بعد
تمادى غرام ليس يجري الى مدى وفرط سقام لا يقيم على حد
وما انس لا انس الحمى واهلة تضل ومن حق الاهلة ان تهدي
زماناً إخال الجهل فيه من النهى وحباً اعد الغي فيه من الرشد
غنين وما نولن نيلا سوى الجوى وبن وما زودن زاداً سوى الوجد
خليلي ما احلى الحياة لو انها لطاعمها لم تخلط الصاب بالشهد
لقد حالت الايام عن حال عهدها ومن لي بأيام تدوم على العهد

ومن بديع الشعر في بكاء الديار قوله من كلمة طويلة :

وبالجزع حي كلما عن ذكرهم امات الهوى مني فؤادي واحياه
تمنيتهم بالرقمتين ودارهم بوادي الغضا يا بعد ما أتمناه
سقى الوابل الربعي حائل ربعهم وراوحه ما شاء روح وغاداه
وجر عليه ذيله كل خاطر إذا مشى في عاطل الترب حلاه
وما كنت لولا ان دمعي من دم لأحمل مناً للسحاب بسقياه

ومن المعاني المولدة في الدمع عند الرسوم قول الارجاني :

وقفت بأطلال الديار مسلماً وعهدي وملء الواديين قباب
فأبرق عذالي ملاماً وارعدوا وامطرت اجفاني فتم سحاب

به غنيت ارض الحمى عن مصبح   يقول سقى دار الرباب رباب

وهو خيال يبدو كأنه طريف ، ولكنه من الاخيلة الجوفاء ! وفي هذا المعنى يقول ابن التعاويذي :

سقى دار الحبيب وإن تناءت   ملث مثل اجفاني هطول
ولا برحت تسحب للغوادي   وطوراً للصبا فيها ذيول
فجفني والغمام لها غدير   وقلبي والنسيم بها عليل
وعنفني على العبرات صحبي   عشية قوض الحي الحلول
وقالوا استبق للاحباب دمعا   فقد شرقت بأدمعك الطلول
معاذ الحب ان ألفي حمولا   وقد سارت بمن اهوى الحمول
وعار ان تزم ليوم بين   جمالهم ولي صبر جميل

ومن الشعراءِ من يجعل الحنين إلى الوطن كناية عن الحنين إلى ليالي الشباب التي قضاها بمرأى من كواكبه السواطع ، ونجومه اللوامع . وقد نوه بذلك صاحب زهر الآداب فذكر ان ابن الرومي جاءَ إلى علي بن عبد الكريم النصيبي وانشده هذه القطعة البديعة :

ولي وطن آليت ان لا ابيعه   وان لا ارى غيري له الدهر مالكا
عمرت به شرخ الشباب منعما   بصحبة قوم اصبحوا في ظلالكا
وحبب اوطان الرجال اليهم   مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا اوطانهم ذكرت لهم   عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا
فقد ألفته النفس حتى كأنه   لها جسد إن بان غودر هالكا

ثم قال : انصفني وقل الحق . ايهما احسن ؟ قولي في الوطن ام قول الاعرابي

احب بلاد الله ما بين منعج   إلي وسلمى لا يصوب سحابها
بلاد بها نيطت علي تمائمي   واول ارض مس جسمي ترابها

فقال له : بل قولك احسن ، لأنه ذكر الوطن ومحبته . وانت ذكرت العلة التي اوجبت ذلك ! ! وقد يشعر القارىء بالحاجة إلى معرفة المخاطب في قول ابن الرومي :

عمرت بـــه شرخ الشباب منعما بصحبة قوم اصبحوا في ظلالكا

وخلاصة الحديث ان القطعة التي نقلناها من شعر ابن الرومي عن الوطن هي جزء من قصيدة قدمها إلى سليمان بن عبد الله بن طاهر يستعديه على رجل من التجار أجبره على بيع داره واغتصبه بعض جدرانها ، فمما فيها من التحريض قوله :

واني وان اضحي مدلا بماله لآمل ان اضحي مدلا بمالكا
فان لم تصبني من يمينك نعمة فلا تخطئنه نقمة من شمالكا
فكم لقي العافون بدءًا وعودة نوالك والعادون غمر نكالكا

وقال ابن الرومي من كلمة اخرى يتشوق إلى بغداد :

بلد صحبت به الشبيبة والصبا ولبست ثوب العيش وهو جديد
فإذا تمثـــل في الضمير رأيته وعليه اغصان الشباب تميـد

والادباء يرون ان مثل هذا الشعر ليس بكاء على الوطن ، ولا بكاء عـــلى اللهو ، ولكنه بكاء على الشباب ، ويذكرون قول ابن الرومي مـــن كلمة ثانية :

لا تلح من يبكي شبيبته إلا إذا لم يبكها بـــدم
عيب الشبيبة غول سكرتها ومدار ما فيها من النعم
لسنا نراها حق رؤيتها إلا اوان الشيب والهرم
كالشمس لا تبدو فضيلتها حتى تغشى الارض بالظلم
ولرب شيء لا يسر بـــه وجدانه إلا مع العدم

والذين يؤولون شعر ابن الرومي هذا التأويل يرونه انه تبع في وصف الوطن بشار بن برد حين يقول :

متى تعرف الدار التي بان اهلها بسعدى فان العهد منك قريب
تذكرك الاهواء إذ أنت يافع لديها فمغناها اليك حبيب

ولعلنا لا نبالغ إذا ذكرنا هؤلاء بأن بكاء الشباب ليس إلا بكاءً لما انقطع بعده من دواعي الطيش ، وموجبات الجنون ، فبعض العقل رزء ، وبعض الوقار

بلاء ، ولكن اكثر الناس لا يفقهون !

ولقد سافر العباس بن الاحنف مع هرون الرشيد إلى خراسان فاستدعاه ليلة لينشده شيئاً من الشعر ، فأنشده هذه الابيات :

قالوا خراسان اقصى ما يراد بنا   ثم القفول فقد جئنا خراسانا
مضى الذي كنت ارجوه وآمله   اما الذي كنت اخشاه فقد كانا
ما اقدر الله ان يدني على شحط   سكان دجلة من سكان جيحانا

فقال له : لقد اشتقت يا عباس ! فأجابه ، نعم يا امير المؤمنين ! فأذن له بالرجوع ... وقال ابن ميادة يخاطب الوليد بن يزيد :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة   بحرة ليلى حيث رببني أهلي
بلاد بها نيطت علي تمائمي   وقطعن عني حين ادركني عقلي
فإن كنت عن تلك المواطن مانعي   فاقتر علي الرزق واجمع بها شملي

وهذا البيت من أرق ما قيل في الحنين إلى الأوطان ! وما أدري أكان شوق ابن ميادة إلى بلاده رفقاً بالأهل والعشيرة ، أم كان براً بمن فيها من فاتنات الخدود ، وساحرات العيون ، وقاسيات القلوب ؟ لا يعلم ذلك إلا الذي يقول :

ومن بينات الحب ان كان أهلها   احب إلى قلبي وعيني من أهلي

وقال مالك ابن الريب يتشوق إلى اليمامة ونسيمها العليل :

سقى الله اليمامة من بلاد   نوافجها كأرواح الغواني[1]
وجو أزاهر للريح فيه   نسيم لا يروع الترب واني
به سقت الشباب إلى مشيب   يقبح عندنا حسن الزمان

وقال بعض الاعراب في توديع نجد ، وما لقي بها من نضارة العيش ، وطيب الحياة :

أقول لصاحبي والعيس تهوي   بنا بين المنيفة فالضمار
تمتع من شميم عرار نجد   فما بعد العشية من عرار
ألا يا حبذا نفحات نجد   وريا روضه بعد القطار

---

(١) النوافج بالجيم نافجة وهي الريح تبدأ بشدة.

وأهلك إذ يحل الحيّ نجداً   وانت على زمانك غير زار [1]
شهور ينقضين وما شعرنا   بأنصاف لهن ولا سِرار

وهذا حنين يذل له عصيُّ الدمع . ويشبهه قول ابن المعتز في دار كانت ملعب صباه :

لا مثل منزلة الدويرة منزلٌ   يا دار جادك وابل وسقاك
بؤساً لدهر غيرتك صروفه   لم يمح من قلبي الهوى ومحاك
لم يحلُ للعينين بعدك منظر   ذم المنازل كلهن سواك
أي المعاهد منك أندب طيبه   ممساك بالآصال أم مغداك
أم برد ظلك ذي الغصون وذي الجنى   أم أرضك الميثاء أم رياك
وكأنما سطعت مجامر عنبر   أو فت فار المسك فوق ثراك
وكأنما حصباء أرضك جوهر   وكأن ماء الورد دمع نداك
وكأنما ايدي الربيع ضحية   نشرت ثياب الوشي فوق رباك
وكأن درعاً مفرغاً من فضة   ماء الغدير جرت عليه صباك

ومما يقرب من بكاء الديار ذكر منازل اللهو والقصف . وقد كان الشعراء يتخذون الاديار موطناً لعبث الصبا ولعب الشباب ، ولكثير منهم حنين موجع إلى سكانها من ظرفاء الرهبان ، وربما عدنا إلى بسط ذلك في غير هذا الحديث ونكتفي الآن بنفثات العشاق في التغني بمنازل الشراب . فمن ذلك قول محمد بن عاصم المصري في دير القصير ، وقد كان ملعباً للشعراء المصريين :

ان دير القصير هاج اذكاري   لهو ايامنا الحسان القصار
وزماناً مضى حميداً سريعاً   وشباباً مثل الرداء المعار
ولو ان الديار تشكو اشتياقاً   لشكت جفوتي وبعد مزاري
ولكادت تسير نحوي لما قد   كنت فيها سيرت من أشعاري
وكأني اذ زرته بعد هجر   لم يكن من منازلي ودياري

---

(١) غير زار : غير عاتب

اذ صعودي على الجيـــاد اليه ... وانحداري في المعتقات الجواري
بصقور الى الدمـــاءِ صواد ... وكلاب على الوحوش ضواري
منزلا لست محصياً ما لقلبي ... ولنفسي فيه مـــن الاوطار
كم شربنا عـــلى التصاوير فيه ... بصغار محثوثة وكبار
صورة في مصور فيه ظلت ... فتنة للقلوب والابصار
أطربتنا بغير شدو فأغنت ... عن سماع العيدان والمزمار
لا وحسن العينين والشفة اللمـ ... ـياء منها وخدها الجلنار
لا تخلفت عن مرادي دهراً ... هي منه ولو نأى بي مزاري

وفي دير القصير هذا يقول كشاجم :

سلام على دير القصير وسفحه ... فجنات حلوان إلى النخلات
منازل كانت لي بهن مآرب ... وكن مواخيري ومنتزهاتي
إذا جئتها كان الجياد مراكبي ... ومنصرفي في السفن منحدرات

ومن الاديار التي خلدها الشعراء « دير ُقنّا » بالقرب من بغداد ، وقد أبدع في وصفه المؤرخون ، ثم طواه الدهر فيما طوى من ملاعب الشباب ، ولم يبق غير ذكراه في قول ابن جمهور :

يا منزل اللهو بدير ُقنا ... قلبي الى تلك الربى قد حنا
سقياً لأيامك لـــا كنا ... نمتاز منك لذة وحسنا
أيام لا أنعم عيشاً منـــا ... إذا انتشينا وصحونا عدنا
إذا فنى دن بزلنـــا دنا ... حتى يظن انـــنا جننا
ومسعد في كل ما أردنا ... يحكي لنا الغصن الرطيب اللدنا
احسن خلق الله اذ تحنا ... وجس زير عوده وغنا
بالله يا قسيس يا باقنا(١) ... متى رأيت الرشأ الاغنا
متى رأيت فتنتي تجنى ... آه اذا ما ماس او تثنى

أسأت إذا أحسنت فينا الظنا !

---

(١) قد يكون اصل الكلمة يا ابا قنا ثم حذفت الهمزة تخفيفاً والمراد به ساكن دير قنا

ومن الشعراء من تهيج حفيظته على قطر فيتغنى بقطر آخر كان ملعب هواه ، كما قال السري الرفاء يمدح الموصل ويذم العراق :

لحا الله العراق وساكنيه	فما للحر بينهم قرار
وجاد الموصل المبيض غيث	يجود وللبروق به انسفار
كما انهلت مدامع مستهام	تلهب منه في الاحشاء نار
ففي ايامه حسن التصابي	وفي أفيائه خلع العذار
ليالي كان لي في كل يوم	إلا الحانات حج واعتمار
فعن ذكر القيامة بي صدود	وعن ساح المساجد بي نفار
ولي خدنان همهما المعالي	وشأنهما السكينة والوقار
وساق تضحك الدنيا اليه	إذا ضحكت بكفيه العقار
يطوف بها وقد حملت حباباً	كما حمل السقيط الجلنار[1]
كأن الشرب ينتهبون ناراً	لها لهب وليس لها شرار
رأى الدهر اجتماع الشمل منا	فبدده وللدهر الخيار

إلى هنا وقف القارىء على نماذج في بكاءِ الديار الخالية ، والحنين إلى الوطن النائي ، والشوق إلى مواطن اللهو والشراب ، فلنذكر شكوى العشاق من المنزل القريب المأهول ، حين يصبح اهله كالكواكب قريبة الضوء ، بعيدة المنال ! وحين يصبح تمنع الحبيب أقسى من النوى ، وأمر من الفراق . وأبدع الشعر في ذلك قول راشد بن إسحق الكوفي :

ومستوحش لم يمس في دار غربة	ولكنه ممن يحب غريب
طواه الهوى واستشعر الوصل غيره	فشطت نواه والمزار قريب
سلام على الدار التي لا أزورها	وإن حلها شخص إلي حبيب
وإن حجبت عن ناظري ستورها	هوى تحسن الدنيا به وتطيب
هوى تضحك اللذات عند حضوره	ويسخن طرف اللهو حين يغيب

---

(١) الجلنار : زهر الرمان.

تثنى به الاعطاف حتى كأنه ... إذا اهتز من تحت الثياب قضيب
ألم تر صمتي حين يجري حديثه ... وقد كنت ادعى باسمه فأجيب
رضيت بسعي الدهر بيني وبينه ... وإن لم يكن للعين فيه نصيب
أحاذر إن واصلته ان ينالني ... وإياه سهم للفراق مصيب
أرى دون من أهوى عيوناً تريبني ... ولا شك اني عندهن مريب
أداري جليسي بالتجلد في الهوى ... ولي حين أخلو زفرة ونحيب
وأخبر عنه بالذي لا احبه ... فيضحك سني والفؤاد كئيب
مخافة ان تغرى بنا ألسن العدا ... فيطمع فينا كاشح فيعيب
كأن مجال الطرف في كل ناظر ... على حركات العاشقين رقيب
أرى خطرات الشوق يبكين ذا الهوى ... ويصبين عقل المرء وهو لبيب
وكم قد أذل الحب من متمنع ... فأضحى وثوب العز منه سليب
وإن خضوع النفس في طلب الهوى ... لأمر إذا فكرت فيه عجيب

وقد نقل صاحب زهر الآداب عن أبي شراعة القيسي انه كان في مجلس العتبي مع عبد الصمد بن المعذل ، وانهم تذاكروا ما ابدع المولدون من الشعر الرقيق فقال عبد الصمد أنا في ذلك أشعر الناس ؟ فقال أبو شراعة أشعر منك الذي يقول :

ومستوحش لم يمس في دار غربة ... ولكنه ممن يحب غريب

إلى آخر القصيدة . وان عبد الصمد حين سمعها لم ينطق بحرف ! وعندي ان صاحب هذه القصيدة لم يوفق في وصف مشاعره وصفاً منظماً يصح ان يكون « صورة شعرية » بل نراه جمع بين اشياء متنافرة حظها من الائتلاف قليل : ألا تراه يذكر في اول القصيدة انه قريب ، ولكنه في قربه غريب ، لأن إنساناً غيره يتمتع بذلك الحبيب ؟ ثم ألا تراه بعد ذلك يذكر انه يحاذر الوصل طائعاً لئلا يصيبه ويصيب من يهواه سهم الفراق ؟ وهذا بالطبع شطط في تصوير النفس المعذبة ، لأن الذي يتصور ان محبوبه قد يطوق بذراع عاشق غيره لا يتغنى بأنه يترك مواصلته اتقاءً لعيون الوشاة !

ينقص هذه القصيدة اذن ما أسميه « الصورة الشعرية » ولا يمنع هذا ان تكون في جملتها جميلة لما تحويه من الابيات المختارة . ولئن صح ان العتبي صادق على ان صاحبها أشعر الناس فإنا نشك في أذواق الادباء الاقدمين ونرتاب في حاستهم الفنية . واحب ان يفهم بعض الناس معنى « الحاسة الفنية » فان كثيراً من أدعياء الادب لا يفقهون ما يقولون وما يكتبون ، فضلا عن ان يفقهوا ما تناثر على بساط الدهر من ثمرات العقول !

وأمثال هؤلاء يعرفون فقط ما يسمع أو يرى أو يلمس أو يشم أو يذاق ! ولكنهم لا يعرفون ما يدرك ، إذ لم يرزقوا الادراك ! ومحال ان يجدوا طعماً لقول الشاعر :

أسمع في قلبي دبيب المنى	وألمس الشبهة في خاطري

لأنهم لا يدرون أين تكون الخواطر . وأين تكون القلوب ! من اجل هذا اشير على طالب الأدب بأن يتروى ويتريث حين يقرأ آثار الكتاب والشعراء ، وأن لا يعتمد في اختياره على الاذواق العامة لعلماء البيان ، فقد غفل الدهر عن كثير من المتصدرين فظنوا انهم على شيء ، وان الادب لحياتهم مدين !!

وقد يمر العاشق ببيت من يهوى ثم لا يملك التحية ، لأن الوشاة له بالمرصاد . فمن ذلك قول السري الرفاء :

مررنا بالعقيق فكم عقيق	ترقرق في محاجرنا فذابا
ومن مغنى جعلنا الشوق فيه	سؤالا والدموع له جوابا
وفي الكلل التي غابت شموس	إذا شهدت ظلام الليل غابا
حملت لهن أعباء التصابي	ولم أحمل من السلوان عابا
ولو بعدت قبابك قاب قوس	من الواشين حييت القبابا

إلى هنا عرف القارىء ألوان العواطف عند منازل الاحباب ، فقد رأى نفثات المحبين عند الديار الخالية ، وشهد بكاءهم على الوطن النائي ، وحنينهم إلى مواطن اللهو والشراب ، ثم رأى زفراتهم عند المنزل يدنو

وهو بعيد ، لنفور ما فيه من الظباء ! ويجمع شتيت هذه المعـــاني قول بعض الاعراب :

بكل تداوينا فلم يشف ما بنا   على ان قرب الدار خير من البعد

على ان قرب الدار ليس بنافع   اذا كان من تهواه ليس بذي عهد

وربما عدنا إلى تفصيل هذه النوازع القلبية ، حين نتحدث عن آراء الشعراء في أفنان الجمال .

وشاية الدموع

من العشاق من يؤثر الكتمان : فهو يخشى ان تفضحه الدموع ! وأشهر الشعراء في اخفاء الحب العباس بن الاحنف ، وسنبسط الكلام عن مذهبه حين نتكلم عن الكتمان . ونكتفي الآن بشعره عن قهره بالدموع : وقد رأيته يتوجع حيناً من عجزه عن كتم الحب وقد غلبه الدمع ، فيقول :

هموني اغض اذا ما بدت ... واملك طرفي فلا أنظر
فكيف استتاري إذا ماالدمو ... ع نطقن فبحن بما اضمر
أمني تخاف انتشار الحديث ... وحظي في صونه اوفر
ولو لم يكن في بقيا عليك ... نظرت لنفسي كما تنظر

ويغضب حيناً على دمع عينيه فيقول :

لا جزى الله دمع عيني خيراً ... وجزى الله كل خير لساني
نم دمعي فليس يكتم شيئاً ... ورأيت اللسان ذا كتمان
كنت مثل الكتاب اخفاه طي ... فاستدلوا عليه بالعنوان

ويبالغ في هذا المعنى حتى ليرمي قلبه بالعداوة ، فيقول :

قلبي الى ما ضرني داعي ... يكثر اسقامي واوجاعي
كيف احتراسي من عدوي اذا ... كان عدوي بين أضلاعي

ومن الشعراء من ييأس من كتم الهوى حين تنهمر الدموع ، كما يقول البحتري :

علاقة حب كنت اكتم بثها ... الى ان أذاعتها الدموع الهوامع
إذا العين راحت وهي عين على الجوى ... فليس بسر ما تسر الاضالع

وقد افصح الارجاني عن غاية ذلك : وهي نصر الوشاة ، بقوله :

ولي نفس إذ ما امتد شوقاً أطار القلب من حرق شظايا
ودمع ينصر الواشين ظلماً ويظهر من سرائري الخبايا

وأكرم من هؤلاءِ جميعاً الشريف الرضي حين يقول :

أيسمح جفني بالدموع وأغتدي ضنيناً بهــا اني إذن للئيم
ولو بخلت عيني إذن لعتبتها فكيف ودمع الناظرين كريم

وقد نظر أبو نواس إلى قول بشار بن بُرد :

يروعــه السرار بكل شيء مخافة أن يكون به السرار

ثم حاكاه بهذه الأبيات في نميمة الدمع :

قد تسترت بالسكون وبالاط راق جهدي فنمّت العينان
تركتني الدموع نصب المشيرين وأحدوثـــة بكل مكان
مــا أرى خالين للسر إلا قلت ما يخلوان إلا بشاني

وهي صورة شعرية ، تمثل العاشق المروع اصدق تمثيل .

ومن المحبين من تنم عليه دموعه الغزار ، وأنفاسه الحرار ، كالبحتري حين يقول :

إن الخطوب طوينني ونشرنني عبث الوليد بجانب القرطاس
ما شبت من طول السنين وإنما طول الملامة فيك شيب راسي
نمت على ما في ضميري أدمعي وتتابع الصعداء من أنفاسي

ومن رائع الشعر في فضيحة الدمع لصاحبه قول مهيار :

طرحت بجمع نظرة ساءَ ركبها وتبعث شراً للعيون المطـــارح
فان سترت تلك الثلاث على منى هواي فيوم النفر لا شك فاضح
بكيت ولام العاذلات فلم تفض على رقبة العذل الدموع السوافح

واحب ان يتأمل القارىء قوله « نظرت بجمع نظرة ساءَ كسبها » ليعرف كيف يسوء كسب العيون ، حين تجني على القلوب !

سلطان الحب

سألنا حضرة الشيخ محمد علي الخالدي عن الحب : اختياري هو ام اضطراري وهل المحب مضطر أم مختار ؟ وقد اختلف الناس من قبل في هذه المسألة ، وأوضحها ابن ابي حجلة في كتاب « ديوان الصبابة » وأنا ناقل هنا نبذة من ذلك الكتاب الذي انتهى منه مؤلفه في منتصف القرن الثامن الهجري ، لأنه يمثل لنا رأي علماء ذلك العصر في مثل هذه الشئون . قال ابن أبي حجلة في سذاجة غريبة ما نصه :

« هذا فصل عقدناه لما تقدم ذكره . وأسفر كالصباح أمره . إذ للناس فيه كلام من الطرفين ، وتبختر من الصفين . فقائل بأنه اضطراري . وقائل بأنه اختياري . ولكل من القولين وجه مليح . وقد رجيح . ونحن نذكر من ذلك ما يعم به الانتفاع . ونتكلم في طوله وعرضه بالباع والذراع (!!) فمن ذلك ما قاله القاضي أبو عمرو النوناني في كتابه تحفة الظراف : العشاق معذورون على كل حال ، مغفور لهم في جميع الاقوال والأفعال . إذ العشق إنما دعاهم على غير اختيار . بل اعتراهم على جبر واضطرار . والمرء إنما يلام على ما يستطيع من الأمور . لا في المقضي عليه والمقدور . وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ ان الحامل كانت ترى يوسف عليه السلام فتضع حملها . فكيف تراها وضعته ؟ أباختيار منها كان ذلك أم باضطرار ؟ لا . بل باضطرار ، وفقد اقتدار . وهذا مما لا يشك فيه ذولب . ولا يختلج خلافه في قلب » .

ثم نقل عن الفضيل بن عياض انه قال : لو رزقني الله دعوة مجابة لدعوت الله بها ان يغفر للعشاق لأن حركاتهم اضطرارية . ونقل عن أبي محمد بن حزم أن رجلا قال لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين اني رأيت امرأة فعشقتها . فقال

عمر : ذلك مما لا يملك . قال « وما أحسن قول بعض بني عذرة وقد قال له بعض العرب : ما لأحدكم يموت عشقاً في هوى امرأة يألفها ؟ إنما ذلك ضعف نفس ، ورقة ، وخور ، تجدونه فيكم يا بني عذرة . فقال : أما والله لو رأيتم الحواجب الزج ، فوق النواظر الدعج ، تحتها المباسم الفلج ، لاتخذتموها اللات والعزى ! » .

ثم قال بعد كلام طويل « إن العشق يختلف باختلاف بني آدم وما جبلوا عليه من اللطافة ورقة الحاشية ، وغلظ الكبد ، وقساوة القلب ، ونفور الطباع ، وغير ذلك . فمنهم من إذا رأى الصورة الحسنة مات من شدة ما يرد على قلبه من الدهش ومنهم من اذا رأى المليح سقط من قامته ، ولم يعرف نعله من عمامته » — العاقبة عندكم يا شيخ محمد ! — ثم قال « فهذا وأمثاله عشقه اضطراري ، والمخالفة فيه مكابرة في المحسوس » .

والذي أراه أن المحب مضطر غير مختار ، وما ذكرت هذه التفاصيل إلا ترويحاً للنفس . أما الشعر في سلطان الحب فكثير . فمن الشعراء من يجعله سحراً كالطغرائي حين يقول :

إن لم يكن سحراً هواك فانه — والسحر قدّاً من أديم واحد
ما زلت أزهد في مودة راغب — حتى ابتليت برغبة في زاهد
ولربما نال المراد مرّفه — لم يسع فيه وخاب سعي الجاهد
هذا هو الداء الذي ضاقت به — حيل الطبيب وطال يأس العائد

ومنهم من يذكر انه قتل نفسه غير متعمد كقول مهيار :

وعنفني سعد على فرط ما ارى — فقلت اتعنيف ولم تك مسعدي
وما ذاك إلا أن عجلت بنظرة — قتلت بها نفسي ولم أتعمد

ومنهم من يرى الحب يصب على القلب كالقضاء المحتوم لا مرد له كقول المتنبي :

أيدري الربع أي دم أراقا — وأي قلوب هذا الركب شاقا
لنا ولأهله أبداً قلوب — تلاقى في جسوم ما تلاقى
فليت هوى الاحبة كان عدلا — فحمل كل قلب ما أطاقا

ومنهم من يجعله قضاءً من الله . كقول عمرو بن ربيعة الرقاشي :

تضيق جفون العين عن عبراتهــا   فتسفحها بعــد التجلد والصبر
وغصة صدر أظهرتها فرفهت   حزازة حرّ في الجوانــح والصدر
ألا ليقل من شاءَ ما شاءَ إنمــا   يلام الفتى فيما استطاع من الامر
قضى الله حب المالكية فاصطبر   عليه فقد تجري الامور على قدر

ويدخل في هذا الباب خلود الحب • فمن الشعراءِ من يجعل سببه خــلود المحاسن في الحبيب ، كقول ابن الرومي :

هل الملالة إلا منقضى وطر   من متعة يطّبى من غيرها وطر
وفيك أحسن ما تسمو النفوس له   فأين يرغب عنك السمع والبصر

وكما قال ابن عنين :

خبروها بأنه ما تصدى   لسلو عنها ولو مات صدا
واسألوها في زورة من خيال   إن تكن لم تجد من الهجر بدا
ظبية تخجل الغزالة وجهاً   وبهاءً وتفضح الغصن قدا

وكما قال أبو الاسود الدؤلي :

أبى القلب إلا أم عمرو وحبها   عجوزاً ومن يحبب عجوزاً يفند
كبرد اليماني قد تقادم عهده   ورقعته ماشئت في العين واليد

وهو رأي منتقد : فكل زهر إلى ذبول ، وكل جمر إلى خمود ، وكل حسن إلى فناء ، ولا خلود للحب إذا كان داعيه الحسن الفاني والجمال الزائل .

ومنهم من يجعل السبب في خلود الحب كثرة دواعيه ، كقول صرّدر :

ولقد عرضت على السلو جوانحي الـ   حرى فلم يرهن دار مقام
كيف السلو وليس يسلك مسمعي   إلا حنين أو بكاء حمام

وكما قال ابن الزيات :

لم يزدني العذل إلا ولعا   ضرني أكثر مما نفعا
ذهبت بالقلب عين نظرت   ليتها كانت وإياه معا
كل يوم لي منها آفة   تركتني للهوى متبعا

وكما قال ابن التعاويذي :

يلوم عليك خال من غرامي رويدك أين سمعي والملام
سلو مثل عطفك لا يرجى وصبر مثل وصلك لا يرام
فكيف أطيع عذالي وعندي هموم قد سهرت لها وناموا

وهذا أيضاً منتقد ، فإن أمثال هؤلاء الشعراء ينسون الحب إذا نفدت دواعيه !

ومنهم من يجعل السبب في خلود الحب تغلغل الوجد في الاحشاء . كما قال الأبيوردي :

أرى كل حب غير حبك زائلا وكل فؤاد غير قلبي ساليا
إذا استخبر الواشون عما أسره حمدت سلوي* أو ذممت التصابيا
أيذهل قلب انت سر ضميره فلا كان يوماً عنك يا علو ساليا

وكما قال الغزي :

يا خليلي لو ملكت فؤادي جاز ان يملك الصواب عناني
ظالمي من أراد إنصاف نفسي من هواها وآمري من نهاني
قد تورطت في تعسف شوقي حيث لا يعرف السلو مكاني

وكما قال الطغرائي :

خليلي هل من مسعد أو معالج فؤاداً به داء من الحب ناكسُ
وهل ترجوان البرء مما أكنه فاني وبيت الله منه لآيس
هوى لا يديل القرب منه ولا النوى ولا هو من طول التقادم دارس
سرى حيث لا يدري الضمير مكانه ولا تهتدي يوماً اليه الهواجس
إذا قلت هذا يوم اسلو تراجعت عقابيل من اسقامه ووساوس

وأرجو ان لا يغفل القارىء عما في هذا الشعر من فنون الجمال .

هناك مذهب رابع يجعل خلود الحب مواتاة للطبع ، ونزولا عقد حكم الخليقة ، وهو اجمل المذاهب . ومنه قول التعاويذي :

من بات ذا قلب سـ ـليم من جوى فأنا السليم (١)
مالي اذا رمت السلو تلوم القلب المليم (٢)

---

(١) السليم هو الملدوغ (٢) المليم : الجاني

واذا كتمت الحب با ح بسره دمع نموم
عيني وقلبي في الهوى عون علي فمن ألوم

وأظهر منه قول المتنبي :

إلام طماعية العاذل ولا رأى في الحب للعاقل
يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل
وهبت السلو لمن لامني وبت من الشوق في شاغل

ولا انكر ان من الشعراء من يرى غير ما ذهبت اليه في هذا الحديث . ولكنني أرى الحب الصادق حليف الخلود . وقد اوضحت هذه المسألة في كتاب « حب ابن ابي ربيعة وشعره » فليرجع اليه من شاء .

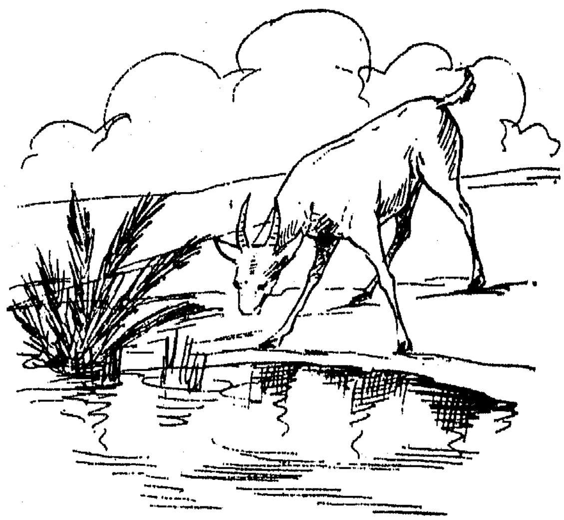

غرام النساء بالنساء

سألني حضرة محمد شهيب عبد الناصر بديروط « عما قالته الغواني في غرامها وحنينها إلى بنات جنسها إن كان هناك شيء من ذلك » بمناسبة ما حدث في برلين من غرام المسز كلين بالمسز ريب ، وما جنت يداهما في سبيل هذا الحب الغريب !!

وآسف كثيراً ايها الأديب لاستحالة الجواب بالتفصيل في صحيفة سيارة : فقد درج الناس هنا على تفضيل الجهل في سبيل الوقار ! ويكفي ان الفت نظرك إلى حديث مسطور في كتب الادب جاءت فيه هذه العبارة « هذا شيء يحتاج إلى حبال ورجال ! » وإلى ذوقك يترك تقدير الظروف لأمثال هذه الوقائع ! ! وقد جاء في كلام رسول الله النهي عن « السحاق » كما جاء في القرآن النهي عن الزنا ! والفرق واضح بين الكلمتين في اللفظ والمدلول ! والمطلع على آداب الفرنسويين يجد في اعترافات النساء عجائب وغرائب تعجز عن مثلها الشياطين! والآداب العربية مملوءة بأمثال هذه الاعاجيب . والناس هم الناس في كل قطر وفي كل جيل ، فلا تصدق ما تسمع من ان الاسراف في المجانة بدعة ابتدعها نساء برلين ! وعندي ان آفة المصلحين في الشرق هي جهلهم بدقائق الحياة الانسانية ، وإغفالهم الركن الاساسي للاصلاح ، وهو تشخيص الداء قبل وصف الدواء ، وإقدام كثير منهم على الامر بما لا يأتمر به والنهي عما لا ينتهي عنه ، ومن البلية ان يكون المصلحون منافقين !

ألم نصف الآداب الغربية بالاسراف في وصف النساء ؟ لقد جعلنا ذلك سيئة لا تقبل الغفران ، ولكنها في رأيي من الحسنات ، إذ كان الواجب على كل مصلح ان يقوي ما بين الرجل والمرأة من الميول الطبيعية ، حتى لا نشكو غرام المرأة بالمرأة ، وحب الرجال للغلمان !

اقرءوا هذا وتأملوه قبل ان تصدعوا رءوسنا بالدعوة إلى الفضيلة من حيث لا تعلمون !

وبعد ذلك ألفت نظر قراء « مدامع العشاق » إلى ان شعر النساء في الحب قليل : فقد كان العرب يستنكرون ان تعشق المرأة ، وكان الرجل منهم يذوب خجلا إذا قالت إحدى قريباته بيتاً واحداً في غلام جميل ، وقد ثأر طويس المغني لنفسه من عبد الرحمن بن حسان بن ثابت حين غناه شعر عمته قارعة بنت ثابت في عبد الرحمن بن الحرث المخزومي :

يا خليلي نابني سهدي	لم تنم عيني ولم تكد
فشرابي ما اسيغ وما	أشتكي ما بي إلى احد
كيف تلحوني على رجل	آنس تلتذه كبدي
مثل ضوء البدر طلعته	ليس بالزمّيلة النكد
نظرت عيني فلا نظرت	بعده عيني إلى احد

وحديث علية بنت المهدي معروف ، فقد حرم عليها اخوها هارون الرشيد ان تشبب بغلامها طل ، فكان من نتيجة ذلك ان تشببت بجاريتها زينب وقالت فيها :

وجد الفؤاد بزينبا وجداً شديداً متعبا

وهو شعر سخيف ، ولكنه يدل على ان عشق المرأة كان مما تسيغه النفوس في ذلك العهد . وليس معنى ذلك اننا ننكر ان زينب هنا كناية عن طل ، ولكن معناه ان تشبيب علية بزينب كان حيلة سائغة لستر هواها الصحيح ، ولم نر في الكتب الادبية من أنكر على علية هذا الميل الذي أنكرناه اليوم على نساء الألمان ! وهناك أبيات لفضل الشاعرة قالتها في « قبيحة » جارية المتوكل !

سلافة كالقمر الباهر	في قدح كالكوكب الزاهر
يديرها خشف كبدر الدجى	فوق قضيب اهيف ناضر (١)

ولا مرية في ان العرب قتلوا عواطف المرأة ، وحرموها من التشبيب ، ولهم

---

(١) الخشف بتثليث الخاء ولد الظبي

في ذلك عذر مقبول ، فان الغيرة لم توجد ، ولن توجـــد ، في مثل النفوس العربية ، والعرب بطبيعتهم عمالقة يكرهون الشريك ، أو شبه الشريك. ويأبون ان يسمعوا حديث المرأة عن هواها المشبوب بل يغارون من تحدث الرجل عن هواه ، حتى ليقول شاعرهم :

لم ألق ذا شجن يبوح بحبه ... إلا حسبتك ذلــك المحبوبا

حذراً عليك وانني بك واثق ... ان لا ينال سواي منك نصيبا

وإذا عز على المرأة ان تقول شعراً في الرجل ، فانه يعز عليها من باب اولى ان تقول شعراً في اختها المرأة ، فضلا عن بعد ذلك من الحاجة الطبيعية ، فان « هذه الشهوة » تعتبر فضولا في باب الشهوات !

والحق اننا حرمنا خيراً كثيراً حين حرمنا شعر النساء ، انظر إلى قول فضل في حبيب حرمها طيب الرقاد :

إن من يملك رقي ... مالك رق الرقاب

لم يكن يا احسن العا ... لم هذا في حسابي

وتأمل ما غنته عبيدة الطنبورية :

كن لي شفيعاً اليكا ... ان خف ذاك عليكا

واعفني مــن سؤالي ... سواك ما في يديكا

يا مــن اعز واهوى ... ما لي اهون لديكا

اننا نشتهي ان تتكلم المرأة ! إننا نحب ان نسمع حديثهــا العذب الجميل ! ولكنهم يزعمون ان كلام المرأة فسق ، وان حديثها فجور ، فيا ليت شعري متى يفقهون !

طيف الخيال

من الشعراء من يصف الحسرة التي تودي برشده حين تحرمه اليقظة من الاستمتاع بالطيف ، كالذي يقول :

وزارني طيف من اهوى على حذر ... من الوشاة وداعي الصبح قد هتفا
فكدت أوقظ من حولي به فرحاً ... وكاد يهتك ستر الحب بي شغفا
ثم انتبهت وآمالي تكذبني ... نيل المنى فاستحالت غبطتي اسفا

ومنهم من يذكر العلة في طروق الطيف ، والسبب في زيارة الخيال ، كقول أبي تمام :

زار الخيال لها لا بل ازاركه ... فكر إذا نام فكر الخلق لم ينم
ظبي تقنصته لمـــا نصبت له ... في آخر الليل أشراكاً من الحُلُمِ

وقوله من كلمة ثانية :

استزارته فكرتي في المنام ... فأتانا في خِفية واكتتام
يا لهـــا ليلة تنزهت الأر ... واح فيها سراً من الاجسام
مجلس لم يكن لنا فيه عيب ... غير أنا في دعوة الاحلامِ

وكقول عبد الصمد بن المعذل :

وصل النوم بيننا بعـــد هجر ... فاجتمعنا ونحن مُفترقان
غير ان الارواح خافت رقيباً ... فطوت سرّها عن الأبدان
منظرٌ كان لـــذة القلب إلا ... انه منظر بغير عيانِ

فالعلة عند أبي تمام في طروق الخيال إنما هي احتيال فكره ، ونصبه أشراكاً

من الحلم . والسبب في زيارة الطيف عند ابن المعذل هو النوم ، مع إبداعه في طيّ الارواح سرها عن الأبدان ، خوفاً من الرقباء !

وهناك فكرة لابن العفيف ألطف من هاتين وأطرف : وهي ان الحبيب سطع نوره وعمّ ، حتى شمل النائمين ، وتجلى لاعينهم ، على بعدهم منه ، ونأيهم عنه . وله في هذه الفكرة البديعة هاته الابيات الحسان :

يا حبذا طيفك من قادم	يا احسن العالم في العالمِ
طيف تجلى نوره ساطعاً	حتى رأته مقلة النائم
يا غائباً يحكم في مهجتي	عليّ طالت غيبة الحاكم
عار على حسنك ان يشتكي	حظي منه انه ظالمي

والبحتري على شهرته بالخيال ، لم يكن ممن يعنون بذكر السبب في قدومه ، والعلة في طروقه ، وانما يجيد في وصف انعطافه ، وانصرافه ، كقوله :

سقى الغيث اجراعاً عهدت بجوها	غزالا تراعيه الجآذر اغيدا
إذا ما الكرى اهدى إليّ خياله	شفى قربه التبريح او نقع الصدى
اذا انتزعته من يديّ انتباهةٌ	عددت حبيباً راح مني او غدا
فلم ار مثلينا ولا مثل شأننا	نعذّب ايقاظاً وننعم هجدا

ومن بديع الشعر في ذهاب الخيال قوله :

ألمت بنا بعد الهدوء فسامحت	بوصل متى نطلبه في الجدّ تمنع
وولت كأن البين يخلج شخصها	اوان تولت من حشاي واضلعي

وهو غاية في الإبانة عن اللهفة ، والافصاح عن الحسرة !

ومن الشعراء من يحمد للطيف سماحه بالنعيم المباح ، كقول بشار :

ولقد تعرض لي خيـــالكم	في القُرط والخلخال واللب
فشربت غير مباشر حرجاً	برضاب اشنب بارد عـــذبِ

وكقول المتنبي فيما يقرب من هذا المعنى :

بتنا يناولنا المدام بكفه	من ليس يخطر ان نراه ببـــاله

تجنى الكواكب من قلائد جيده   وتنال عين الشمس مـن خلخاله

وقد نص البحتري على ما ذكرناه من النعيم المباح بقوله :

وما نلتقي إلا على حُلم هاجد   يحلُّ لنا جدواك وهي حرام

إذا ما تبادلنا النفائس خلتنا   من الجد ايقاظاً ونحن نيـام

وألمَّ به في قوله :

بنفسي خيالا من اثيلة كلما   تأوهتُ من وجدي تعرض يُطمع

ترى مقلتي مالا ترى من لقائـه   وتسمع اذني رجع ما ليس تسمع

خيال البحتري

وقد يكون من الوفاء لتاريخ الآداب ان نذكر كيف اشتهر البحتري بالخيال حتى قالوا (خيال البحتري) وضربوا به الأمثال . وقد تأملت هذه الشهرة فوجدتها ترجع الى ترديده لزيارة الطيف في غير ضعف ولا فضول : فتارة يصف الخيال بالكرم وقد ضن المحبوب ، والقرب وقد شطّت ديار الحبائب ، حتى ليبعث الهوى من جديد ، كقوله :

وقفنا فلا الاطلال ردت اجابة ... ولا العذل اجدى في المشوق المخاطب
تمادت عقابيل الهوى وتطاولت ... لجاجة معتوب عليه وعاتب
اذا قلت قضيت الصبابة ردها ... خيال ملم من حبيب مجانب
يجود وقد ضن الألى شغفي بهم ... ويدنو وقد شطت ديار الحبائب

وتارة يذكر ان الطيف الم به في الظلام فلم يجد مكاناً يأوي اليه ، لأن الكرى طردته الدموع ، كقوله :

تلك البخيلة ما وصلي بمنصرف ... عنها ولا صدُّها عني بمصدود
الم بي طيفها وهناً فأعوزه ... عندي وجود كرىً بالدمع مطرود

واحب لو تأمل القارىء وصفه لحبيبته بالبخل ، وعفا الله عن هؤلاء البخلاء

ومما امتاز به البحتري شكواه هجر الخيال . وقد اكثر من ذلك حين حرم من غلامه نسيم ، ولغلامه هذا قصة عجيبة : فقد ذكروا انه كان يبيعه ، ثم تطير نفسه اليه فيشتريه ، حتى وقع في يد من لا يبيع روائع الجمال ! وقد اوضح شكواه هجر الخيال في هذه الابيات الحسان :

انسيم هل للدهر وعدٌ صادق ... فيما يؤمّله المحبُّ الوامق
مالي فقدتك في المنام ولم يزل ... عون المشوق اذا جفاه الشائق

امنعتَ انت من الزيارة رقبة — منهم فهل منع الخيال الطارق
اليوم جاز بي الهوى مقداره — في اهله وعلمت انيَّ عاشق

ثم ردد هذا المعنى في داليته الجميلة ، التي يقول فيها :

دعا عبرتي تجري على الجور والقصد — اظن نسيما قارف الهجر من بعدي
خلا ناظري من طيفه بعد شخصه — فيا عجباً للدهر فقداً عـــلى فقد
بنفسي حبيب نقلوه عن اسمه — فبات غريباً في رجاء وفي سعد
فيا حائلا عن ذلك الاسم لا تحل — وان جهد الاعداء عن ذلك العهد
ابا الفضل في تسع وتسعين نعجة — غنيٌّ لك عن ظبي بساحتنا فرد
أتأخذه مني وقـــد اخذ الجوى — مآخذه مما اسر وما ابدي
وتخطو اليه صبوتي وصبابتي — ولم يخطه بثي ولم يعده وجدي

ونحب ان لا يتعقبنا حضرة (البدوي الملثم) فيطالبنا بتحقيق بيع البحتري لغلامه نسيم » ليعرف اكان ذلك عن حاجة ام كان طمعاً في المال ، فقد تردد في ذلك المؤرخون ! اليس هو الذي "لمح الينا حين ذكرنا ان عُلـية بنت المهدي كنتَ عن طلّ بزينب ، ولفت نظرنا الى انها انما كنت بزينب عن رشأ ؟ رويدك ايها الصديق ، فليس في هذه المجاهل يقين ، وحسبك ان تعلم ان ذلك سر من اسرار القصور ، وناهيك بقصر الرشيد !

وبهذه المناسبة اذكر ان التعبير الحديث « شربوا نخب مصر ! وشربوا نخب فرنسا » كان له عند العرب بديل جميل ، انظر قول علية في غلامها رشأ :

اشربْ على وجه الغزال — الاهيفِ الحلو الدلال
اشرب عليه وقل له — يا غل أَلباب الرجال

وانظر قول اسحق في غلامه زياد :

ادِرها على بعد الحبيب فربمـــا — شربنا على بُعد الاحبة والـفجْع
فما بلغتني الكأس الا شربتها — والا سقيت الارض كأساً من الدمع

وقال ابن الفارض :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة — سكرنا بها من قبل ان يخلق الكرْم

فأي التعبيرين اجمل ؟ اقول العرب : شربت على وجهه ، وعلى بعده ، وعلى ذكره ؟ ام قولنا شربت نخبه ؟ اجيبوا ايها المتكلفون !

ونعود فنذكر تشبث البحتري بالطيف عند الصباح في قوله :

وليلة هوّمنا على العيس أرسلت   بطيف خيال يشبه الحق باطلهْ
فلولا بياض الصبح طال تشبثي   بعِطفَي غزال بتُّ وهناً أغازله
وكم من يد لليل عندي حميدةٍ   وللصبح من خطب تُذم غوائله

أتذكر أيها القارىء ان لسانك انعقد ، وقد رأيت دمية من دمى الجمال ، فلم تزد على ان قلت : هذه فتاة حسناء ؟ الأمر هنا كذلك ، فاعذرني إن لم أزد على ان اقول : هذا شعر جميل !

ويظرف البحتري كثيراً حين يجعل هجر الطيف نوعاً من العتاب . انظر قوله :

تناءت دار عَلوة بعد قربٍ   فهل ركبٌ يبلغها السلاما
وجدّد طيفها عتباً علينا   فما يعتادنا إلا لِماما
وربّتَ ليلةٍ قد بتُّ أسقي   بعينيها وكفيها المداما
قطعنا الليل لثماً واعتناقاً   وأفنيناه ضماً والتزاما

وقد تعجب لتشبيه الزائر النحيل بالطيف الطروق : انظر قوله :

وزَورٍ أتاني طارقاً فحسبته   خيالاً أتى من آخر الليل يطرق
أقسّم فيه الظنّ طوراً مكذّباً   به انه حقٌّ وطوراً أصدّق
أخاف وأرجو بُطل ظني وصدقه   فلله ظني حين ارجو وأفرقُ
وقد ضمّنا وشك التلاقي ولفّنا   عناقٌ على أعناقنا ثمّ ضيّق
فلم نرَ إلا مخبراً عن صبابةٍ   بشكوى وإلا عبرة تترقرق
فأحسن بنا والدمع بالدمع واشجٌ   تمازُجه والخد بالخد ملصق
ومن قُبَلٍ قبل التشاكي وبعده   نكاد بها من شدة الوجد نشرق
فلو فهم الناس التلاقي وحسنه   لحبّب من أجل التلاقي التفرق

وقد يأسى البحتري ويشجى حين لا تبقي له الليالي غير الذكرى والخيال ،

تأمل قوله :

حبيبٌ نـأى الا تعرض ذِكرةٍ ... له أو ملمٌ طائف من خياله
أأمنع في هجرانه من صبابة ... وقد كنت صباً مغرماً في وصاله
ويأمرني بالصبر من ليس وجدهُ ... كوجدي ولا اتلان حالي كحاله
فان افقد العيش الذي فات باللوى ... فقِدماً فقدت الظل عند انتقاله

ولقد اذكر اني قرأت منذ سنين رواية (رافاييل) وهي بدعة في الآداب الفرنسوية . فأقسمت لأزورن ان استطعت قبر (لامارتين) واليوم اقسم ان استطعت لأزورن قبر البحتري!

أليس هو القائل في طيف الخيال :

أترى حبي لسعدى قـاتلي ... وإذا مـا أفرط الحب قتلُ
خطرت في النوم منها خطرةٌ ... خطرةَ البدر بدا ثم اضمحل
أي زَور لك لو قصداً سرى ... وملم منك لو حقاً فعل
يتراءى والكرى في مقـلتي ... فإذا فارقهـا النوم بطل

ولتقي الدين السروجي قصيدة بديعة ختمها ببيتين في الخيال ، وقد زاره فما حققه لفرط سروره به ، ثم ولى عنه فما درى كيف يدركه ، ولا عرف كيف يلحقه . قال :

أنعمْ بوصلك لي فهذا وقته ... يكفي مـن الهجران ما قد ذقته
أنفقت عمري في هواك وليـتني ... أعطى وُصولاً بالذي أنفقته
يا من شُغلتُ بحبه عـن غيره ... وسلوت كل الناس حين عشقته
كم جال في ميدان حبك فارسٌ ... بالصدق فيك إلى رضاك سبقته
أنت الذي جمع المحـاسن وجهه ... لكن علـيه تصبري فرقته
قال الوشاة قد ادعى بك نسبة ... فسررتُ لما قلتَ قـد صدقته
بالله إن سألوك عني قـل لهم ... عبدي وملك يدي ومـا اعتقته
أو قيل مشتاقٌ اليـك فقل لهم ... أدري بذا وانا الذي شوّقـته
يا حسنَ طيف من خيالك زارني ... من فرحتي بلقاك ما حققتهُ

فمضى وفي قلبي علـــيه حسرةٌ　　لو كان يمكنني الرقـــاد لحقته

والشعراء يشكون غالباً ألا يمكث الطيف طويلا . وقد شذ الطغرائي فذكر ان محبوبته عتبت عليه لغيبة الطيف عنده ، وطول مكثه لديه . وذلك قوله :

بعثت إليّ تلومني في هَجعةٍ　　اهدت إليّ خيالها المذعورا
وتقول ما للطيف أبطأ بعدما　　كنا اشترطنا ان يقيم يسيرا
فأجبتها بالعذر وهو مبيّنٌ　　لو كان يُنصف لائمٌ معذورا
أطبقت اجفاني عليه وسمته　　خوض الدموع فما استطاع عبورا

وهذا الخيال على طرافته منتقد . فان الطيف لا يدخل العين ، حتى يُضطر إلى عبور الدمع ، وهدى الله قوماً يحسبون هذا الشعر من وثبات الخيال !

قالوا : وأول من طرد الطيف طرفة ابن العبد في قوله :

فقل لخيال العامرية ينقلبْ　　اليها فاني واصلٌ حبلَ من وصل

وتبعه جرير فقال :

طرَقتك صائدة القلوب وليس ذا　　وقت الزيارة فـــارجعي بسلام

وهذا حدْس وتخمين ، فانه ليس إلى توقيت النوازع القلبية من سبيل .

ومن طريف الشعر في طرد الخيال قول ابن هانيء الأندلسي :

ألا طرقتنا والنجوم ركودُ　　وفي الحيّ أيقاظٌ ونحن هُجود
وقد أعجل الفجر الملمّع خطوها　　وفي أُخريات اللـــيل منه عمودُ
سرت عاطلاً غضبى من الدر وحده　　فلم يدر نحرٌ ما دهـــاه وجيد
فما برحت الا ومن سلك ادمعي　　قلائد في لبّاتها وعقود
ألم يأتها أنا كبرنا عــن الصبا　　وأنا بَلينا والزمان جديد

ومن الشعراء من يعتذر عن النوم في بعد الحبيب باحتياله لزيارة الخيال . انظر قول علي الايادي :

أما انه لولا الخيال المراجـــع　　وعاصٍ يُرى في النوم وهو مطاوع
لأشفق واستحيا من النوم والهٌ　　يُرى بعد روْعات النوى وهو هاجع

وأود لو تأمل القارىء قوله (وعاص يرى في النوم وهو مطاوع) فطالما

قدم النوم هؤلاء العصاة وهم للحب خاضعون !

وأصل هذا المعنى لقيس بن الملوح في قوله :

واني لأستغشي وما بي نعسة   لعل خيالاً منك يلقى خياليا
واخرج من بين الجلوس لعلني   احدث عنك النفس في السر خاليا
تقطع انفاسي بذكرك انفساً   يردن فما يرجعن إلا صواديا

وأوضح منه قول قيس بن ذريح :

واني لأهوى النوم في غير نعسة   لعل لقاءً في المنام يكون
تخبرني الأحلام اني أراكم   فيا ليت احلام النيام يقين

والظاهر ان نعمة الطيف لا تسوى بين العشاق جميعاً . فهي عند بعضهم لوعة وغليل ! فقد جعلها حسين بن الضحاك قناعة تقضي بها الضرورة حين يقول :

وماذا يفيدك طيف الخيا   ل والهجر حظك ممن تحب
غناءٌ قليلٌ ولكنني   تمنيته بقنوع المحب

ومن الشعراء من يعجب لزيارة الخيال ، كأن يزوره الطيف وهو سجين ، كقول جعفر بن علبة :

عجبت لمسراها وأنى تخلصت   إليّ وباب السجن دوني مغلق
ألمّت فحيت ثم قامت فودعت   فلما تولّت كادت النفس تزهق
فلا تحسبي أني تخشّعت بعدكم   لشيءٍ ولا اني من الموت افرق
ولا ان نفسي يزدهيها وعيدهم   ولا انني بالمشي في القيد اخرق
ولكن عرتني من هواك صبابةٌ   كما كنت ألقى منك إذ أنا مطلق

وقد ترفق زياد بن حمل فعجب كيف زاره طيف حبيبته مع انها ضعيفة المشي مكسال . وذلك قوله من قصيدة طويلة :

زارت رويقة شمثا بعدما هجعوا   لدي نواحل في ارساغها الخدم
وقمت للزور مرتاعاً فأرقني   فقلت اهي سرت ام عادني حلم
وكان عهدي بها والمشي يبهظها   من القريب ومنها النوم والسأم
وبالتكاليف تأتي بيت جارتها   تمشي الهوينا وما تبدو لها قدم

سود ذوائبها بيض ترائبها   دُرْم مرافقها في خلقها عمَمُ
رويق إني وما حج الحجيج له   وما اهلّ بجنبي نخلة الحُرُمُ
لم ينسني ذكركم مذ لم ألاقكم   عيش سلوت به عنكم ولا قِدمُ
ولم تشاركك عندي بعد غانيةُ   لا والذي اصبحت عندي له ذِمم

ومن هذا يعتذر فريق من الشعراء عن هجر الطيف لبعد الشقة كقول ابن عنين .

سامحت كتبك في القطيعة عالماً   ان الصحيفة اعوزت من حامل
وعذرت طيفك في الجفاء لأنه   يسري فيصبح دوننا بمراحل

وقال كشاجم في مثل هذا العذر الطريف :

لقد بخلت حتى بطيف خيالها   عليّ وقالت رحمة لنحيبي
اخاف على طيفي إذا جاء طارقاً   وسادك ان يلقاه طيف رقيبي

طرف ادبية

وقد يكون من المستملح ان نذكر جملة من الطرف تتناسب مـــع طيف الخيال . فمن ذلك ما أرسله بعض الشعراء إلى الحسن بن سهل :

رأيت في النوم اني راكب فرساً   ولي وصيفٌ وفي كفي دنانيرُ
فقال قوم لهم فهمٌ ومعرفةٌ   رأيت خيراً وللأحلام تعبير
رؤياك فسرّ غداً عند الأمير تجد   في الحلم دراً وفي النوم التباشير

فوقع في اسفل الكتاب « اضغاث احلام وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين » !!
ودخل بعض الشعراء على بشر بن مروان فأنشده :

أغفيت عند الصبح نوم مسهّدٍ   في ساعة ما كنت قبل أنامها
فرأيت انك رعتني بوليدة   رعبوبة حسنٌ عليّ قيامها
وببدرةٍ حُملت إلي وبغلةٍ   دهماء مشرقة يصل لجامها
فدعوت ربي ان يثيبك جنة   عوضاً يصيبك بردُها وسلامها

فقال له : ابشر في كل شيء الا البغلة فاني لا املك إلا شهباء ! فقال : امرأتي طالق ان كنت رأيتها إلا شهباء غير اني غلطت !

ونقل عن ابي العبر انه كان عنده حمار فمات فرآه في النوم ينشد شعراً يقول فيه انه مات عاشقاً ، فسأله المتوكل ما الذي كان من شأنه ؟ فقال : كان يا امير المؤمنين اعقل من القضاة ، ليس له هفوة ولا زلة ! فاعتلّ على حين غفلة ، فمات ، فرأيته في النوم فقلت له . ألم أنقّ لك الشعير وابرد لك الماء ، فما سبب موتك؟ فقال اتذكر اذوقفلت على باب الصيداني ؟ قلت نعم ، قال مرت إذ ذاك اتان فافتتنت بها ومت ! فقلت وهل قلت شيئاً في ذلك؟ فقال نعم وانشد :

هام قلبي بأتان عند باب الصيدلاني
تيمتني يوم رُحنا بثناياها الحسان
وبخدٍّ ذي دلالٍ مثل خد الشيقران
فبها متُّ ولو عشـ ـت إذاً طال هواني

فقال له يا أبا معاذ . وما الشيقران ؟ فقال انا مشغول بما انا فيه ! وهذا كلام تعرفه الحمير ! فاذا رأيتم حماراً ، او من كان اولا حمـــاراً ، فاسألوه ! فضحك المتوكل حتى استلقى على قفاه ، ثم امر له بعشرة آلاف درهم ، جزاء بما ابدع في هذا الخيال .

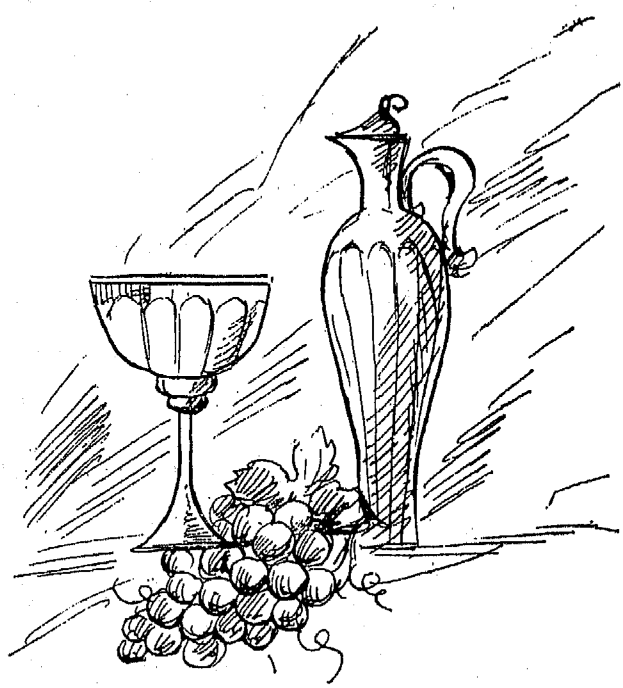

اليأس والرجاء

ليس في العشاق من لم يُرزق الامل والرجاء ، وليس فيهم من لم يُرزأ باليأس والقنوط .

وقد تأملت ما قال الشعراء في اليأس ، فرأيت منهم من يترك لأجله العتاب كقول ابن الاحنف :

سكوتي بلاءٌ لا اطيق احتماله وقلبي ألوفٌ للهوى غيرُ نازعِ
واقسم ما تركي عتابكِ عن قِلى ولكن لعلمي انه غير نافع
واني إذا لم الزم الصبر طائعاً فلا بدّ منه مكرهاً غير طائع
إذا انت لم يعطفك إلا شفاعةٌ فلا خير في ودٍّ يكون بشافع

وقد عزّى نفسه ابن الاحنف حين يئس بقوله :

لعمري لقد جلبت نظرتي اليك عليّ بلاءً طويـــلا
فيا ويح من كلفت نفسهُ بمن لا يطيق اليه السبيلا
هي الشمس مسكنها في السماء فعزّ الفؤاد عزاءً جميلا
فلن تستطيع اليها الصعود ولن تستطيع اليك النزولا

واني لأتمنى ان يرحمني الله من عذابي ، بترديد هذا البيت الجميل :

فيا ويح من كلفت نفسه بمن لا يطيق اليه السبيلا

ومن العشاق من يرى اليأس أروح من الطمع . كما قال صردر :

لا أمـدح اليأس ولكنه أروح للنفس من المطمعِ

يا ليت اني قبل وَقدِ الهوى | أذنت للعذلِ على مسمعي
أين بدورٌ من بني دارمٍ | تبخل أن تُسفر في مطلعِ
لا في سِرار الشهر تبدو لنا | ولا ليالي العشر والأربع
أودعتهم قلبي وما خلتهم | يستحسنون الغدر بالمودع
لو زارني طيفهمُ ما درى | من الضنى أنيَ في مضجعي

ومن المتيمين من يعتذر عن نسيانه ، بيأسه وقنوطه . ولم أجد في هذا المعنى أبدع من قول الطغرائي :

مَن مُبلغ الحيَّ شطت دارهم ورضوا | بالجار جاراً وما أرضى بهم عِوَضا
قد طاب عنكم فؤادٌ طاب قبلكم | عن الرِّضاع تقضَّى والشباب مضى
إن الزمان الذي كانت بشاشته | للقلب والعين ملهىً بان فانقرضا
فان نسيت فيأسٌ لم يدع طمعاً | وان ذكرت فعرقٌ ساكنٌ نبضا
حكَّمت في مهجتي من ليس ينصفني | ولست أبلغ من تحكيمه غرضا
سيّان عندي وأمري صار في يده | قضى علـيَّ بجورٍ أم إليَّ قضى

وليس بعد اليأس إلا الرجاء ، وان عجب لذلك بعض الناس . فمن المحبين من يلهج بالأمل ترويحاً لنفسه ، وترفيهاً لقلبه ، كالذي يقول :

أعللُ بالمنى قلبي لعلي | أُروّح بالأماني الهمَّ عني
واعلم ان وصلك لا يرجّى | ولكن لا اقلَّ من التمني

ومنهم من يجعل الرجاء نصيب المبعَد الحزين كما قال ياقوت :

لله أيامٌ تقضَّت بكم | ما كان أحلاها وأهناها
مرَّت فلم يبق لنا بعدها | شيءٌ سوى أن نتمناها

ويكاد الامل يصرخ في قول مسلم بن الوليد :

أدهراً تولّى هل نعيمك مقبلُ | وهل راجعٌ من عيشنا ما نؤملُ
أدهراً تولّى هل لنا منك عودةٌ | لعلك يُعدى آخراً منك أولُ

واوجع الشعر في هذا المعنى قول ابن زريق :

لأصبرنَّ لدهر لا يمتعني به ولا بيَ في حال يمتعه
علماً بأن اصطباري معقب فرجاً فأضيق الأمر لو فكرت اوسعه
علّ الليالي التي اضنت بفرقتنا جسمي ستجمعني يوماً وتجمعه

ولو سُئلت عن رأيي في اليأس والرجاء ، لقدمت لسائلي هذه الدعوة المستجابة التي أدعو بها عقب كل صلاة « يا ربي ! إنني ما جحدت نعمتك يوم رزقتني بهم ، ولا جهلت حكمتك يوم اقصيتهم عني ، وهأنذا انتظر فضلك وطولك ، في ردهم إليّ ، وعطفهم عليّ . فلولا الثقة برحمتك ،والايمان باحسانك، لذهبت النفس عليهم حسرات . وقُطع القلب في آثارهم قِطعا » .

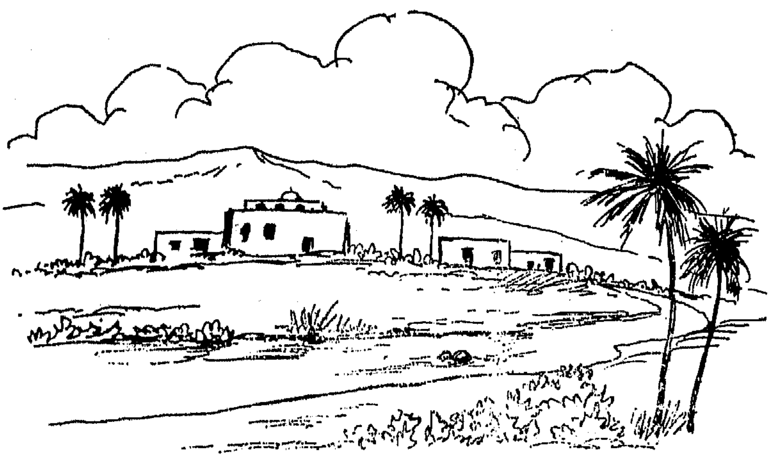

العتاب

خير العتاب ما كان ظاهر الذل ، بادي الخضوع ، نزولا عند حكم الهوى ، وإيماناً بعودة الحبيب ، كقول القائل :

يا غاية القصدواقصى المنى   وخير مَرعى مقلة الناظر
إن كان لي ذنبٌ ولاذنبَ لي   فما له غيرك من غـــافرِ
اعوذ بالود الذي بيننا   ان يفسد الاول بالآخر

وحسبك من موجب العطف ، ودواعي الرحمة ، ان يتوسل المحب بسالف حبه ، وماضي عهده ، وان يجعل الامر في غفر ذنبه لحبيبه .

وقال ابن التعاويذي :

يا ابنة القوم كيف ضاعت عهودي   بينكم والوفاء في العرب دينُ
كيف اسلمت فيك قلبي إلى الاشـ   ـجان لولا ان الغرام جنون
اتريْنني على النوى مضمراً عنـ   ـكِ سلواً اني إذن لخـــئون
انا من قد علمت عهدي على النأ   ي وثيق وحبل ودي متين

ولا يكون العتاب باباً للرضى إلا حـــين يصبح إنابة خالصة ، كقول ابن زيدون :

يا قمراً اطلعه المغرب   قد ضاق في حبك المذهب
ألزمتني الذنب الذي جئته   إليَّ فاصفح ايها المذنب

وكقول الآخر :

إذا مرضتم اتيناكم نعودكم   وتذنبون فنأتيكم فنعتذر

فأما قول البحتري :

قد كان مني الوجد غِبّ تذكرٍ   إذ كان منك الصدغب تناسي

تجري دموعي حيث دمعك جامدٌ ويرق قلبي حيث قلبك قاسي

فهو بالتأنيب اشبه منه بالعتاب ، وخير منه قول البحتري نفسه في كلمة ثانية :

إني وان لم ابح بوجدي أُسِرُّ فيك الذي أُسرُّ
يا ظالماً لي بغير جرم اليك من ظلمك المفرُّ
انت نعيمي وانت بؤسي وقد يسوء الذي يسرُّ

وقوله من كلمة اخرى تسيل ذلةً وتفيض خضوعاً :

ايا قمر التام اعنْت ظلماً عليَّ تطاول الليل التام
أما وفتور لحظك يوم ابقى تقلبهُ فتوراً في عظامي
لقد كلفتني كلفاً أُعني به وشغلتني عما امامي
اعيذك ان يُراق دم حرامٌ بذاك الدَّلّ في شهر حرام

ويعجز القلم عن وصف ما لهذا الشعر من روعة الجمال ، واتمنى لو تأمل القارىء قليلا هذا البيت الجميل :

يا ظالماً لي بغير جرم اليك من ظلمك المفرُّ

فانه خير من قول ابن زيدون:

ألزمتني الذنب الذي جئته إلي فاصفح ايها المذنبُ

وهل رأى القارىء ، أروح للنفس ، وامتع للقلب ، من هذا القسَمْ :

اما وفتور لحظك يوم ابقى تقلبه فتوراً في عظامي

وهل رأى حيرة للحب اشقى من حيرة الذي يقول :

لقد كلفتني كلفاً اعنّي به وشغلتني عما امامي

ألا ليت الذين يكتبون رسائلهم باللغة العامية ، يعلمون ما نعلم من جمال اللغة الفصيحة ليعرفوا انهم يجنون على انفسهم ، وعلى قرائهم إذ يحرمونهم من التطلع إلى جنة الادب ، وقطوفها الدانية ! ولو عرضت على كتاب العامية هذا البيت :

اني وان لم ابح بوجدي اسر فيك الذي اسرُّ

ثم سألتهم ما فيه من وجوه الحسن لحسبوك من المسرفين ، وكيف يفهم جمال هذا البيت من يتدلى الى اللغة المبتذلة المهلهلة عجزاً عن الكتابة باللغة التي رحبت بثمرات العقول في جميع الامم الاسلامية ، وكانت لغة العالم زمناً غير قليل .

ولا يحسب واحد من هؤلاء ان الحسن في الادب لا حد له ولا تعريف ، بل هناك حقائق ادبية يرتكز عليها الجمال . في الشعر البديع والنثر الجميل ، وقاعدة الحسن فيما نحن فيه ان العرب يستملحون بعض ألفاظ الشمول في كثير من المواطن إيذاناً بالتفخيم والتهويل ، كلفظة « ما » في قوله تعالى (فغشيهم من اليم ما غشيهم) للدلالة على ان ما عانوه من طغيان الماء يفوق الوصف ، ويعجز عنه التمثيل ، ومنها قول البحتري :

برّح بي حبك المعنيّ وغرّني منك ما يغرّ

إذ كانت دواعي الحب ، واسباب العشق ، مما يقصر عن ادراكه المحب المفتون ، والعاشق المأسور !

ومن ذلك لفظة « الذي » في هذا البيت المختار :

اني وان لم ابح بوجدي اسرّ فيك الذي اسرّ

إيذاناً بأن ما يجنه من اللوعة ، وما يكنه من الشوق ، اجل من ان يحيط به الوصف ، او يناله البيان !

ومن العشاق من يضيف الى ذلة العتاب ، ذلة الإقرار بالذنب كقول الشريف :

ايا شاكياً مني بذنب جنيته	فديتك من شاكٍ اليّ حبيبِ
لئن راب مني ما يريب فانني	على عدواء الداء غير مريب
واني لأرعى منك والود بيننا	هوى قلما يرعى بظهر مغيب
فهب لي ذنباً واحداً كنت قلته	فما زلة من حازم بعجيب
فيا حسن حال الود ما دمت مذنبا	اتوب وما دامت تعد ذنوبي

والبيت الاخير يذكرنا بقول بشار :

ومن ذا الذي تُرضي سجاياه كلها	كفى المرء نبلا ان تعدّ معايبه

ومن بديع الشعر في وصف العتاب ، وما فيه من ذلة العاشق ، وعزة المعشوق قول الشريف :

ومقبّل كفي وددت لو انه ... اومـــا الى شفتي بالتقبيل
جاذبته طرف العتاب وبيننا ... كِبر الملول وذلـــة المملول
ولحظت عقد نطاقه فكأنما ... عُقد الجمال بقرطق محلول
جذلان ينفض من فروج قميصه ... اعطاف غصن البانة المطلول
من لي به والدار غير بعيدة ... من داره والمـــال غير قليل

وقوله :

ومقبّل كفي وددت لو انه ... اوما الى شفتي بالتقبيل

يذكرنا بقول الصاحب بن عبّاد :

اهوى لتقبيل يدي ... فقلت لا . بل شفتي !

وحيرة امثال الشريف الرضي والصاحب بن عباد في امثال هـــذه المواقف حيرة رهيبة ، فكلا الرجلين عالم جليل ، ولكن الحب كالموت لا يعصم منه البرج المشيد ، والحصن المنيع ، وقد يتقرب بعض الناس إلى مثل الشريف الرضي بتقبيل يمناه ، فيود هذا لو قبل شفتيه ، لأن الحب شغله عن الاحتفاظ بالعظمة ، وقضى عليه بتقديس الجمال ! وهنا يظهر بطش الحب وعدوانـــه : حين يذهب بوقار العلم ، وجلال الجاه ، وغُرور المال ، ثم يسوي بين الاقدار ، ربما ينسى العالم علمه ، والوجيه جاهـــه ، والغني ماله ، حتى إذا انِست تلك النفوس العاتيه إلى هذه المساواة ، عاد فميز اهل الحسن ، ورفع ارباب الجمال ، وصيّر المحبين اذلة ، بالرغم من انف العلم والجاه والمال ! ويقول العرب : الهوى اله معبود ، وانهم لصادقون . غير انه يحسن ان نعرف ان هذا الإله ليس برحمن ولا رحيم ، ولكنه قهار جبار ! ولولا الرحمة بضعفاء اليقين لأعطيت هذا البحث ما يستحقه من البيان ، ولبينت للقارىء رأي الفلاسفة في مملكة الجمال ، ولكن الدين في كثير من القلوب كالكرى في عين الخائف المذعور : يودي به مر الطيف وهبوب النسيم ! والذين يختلفون في النظرة البريئة احرام هي حلال ، لا يعقلون

كيف يكوي الهوى إلهاً ، وكيف يكون له ملائكة مقربون ، من الشعور ، والعيون ، والخدود ، والثغور ، والنحور والصدور ، وهم ان عقلوا هذه الالوهية فلن يعقلوا كيف يكون لها من كتاب الحب انبياء مرسلون ، بل كل محب عندهم ماجن خليع ، قاتلهم الله انى يؤفكون !

ونعود فنبين ان الشريف اجاد تصوير العتاب بقوله :

جاذبته طرف العتاب وبيننا   كِبر الملول وذلــة المملول

والمراد بكبر الملول عزة المعشوق ، الذي تحدثه عن هجره وصده ، فكأنما تُسمعه هُجر القول ولغو الحديث ، فيتبرم ويتململ ، ويود لو ارحته من حديث الحب : إذ كان الحسن يسد اذن الجميل ، فلا يسمع الشكوى ولا يفقه العتاب ، وما ابدع الغزل في قوله :

جذلان ينفض من فروج قميصه   اعطاف غصن البانــة المطلول

ولا يكاد حضرة الشاعر الكبير حافظ بك ابراهيم يذكر الشريف الرضي الا ذكر له هذا البيت ، وله فيه تأويل عجيب ! ولعل ابرع ما قيل في التطلع إلى الاستمتاع بالجمال ، قوله في هذا البيت المختار :

من لي به والدار غير بعيدةٍ   من داره والمال غــير قليل

ولعل صديقنا الشيخ عبد العزيز صقر يتسلى بأن الشريف الرضي على جاهه كان يشكو بعد الدار ، وقلة المال :

فدع ذكر سُعدى إن فيك تقية"   ألا انما يبغي المها مــن يصيدها

وقد يصبح العتاب وهو لوم للنفس ، وعذل للقلب ، على الكلف بحبيب ليس للحب عنده جزاء ، فمن ذلك قول بعض الاعراب :

احباً على حبٍّ وانت بخيلة"   وقد زعموا ان لا يُحب" بخيل

بلى والذي حج الملبّون بيته   ويشفي الهوى بالنيل وهو قليل

وإن بنا لو تعلمين لغــلة   اليكِ كما بالحائمــات غليل

وقد يعكس هذا المعنى ، فيحب العاشق ظلم معشوقه ، ويحب مــن اجل ذلك اعداءه الظالمين ، كقول ابي الشيص الخزاعي :

وقف الهوى بي حيث انت فليس لي   متأخر عــنه ولا متقدم

أجد الملامة في هواك لذيذة   حباً لذكرك فليلمني اللوم
اشبهت اعدائي فصرت احبهم   إذ كان حظي منك حظي منهم
واهنتني فأهنت نفسي صاغراً   ما من يهون عليك ممن أُكرم

ومن العشاق من يمزج العتاب بذكر ما لقي في سبيل الحب من البلايا ، كقول ابن الدمينة :

وانت التي كلفتني دلج السرى   وجون القطا بالجلهتين جُثوم
وانت التي قطعت قلبي حزازة   وفرّقت قرح القلب فهو كليم
وانت التي احفظت قومي فكلهم   بعيد الرضا داني الصدود كظيم

وقد اجابته محبوبته أمامة فذكرت ما لقيت في سبيل حبه من سفاهة الوشاة ، وشماتة اللائمين ، حين تقول :

وانت الذي اخلفتني ما وعدتني   واشمتّ بي من كان فيك يلوم
وابرزتني للناس ثم تركتني   لهم غرضاً أُرمى وانت سليم
فلو ان قولا يكلم الجسم قد بدا   بجسمي من قول الوشاة كلوم

وقد ضعف ابن الدمينة عن مجاراتها في قسوة العتاب ، فبعث اليها الابيات الآتية ، يسألها الصفح والغفران :

واذا عتبتِ عليّ بتُّ كأنني   بالليل مختلس الرقاد سليم
ولقد اردت الصبر عنك فعاقني   عَلَقٌ بقلبي من هواك قديمُ
يبقى على حدث الزمان وريبه   وعلى جفائك انه لكريم

ومن المحبين من تعجزه الحيلة ، فيذكر احبابه بأن الحياة قصيرة ، لا تتسع للصد ، ولا تحتمل الهجر ، كقول الطغرائي :

ويا رُفقة مرّت بجزعاء مالك   تؤم الحمى أنضاؤها ال[illegible]

فدع ذكر سُعدى إن فيك تقيةً   ألا انما يبغي المها من يصيدها

وقد يصبح العتاب وهو اوم للنفس ، وعذل للقلب ، على الكلف بحبيب ليس للحب عنده جزاء ، فمن ذلك قول بعض الاعراب :

احباً على حبٍّ وانت بخيلةٌ   وقد زعموا ان لا يُحبّ بخيل
بلى والذي حج الملبّون بيته   ويشفي الهوى بالنيل وهو قليل
وإن بنا لو تعلمين لغلة   اليكِ كما بالحائمات غليل

وقد يعكس هذا المعنى ، فيحب العاشق ظلم معشوقه ، ويحب من اجل ذلك اعداءه الظالمين ، كقول ابي الشيص الخزاعي :

وقف الهوى بي حيث انت فليس لي   متأخر عنه ولا متقدم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إذا زرتُ أرضاً بعد طول اجتنابها   فقدت صديقي والبلاد كما هيا
فأكرم اخاك الدهر ما دمتما معاً   كفى بالممات فرقة وتنائيا

وقد كاد سعيد بن حميد يضع لهذا المعنى صورة شعرية بقوله في النهي عن العتاب :

أقللْ عتابك فالبقاء قليل   والدهر يعدل تارة ويميلُ
لم أبكِ من زمن ذممت صروفه   إلا بكيت عليه حين يزول
ولكل نائبة ألمت مدةٌ   ولكل حال أقبلت تحويل
والمنتمون إلى الأخاء جماعة   إن حُصّلوا أفناهم التحصيل
فلئن سبقتُ لتبكينّ بحسرةٍ   وليكثرنّ عليّ منك عويل
ولتفجعنّ بمخلص لكَ وامقٍ   حبل الوفاء بحبله موصول
ولئن سبقتَ ولا سبقت ليمضين   من لا يشاكله لديّ خليل
وليذهبنْ بهاء كل مروءةٍ   وليفقدنّ جمالها المأهول
وأراك تكلف بالعتاب وودنا   باقٍ عليه من الوفاء دليل
ولعلّ أيام الحياة قصيرةٌ   فعلام يكثر عتبنا ويطول

على ان الرفق الذي ألمّ بالطغرائي فجعله يرجو أحبابه أن لا يسبقوا صروف الليالي ، لم يمنعه من ان يصرخ شاكياً في نفس القصيدة . فيرمي أحبابه بالخيانة والنسيان ، وذلك قوله :

أفي الحق اني قدقضيت ديونكم   وان ديوني باقياتٌ كما هيا
فوا أسفي ، حتام أرعى مضيّعاً   وآمن خوّاناً وأذكر ناسيا
ومازال احبابي يسيئون عشرتي   ويجفونني حتى عذرت الأعاديا

والبيت الأخير يذكرنا بقول أبي تمام :

أحبابَه لِمَ تفعلون بقلبه   ما ليس يفعله به أعداؤه

وقد بسط الارجاني هذا المعنى فقال :

أأحبابنا كم تجرحون بهجركم   فؤاداً يبيت الليل بالهم مكمدا
إذا رمتمُ قتلي وأنتم أحبةٌ   فما الذي أخشى إذا كنتمُ عِدا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سأضمر في الاحشاء منكم تحرقاً   واظهر للواشين عنكم تجلدا
وأمنع عيني اليوم ان تكثر البكا   لتسلم لي حتى أراكم بها غدا

ومن هؤلاء المساكين الذين لا يجدون حيلة غير تذكير أحبابهم بقصر الحياة أبو صخر الهذلي في هذه الابيات الموجعة :

بيد الذي شغف الفؤاد بكم   تفريج ما ألقى من الهمّ
قد كان صرمٌ في الممات لنا   فعجلت قبل الموت بالصّرم
ولما بقيت ليبقين جوًى   بين الجوانح مضرعٌ جسمي
فتعلمي أنْ قد كلِفت بكم   ثم افعلي ما شئت عن عِلم

وما ذكرت هذه المعاني المحزنة إلا تغنيت بهذا البيت الذي لا اراه إلا زفرةً تتصعّد ، أو عبرة تتدفق :

وأرى الايام لاتدنى الذي   أرتجي منك وتدنى أجلي !!

ومن الشعر الممتع في وصف الحيرة ، يرمى بها المحب العميد ، قول الشريف يعاتب حبيباً أغراه بالحب ، ثم اصلاه الصدود :

ياصاحب القلب الصحيح اما اشتفى   ألم الجوى من قلبيَ المصدوع
أأسأت بالمشتاق حين ملكته   وجزيت فرط نزاعه بنزوعِ
هيهات لا تتكلفنَّ ليَ الهوى   فضح التطبع شيمة المطبوع
كم قد نصبتُ لك الحبائل طامعاً   فنجوتَ بعد تعرّض لوقوع
وتركتني ظمآن أشرب غلتي   أسفاً على ذاك اللمى الممنوع
قلبي وطرفي منك هذا في حمى   قيظٍ وهذا في رياض ربيع
كم ليلةٍ جرّعتهُ في طولها   غصص الملام ومؤلم التقريع
أبكي ويبسم والدجى ما بيننا   حتى اضاء بثغره ودموعي
تفلي انامله التراب تعللاً   وأناملي في سنيَ المقروع
قمرٌ اذا استخجلته بعتابه   لبس الغروب ولم يعد لطلوع
لو حيث يُستمع السّرار وقفتما   لعجبتما من عزه وخضوعي
أبغي هواه بشافع من غيره   شر الهوى ما نلته بشفيع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أهونْ عليك إذا امتلأت من الكرى   أني ابيت بليلة الملسوع
قد كنت اجزيـــك الصدود بمثله   لو ان قلبك كان بين ضلوعي

وقد ارتبت في بيتين وردا في خلال هذه القصيدة ، وبينهما وبين موضوعها بون شاسع ، وهما قوله :

ما كان إلا قبـــلة التسليم أر   دفهـــا الفراق بضمة التوديع
كمدي قديم في هواك وانمـــا   تاريخ وصلك كان مذ اسبوع

فان هذا الوصل الحديث خليق بمحو ذلك العتب القديم ، والتنافر بين هذين البيتين وبين موضوع القصيدة ظاهر على الاقل من مقابلتهما بهذا البيت الجميل :

أهونْ عليك إذا امتلأت من الكرى   اني ابيت بليلة الملسوع

فانه يدل على ان الحبيب غير بعيد ، وانه في قربه نافر شرود ، مما يذكرنا بقوله من كلمة ثانية :

أبيتُ والليل مبثوثٌ حبائلهُ   والوجد يقنص مني كل مجلودِ
شوقاً اليك واشفاقاً عليك ولي   دمعان ما بين محلول ومعقود
ليس الغريب الذي تنأى الديار به   ان القريب قريب غير مودود

وإنما اردنا هذه الملاحظة ليتنبه القارىء إلى ان في الدواوين اشيـــاء كثيرة نسبت زوراً إلى الشعراء ، وربما عدنا إلى تحقيق ذلك في مبحث خاص . والادباء يعجبون بعينية الشريف هذه في العتاب ، وقلّ منهم من لا يحفظ هـــذا البيت المختار :

لو حيث يستمع السرار وقفتما   لعجبتما من عزه وخضوعي

والعز والخضوع في هذا البيت يذكرنا بالعز والذل في قول عمارة اليمنى في المجون :

ونافر الاعطاف عاملتهُ   باللطف حتى سكن النافرُ
ولم أزل أمسحُ أعطافه   ورأيه في قصتي حـــائر
حتى غدا منخجلٍ مطرقاً   وكل إعراض له آخـــر
عجبت من ذلي ومن عزه   في موقفٍ عاذلهُ عاذر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في ليلةٍ ساهرها نائمٌ فما له سمعٌ ولا ناظر
مددت فيها الفخ لما خلا الـ جوُّ إلى ان وقع الطائر
فبتُّ من فرط اغتباطي به اظن اني غائبٌ حاضر

وابن التعاويذي يجيد الشعر في العتاب ، وهو صاحب هذه الابيات المختارة :

خذ في افانين الصدود فان لي قلباً على العِلاّت لا يتقلبُ
أتظنني اضمرت بعدك سلوةً هيهات عطفك من سلوّي اقرب
قد كنت تنصفني المودة راكباً في الحب من اخطاره ما اركب
فاليوم اقنع ان يمرّ بمضجعي في النوم طيف خيالك المتأوِّب

وهو ايضاً صاحب هذه القطعة التي تمثل الوجد الدفين :

يا نازحاً ليس يدنو وعاتباً ليس يرضى
يا واجداً وديوني في حبه ليس تقضى
أمرت عيني ففاضت ومضجعي فأقضّا
ارقد هنيئاً فاني ما ذقت بعدك غمضا

ومن الظلم للعواطف ان لا نفصل مذهب العباس بن الاحنف في العتاب ، فان شعره آية الآيات في الشكوى من الهجر ، والتوجع من الصدود ، وهو مع هذا يعد ايام الهجر احسن ايامه ، ويقول :

واحسن ايام الهوى يومك الذي تُروَّع بالهجران فيه وبالعتْبِ
إذا لم يكن في الحب سخطٌ ولا رضاً فأين حلاوات الرسائل والكتب

ولكن هذا امل بعيد ، فليس كل عتب تدور فيه رسائل الحب ، وصحف الهوى ، وكذلك رزىء ابن الاحنف بمن ينبذ كتبه ، ويمزق رسائله ، وفي هذا المعنى قرأنا له هذه القطعة الباكية :

وصالكِ مظلمٌ فيه التباسٌ وعندك لو أردت له شهابُ
وقد حُمّلت من حبيك ما لو تقسّم بين اهل الارض شابوا
افيقي من عتابك في أناسٍ شهدتِ الحظ من قلبي وغابوا
يظن الناس بي وبهم وانتم لكم صفو المودة واللباب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكنت إذا كتبت اليك اشكو ظلمت وقلت ليس له جواب
فعشت اقوت نفسي بالاماني اقول لكل جامحة إياب
وصرت إذا انتهى مني كتاب اليك لتعطفي نبذ الكتاب
وان الود ليس يكاد يبقى إذا كثر التجني والعتاب
خفضت لمن يلوذ بكم جناحي وتلقوني كأنكم غضاب

وقد اكثر ابن الاحنف من التوجع لحرمانه من كتب من يهوى، وهو صاحب هذا البيت الحزين :

ويقنعني ممن احب كتابه ويمنعنيه ، إنه لبخيل !

وكثيراً مايميل ابن الاحنف الى الصفح الجميل ، إذ يرى العتاب لا يعطف القلوب ، إن لم تضمر الحنان . وقد افصح عن ذلك في هذه الابيات :

انكر الناس ساطع المسك من دجـ ـلة قد اوسع المشارع طيبا
فهمو يعجبون منه وما يدرو ن ان قد حللت منه قريبا
قاسميني هذا البلاء وإلا فاجعلي لي من التعزي نصيبا
ان بعض العتاب يدعو الى العتـ ـب ويؤذي به المحب الحبيبا
وإذا ما القلوب لم تضمر العطـ ـف فلن يعطف العتاب القلوبا

وما اجمل العزة في قوله :

خفضت لمن يلوذ بكم جناحي وتلقوني كأنكم غضاب

وقوله :

خفضت طرفي لأدنى من يلوذ بكم حتى احتقرت وما مثلي بمحتقر

واي كريم لم يلق مثل هذه الذلة في سبيل الصبابة ؟ ومتى عرف الهوى قيمة العزة في نفوس الاعزاء ، فعصمها عن مدارة قوم يحيطون بالجمال ، احاطة الاشواك بالورود ؟

وقد نرى ابن الاحنف يائساً من نفع العتاب ، فنقرأ له هذه الابيات في التبرم بالسكوت :

سكوتي بلاء لا اطيق احتماله وقلبي الوف للهوى غير نازع

فأقسم ما تركي عتابك عن قلىً ... ولكن لعلمي انهُ غير نافع
واني إذا لم ألزم الصبر طائعاً ... فلا بدّ منه مُكرهاً غير طائع
إذا انت لم يعطفك إلا شفاعةٌ ... فلا خير في ودٍّ يكون بشافع

وربما رأيناه زاهداً في العتاب ، لأن محبوبته لا تصد صد العاتب ، بل صد الملول وذلك قوله :

لو كنتِ عاتبةً لسكّن لوعتي ... أملي رضاك وزرت غير مراقبِ
لكن مللتِ فلم تكن ليَ حيلةٌ ... صدُّ الملول خلاف صدّ العاتب
ما ضرّ من قطع الرجاء ببخلهِ ... لو كان علّلني بوعدٍ كاذب

على ان ابن الاحنف لم يقض كل حياته في هذا العذاب ، بل رأيناه يعجب بنصره في الحب ، وقهره لقلوب الحسان ، أليس سعيداً من يقول :

يا ربّ جاريةٍ أسلبتُ عَبرتها ... من رقة ولغيري قلبُها قاسي
كم من كواعبَ ما ابصرن خط يدي ... إلا تمنين ان يأكلن قرطاسي

وكان البها زهير ، احد وزراء مصر في ايامها الخوالي ، من ارق الشعراء في العتاب ، حتى لتحسب شعره نجوى بين المحب والحبيب ، او رنين الحلى عند عناق الحسان ، او خفوق الامل في قلب اليائس المحزون . انظر إلى اعتذاره عن محبوبه ، ورضاه عما جنت يد الدلال يسكر به المعشوق الجميل :

مولاي من سكر الدلا ... ل عبثتَ والسكران عابثْ
ونكثتَ عهداً في الهوى ... ما خلتُ انك فيه ناكث
لك لا اشكُّ قضيةٌ ... انا سائلٌ عنها وباحثْ

وقد يكثر في شعر البها زهير وصف الدلال وما له من النشوة والسكر ، فنراه في موطن آخر يقول :

اضنى الفؤاد فمن يريحُهْ ... وحمى الرقاد فمن يبيحُهْ
ونضا من الاجفان سيـ ... فاً قلما يبقى جريحُهْ
نشوان من خمر الدلا ... لِ غَبوقُهُ وبها صَبوحُه

والذي يعنينا الآن شرح مواقفه في العتاب ، لانها تمثل الروح المصرية ، وما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لها من السماحة المصحوبة بالشمَم والإباء . فحيناً ينفي ما ذاع من سلوه ، حتى هجره احبابه ، فيقول :

يا هاجرين وحقكم   هوّنتمُ ما لا يهونُ
قلتم فلانٌ قد سلا   ما كانذاكولايكون
وحياتكم وهي التي   ما مثلها عندي يمين
ما خنت عهدكم كما   زعم الوشاةولااخون
يا من يظن بأنني   قدخنتهُغيري الخئون
لو صحّ ودك صح ظنـ   لكَ بيوبان لك اليقين
يا قلبَ بعض الناسكم   تقسو عليّ وكم ألين
يا ويلتاه لمن يُخا   طِبأولمنيشكوالحزين
قد ذلّ من كان المعيـ   ن لهُ هو الدمع المعين

وحينا يمزج العتاب بالشكوى فيقول :

يا اعز الناس عندي   كيفخنتاليومعهدي
سوفاشكولكبعدي   فعسىشكوايتجدي
اين مولايَ يراني   ودموعي فوق خدي
اقطع الليل اقاسي   ما اقاسي فيه وحدي
ليتني عندك يامولا   ي أو ليتك عندي

ثم يترفق في شكواه وأمانيه ، فيقول :

من لي بقلب اشتريـ   ـهِ من القلوب القاسيهْ
إني لأطلب حاجةً   ليست عليك بخافيه
أنعم عليّ بقبلةٍ   هبةً وإلا عاريه
وأعيدها لك لا عدمـ   ـتَ بعينها وكما هيه
وإذا أردت زيادَةً   خذها ونفسي راضيه
فعسى يجود لنا الزما   ن بخلوةٍ في زاويه
أوليتني ألقاك وحـ   ـدك في طريق خاليه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهذه غاية الغايات في رقة النجوى ولطف العتاب ، ولكن البها زهير كما قلنا مصري الروح : فهو في رقته غضوب : ألم تر اليه وقد تبدّل من يهوى ، فرماه بهذه الصاعقة :

يا من تبدّل في الهوى ... يَهنيك صاحبك الجديدُ
إن كان اعجبك الصدو ... د كذاك اعجبني الصدود
واعـلم بأني لا اريـ ... د إذا رأيتك لا تريـد
وأنا القريب فان تغيّـ ... ر صاحبي فأنا البعيد

وقد اوضح هذا المعنى ووفاه ، في الكلمة الآتية :

سأعرض عمن راح عنيَ معرضاً ... وأُعلن سُلواني له وأشيعه
واحجبُ طرفي عنه فهو رسولهُ ... واحجب قلبي عنه فهو شفيعهُ
وكيف ترى عيني لمن لا يرى لها ... ويحفظ قلبي في الهوى من يضيعه
واقسمت لاتجري دموعي على امرىء ... إذا كان لا تجري علي دموعهُ
فلو خان طرفي ما حوته جفونه ... ولو خان قلبي ما حوته ضلوعه

واوضح من هذا قوله من كلمة ثانية :

هو حظي قد عرفتهُ ... لم يحل عما عهدُتـهُ
فاذا قصّر من اهوا ... هُ في الحب عذرُته
غـير اني ليَ في الحـ ... ب طريق قد سلكته
لو اراد البعد عني ... نور عيني مـا تبعته
إن قلبي وهو قلبي ... لو تجنّى ما صحبته
كل شيء من حبيبي ... ماخلا الغدرَ احتملته
أنا في الحب غيورٌ ... ذاك خُلقي لا عدمته
أبصر الموت إذا أبصـ ... ر غيري من عشقته

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نوح الحمام

لقد ألممنا إلمامة قصيرة بنوح الحمام عند اسباب المدامع ، واليوم نفصل مذاهب الشعراء في هذا الباب : فمنهم من يحن إلى الحمائم الشادية ، ويتمنى لو عدن اليه ، فاذا عدن أسلمنه إلى البكاء ، كما قال المجنون :

ألا يا حمامات اللوى عدن عودة فاني إلى اصواتكن حزين
فعدن فلما عدن كدن يمتنني وكدت بأشجاني لهن أبين
فلم تر عيني مثلهن بواكياً بكين ولم تذرف لهن عيون

ومن الشعراء من يذكر ان الحمائم الباكية تبعث الهوى في قلب الخلي ، فكيف بالشجي ، وأن أنغامها ليست دموعاً ولكنها امضى من الدموع ، كما قال ابو تمام :

بعثن الهوى في قلب من ليس هائماً فقل في فؤاد رعنه وهو هائم
لها نغم ليست دموعاً فان علت مضت حيث لا تمضي الدموع السواجم

ومنهم من يستريح إلى نوح الحمام ، ويراه تداوياً من الداء بنفس الداء ، كقول ابن عبد ربه :

فكيف ولي قلب إذا هبت الصبا اهاب بشوق في الضلوع دفين
ويهتاج منه كلما كان ساكناً دعاء حمام لم تبت بوكون
وان ارتياحي من بكاء حمامة كذي شجن داويته بشجون
كأن حمام الأيك لما تجاوبت حزين بكى من رحمة لحزين

ويسمون الحمامة « مطوقة » لطوقها المخضب الجميل ، كما قال ابن عبد ربه :

ونائح في غصون الايك أرقني وما عنيت بشيء ظل يعنيه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مطوّقٌ بخضابٍ ما يزايلهُ حتى تزايله احدى تراقيهِ
قد بات يشكو بشجوٍ مادريْت به وبت اشكو بشجوٍ ليس يدريه

ومن الشعراء من يقارن بينه وبين الحمامة الباكية ، فيذكر انها تبكي بلا دمع ، وان إلفها منها قريب ، كما قال ابو محلم الشيباني من قصيدة اقترحها عليه طاهر بن الحسين ، وقد كبرت سنه ، وطالت غربته :

وأرقني بالريّ نوح حمامة فنحت وذو الشجو الغريبُ ينوح
على انها ناحتْ ولم تذر دمعةً ونحت واسرابُ الدموع سفوح
وناحت وفرخاها بحيث تراهما ومن دون افراخي مهامه فيحُ
ألا يا حمام الايك إلفكَ حاضرٌ وغصنك ميّادٌ ففيمَ تنوحُ
أفق لا تنحْ من غير شيءٍ فانني بكيت زماناً والفؤاد صحيح
ولوعاً فشطت ُغربةً دار زينبٍ فهـأنا ابكي والفؤاد جريح

ومما يجدر ان يكون « صورة شعرية » في وصف الحمامة الباكية قول الطغرائي :

أبكيةٌ صدحت شجواً على فننٍ فأشعلت ما خبا من نار اشجاني
ناحت وما فقدت إلفاً ولا ُفجعت فذكرتنيَ اوطاري واوطاني
طليقةٌ من إسار الهمّ ناعمةٌ اضحت تجدد وجد الموثق العاني
تشبّهت بيَ في وجدي وفي طربي هيهات ما نحن في الحالين سيّانِ
ما في حشاها ولا في جفنها أثرٌ من نار قلبي ولا من ماء اجفاني
يا ربّة البانة الغناءِ تحضنها خضراءُ تلتفُّ اغصاناً بأغصان
إن كان نوحك إسعاداً لمغتربٍ ناءٍ عن الاهل ممنوٍّ بهجران
فقارضيني إذا ما اعتادني طربٌ وجداً بوجدٍ وُسلواناً بسلوان
اولا فقصركِ حتى استعين بمن يعنيه شاني ويأسو َكلمَ احزاني
ما انت مني ولايعنيكِ ماأخذت مني الهموم ولا تدرين ما شاني
كِلي إلى الغيم إسعادي فإنّ له دمعاً كدمعي وإرناناً كإرناني

وهذه القصيدة من ابدع ما قال الشعراء في الحمائم الشاديات . وهي انموذج

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لملاحه التقسيم ، وبراعة التصوير ، وحلاوة التعبير ، ويقرب منها قول ديك الجن:

حمائمُ وُرْقٌ في حمىً ورَقٍ خُضْرِ　　لها مُقَلٌ تجري الدموع ولا تجري
تكلفن إسعاد الغريبة ان بكت　　وإن كن لا يدرين كيف جوى الصدر
لها حُرَقٌ لو ان خنساء اعولت　　بهن لادّت حق صخرٍ الى صخرِ
فقلت لنفسي ها هنا طلب الاسى　　ومعدنه ان فاتني طلب الصبر

وقد يحسن لفت النظر الى الخرافة القديمة في نوح الحمام: فان العرب يذكرون انه كان لهن ملك في عهد نوح يسمى (الهديل) فهن يبكينه الى الآن ! ؟ وهو المعني بقول نصيب :

لقد راعني للبين نوح حمامةٍ　　على غصن بانٍ جاوبتها حمائمُ
هواتفُ امّا من بكَيْن فعهدهُ　　قديمٌ واما شجوهنّ فدائمُ

وممن ذكر الهديل حُميد بن ثور في هذه الابيات الحسان :

إذا نادى قرينته حمامٌ　　جرى لصبابتي دمعٌ سفوحُ
يُرَجّع بالدعاء على غصون　　هَتوفٌ بالضحى غرد فصيح
هفا لهديله مني اذا ما　　تغرّد ساجعاً قلبٌ قريح
فقلت حمامة تدعو حماماً　　وكل الحب نزّاعٌ طمُوح

قا ابو بكر بن دريد : خرجنا من عُمان في سفر لنا ، فنزلنا في اصل نخلة ، فنظرت فاذا فاختتان تزقوان في فرعها ، فقلت :

اقول لورقاوَين في فرع نخلةٍ　　وقد طفّل الإمساء او جنح العصر
وقد بسطت هاتي لتلك جناحها　　ومال على هاتيك من هذه النحرُ
ليَهْنِكيما ان تُراعا بفرقةٍ　　وما دبّ في تشتيت شملكما الدهر
فلم أر مثلي قطّعَ الشوق قلبه　　على انهُ يحكي قساوته الصخر

ومن جيّد الشعر في الموازنة بين العاشق وبين الحمامة الشادية قول ابن سنان الخفاجي :

اتظن الورقُ في الايك تغنى　　انها تضمر حُزناً مثل حزني
لا أراك الله نجداً بعدهــا　　ايها الحادي بها ان لم تجبني

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هل تباريني الى بث الجوى ... في ديار الحي نشوى ذات غصن
هب لنا الشبق ولكن زادنا ... اننا نبكي عليها وتغني
يا زمان الخيف هل من عودة ... يسمح الدهر بها من بعد ضن
ارضينا بثنيات اللوى ... عن زرود يا لها صفقة غبن

وقد ينكر الشاعر على الحمامة ان تشكو الفراق ، وهي كثيرة الالاف ، وحالية بالطوق والخضاب ، كقول ابن سنان صاحب الابيات السالفة :

وهاتفة في البان تملي غرامها ... علينا وتتلو من صبابتها صحفا
عجبت لها تشكو الفراق جهالة ... وقد جاوبت من كل ناحية الفا
ويشجي قلوب العاشقين حنينها ... وما فهموا مما تغنت له حرفا
ولو صدقت فيما تقول من الاسى ... لما لبست طوقا ولا خضبت كفا

ولكن الارجاني يصفها بصدق اللوعة ، فيذكر انها مزقت اثواب الحداد ، وان صدورها ضاقت بأنفاسها ففضت مجامع الاطواق وانها نزفت دمعها وافنته بطول البكاء ، وذلك في قوله :

ومما شجاني وقد ودعوا ... بكاء الحمام على ساقها
تنوح على بعد ألافها ... وتظهر مكنون اشواقها
لبسن حداداً ومزقنه ... فلم تدخر غير ازياقها
وضاقت صدوراً بأنفاسها ... ففضت مجامع اطواقها
وقد نزفت في الهوى دمعها ... فلم يبق ماء بآماقها

ولم يكثر الشعراء الحديث عن غناء الكروان ، ويظهر انهم لم يتمتعوا بأغانيه الجميلة على ضفاف النيل في سنتريس ، والدهر كله فداء للحظة واحدة من الاصائل • او العشيات ، او الاسحار ، في مغاني سنتريس .

ويعجبني في وصف الكروان قول الاستاذ عباس العقاد :

يا محيي الليل البهيم تهجداً ... والطير آوية الى الاوكان
يحدو الكواكب وهو اخفى موضعاً ... من نايغ في غمرة النسيان
قل يا شبيه النابغين اذا دعوا ... والجهل يضرب حولهم بجران

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كم صيحةٍ لك في الظلام كأنها   دقات صدر الدُّجنة حانِ
خفاقةالنغمات تطفر في الدجى   فوق النسائم طفرة النشوان
هنّ اللغاتُ ولا لغاتِ سوى التي   رُفعتْ بهنّ عقيرة الوجدان
إن لم تقيّدها الحروف فانها   كالوحي ناطقةٌ بكل لسان
أغنى الكلام عن المقاطع واللغى   بثّ الحزين وفرحةُ الجذلان
إني لأسمع منكَ إذْ ناديتني   معنىً يقصّر عنه كل بيان
اصغي اليك إذا هتفت وفي يدي   سِفرٌ يغرّد صامت الأوزان
شعر الطيور ولا رياء يشوبهُ   يذرى ببدْع قصائد الإنسان
ياساليا يشكو ويصدح وحْدَه   علمّ سميرَك راحة السّلوان

ومن خير ما وُصفت به الحمامة من ناحية الخِلقة الجميلة ، قول بعض الاعراب:

وقبليَ أبكي كلّ من كان ذا هوًى   هتوف البواكي والديارُ البلاقعُ
وهنّ على الأطلال من كل جانب   نوائح ما تخضلُّ منها المدامعُ (١)
مزَبرجة الأعناق غرٌّ ظهورها   مُخطمةٌ بالدرّ خُضرٌ روائع (٢)
ترى طُرراً بين الخوافي كأنها   حواشيُّ بُردٍ زيّنتْها الوشائع (٣)
ومن قِطع الياقوت صيغت عيونها   خواضب بالحنّاءِ منها الاصابع

ويعجبني خطاب عبد البر بن فرسان الغساني لطائر مغرّد ضم أفراخه اليه :

أعِدهنّ ألحانا على سمع مُعربٍ   يطاوحُ مرتاحاً على القُضب مُعجما
وطر غير مقصوص الجناح مرَفّها   مُسوّغ أشتاتِ الحبوب مُنعما
مُخلىً وأفراخاً بوكرك نُوّماً   ألا ليتَ أفراخي معي كنّ نُوما

وقد أبدع الرصافي شاعر الاندلس حين تغنى يوماً من أيام شبابه وقد خلا فيه بمن يهوى في روضة لم يشاركهم في سكناها غير الهديل ، وأبياته الآتية غاية

---

(١) المدامع هنا أماكن الدمع وهي العيون

(٢) مزبرجة : من الزبرج وهو الزخرف . ومخطمة من الخطم بفتح فسكون وهو منقار الطائر

(٣) الوشائع جمع وشيعة وهي الطرائق في الثوب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من غايات الحسن في وصف الشمس وهي تجنح للغروب :

وعشيٍّ رائــق منظرُهُ قد قطعناه على صرف الشمولْ
وكأن الشمسَ في أثنائه ألصقت بالأرض خداً للنزولْ
والصَّبا ترفع أذيال الرُّبا ومُحيّا الجوّ كالسيف الصقيل
حبذا منزلُنا مُغتبَقاً حيث لا يطرُقنا غير الهديل
طائرٌ شادٍ وغصنٌ منثنٍ والدُّجى تشرب صهباء الأصيل

ومما يقرب من هذا الباب وليس منه قول القاضي ابي حفص القرطبي :

همُ نظروا لواحظها فهــاموا وتشربُ لُبّ شاربها المدامُ
يخاف الناس مقلتها سواها أيذعر قلب حامله الحسام
سما طرفي اليها وهو باك وتحت الشمس ينسكب الغمامُ
وأذكر قدّها فأنوح وجداً على الأغصان ينتحبُ الحمام
وأعقب بينُها في الصدر غماً إذا غرَبت ذكاءُ أتى الظلام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التقرب بالدموع

خير ما تقرّب به المحب إلى حبيبه دمع مسفوح ، وقلب مجروح ووجد مشبوب ، وصبر مغلوب !! والتقرب بالدمع نوع من الاستعطاف تغزى به قلوب الحسان ، ومن طريفه قول الأبيوردي :

أشكو الهوى لترقّ يا أميمةُ لي ... فطالما رفقَ المشكوُّ بالشاكي
يشقى بعضي ببعضيَ في هواك فما ... للعين باكيةً والقلب يهواك

وهذا المعنى غير معروف عند العرب : فهم يرون بكاء العين من فضل حزن الفؤاد ، حتى ليقولون : نعمت العين ، وشقى القلب ، ولكن الأبيوردي عكس المعنى ، فجعل نعيم القلب في الهوى ، وعذاب العين في البكاء ، ثم قال :

إن يحك ثغرك دمعي حين أسفحهُ ... فإنني جدت للمحكيّ بالحاكي
ما كنت أحسب أنّ الدرّ مسكنه ... يكون جيدَك أو عينيّ أو فاكِ

وأوضح من هذا وأجمل قول الشريف :

أهونْ بما حمّلتنيه من الضنى ... لو أن طيفك كان من عوّادي
ولقلما زار الخيال بمقلةٍ ... روعاءَ نافرةٍ بغير رُقادِ
ما تلتقي الأجفان منها ساعةً ... وإذا التقت فلغضّ دمع بادِ
لا يَبعدنْ قلبي الذي خلفتهُ ... وقفاً على الإتهام والإنجاد
إن الذي غمر الرقاد وسادَهُ ... لم يدرِ كيف نبا عليّ وسادي
ولقد بعثت من الدموع اليكم ... بركائبٍ ومن الزفير بحادي
لولا هواك لما ذللت وانما ... عزّي يعيّرني بذل فؤادي

وهكذا يجمع الشريف الرضي بين العزة القرشية ، والذلة العذرية : فهو عزيز ذليل !! وللبحتري حوار لطيف في هذا الباب ، فمن ذلك قوله :

صِلي مغرماً قد واترَ الشوقُ دمعَهُ سجاماً على الخدّين بعد سجامِ
فليس الذي حللته بمحللٍ وليس الـــذي حرّمته بحرام
وقد ردد هذا المعنى في موطن آخر فقال :

أُلامُ على هواكِ وليس عدلاً إذا أحببتُ مثلك أن أُلاما
فقد حرّمت من وصلي حلالاً وقد حللت من هجري حراما

ولا يسعني وقد اسرف البحتري في ذكر الحرام والحلال ، إلا الرجاء في أن ينصف هذا المظلوم يوم يقوم الحساب !! وقد رق شعر العباس بن الأحنف حين يقول :

أما استوجبت عيني فديتك نظرة اليك وقد أبكيتها حِجَجاً عشْرا
لعمري لئن أقررتِ عيني بنظرةٍ اليك لقـــد عذبتِها بالبكا دهرا

ويقرب من هذا قوله من كلمة ثانية :

جرى السيل فاستبكاني السيل إذ جرى وفاضت له مـــن مقلتيّ غروبُ
وما ذاك إلا حـــين ايقنت انهُ يمر بوادٍ أنت منـــه قريب
يكون أُجاجاً دونكم فاذا انتهى اليكم تلقى طيبكم فيطيب
أيا ساكني اكناف دجلة كلكم إلى القلب من اجل الحبيب حبيبُ

وقد تلطف ابن التعاويذي في شكوى حاله إلى من يهوى بقوله :

يا موحش العين التي أنست بطول بكائها
غادرت بين جوانحي نفساً تموت بدائها
تشتاق عيني ان ترا كِ وانت في سودائها
فاذا بخلت بنظرةٍ سمحت بجُمّة مائها

ومن مبتدعات المتأخرين في هذا المعنى قول بعض الشعراء :

وقلتُ شهودي في هواك كثيرةٌ واصدَقها قلبي ودمعيَ مسفوحُ
فقال شهودٌ ليس يقبل قولهـــا فدمعك مقذوف وقلبك مجروح

وهو كلام قد يطمئن له الفقهاء والمحدّثون ، لطول مـــا يبحثون في القذف والتجريح ، وما أغنى الشعر عن تفسير اولئك وتأويل هؤلاء !!

●

وقد يتوسل المحب بفنائه في الوجد ، ومن شعراء العصر من اجاد هـــذا المعنى ، كصاحب البدائع حين يقول :

يا اهل اسيوطَ لا زلتم بعـــافيةٍ ... وإن تمرّدَ في وجدي بـــكم داني
أسلمتموني لدهري بعد ما بَليتْ ... من قسوة الصدّ والتبريح احشائي
فلو أتتْ ظبيةُ الحمراء غازيةً ... قلبي لَما وجدَتْه غير اشلاءِ (١)
يا ويحَ نفسي، اتنسَوني واذكركم ... مُقرّح الجـــفن في صبح وامساءِ

●

إن الذين بأمر الحب قد ملكوا ... لم يتّقوا الحب في ضُرّي وايذائي
لم يُدنني الشوقُ يوماً من منازلهمْ ... الا تولوا مـــع الأيام اقصائي
كم رُحتُ احمل آمالي لحيِّهمُ ... وعدتُ احمـــل آلامي وارزائي
يا لوعة القلب لا شكوايَ نافعةٌ ... ولا بـــكايَ بشافٍ مسّ ضرّائي
أبيتُ اندب عهداً مرّ طيّبهُ ... كلمحة البرق في اعطاف ظلمـــاء
وأُرسل الزفرة الحرّاء لافحةً ... كوقدة الجمر في آجـــامِ قصْباءِ

●

يا من يعزُّ علينا ان نجازيَهمْ ... صدًّا بصدٍّ واغضاءً بإغضاءِ
لو ترحمون وَصلتم شيِّقاً كلِفاً ... ألقي جفاكم عليه ألفَ بأساءِ

---

(١) الحمراء : حي جميل من أحياء أسيوط

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثورة الوجد

نذكر هنا طرَفاً من الشعر الموجع ، الذي يمثل ثورة الوجد ، ولوعة الأسى ، فمن ذلك قول ابي تمام :

سقيمٌ لا يموتُ ولا يُفيقُ ... قد اقرح جفنَه الدمعُ الطليقُ
شديد الحزن يحزن من يراهُ ... اسير الصبر ناظرهُ اريقُ
ضَجيعُ صبابةٍ وحليفُ شوقٍ ... تحمّل قلبُه ما لا يُطيقُ
يَظلُّ كأنه مما احتواهُ ... يُسَعَّر في جوانبه الحريق

وأي حال ادعى للرحمة ، واوجب للإشفاق ، من حال هذا المحب السقيم ، الذي لا يموت ولا يفيق . والذي يحزن من يراه : لصبره الاسير ، وناظره الأريق والذي حالفَ في ضعفه الشوق ، وضاجعَ الصبابة ، حتى لكأنه مما به ، تُسعَّر النار في ضلوعه ! ?

ويقرب من هذا قول ابن الرومي في فراق اثنين من خُلانه :

لم يَسترح من لهُ عينٌ مُؤرقة ... وكيف يعرف طعمَ الراحةِ الأرقُ
محمدٌ وعليٌّ فتنتا كَبدي ... اذا ذكرتهما والعيسُ تنطلقُ
خِلاّن حل بقلبي من فراقهما ... ما كنت احذر منه قبلَ نفترقُ
قلبٌ رقيقٌ تلظت في جوانبه ... نار الصبابة حتى كاد يحترقُ
ودِدْتُ لو تم لي حجى بقربهما ... ما كلُّ ما تشتهيه النفس يتفق

ومما يمثّل ثورة الوجد في الصدر ، مع الغيظ مما جنتْ يد الليالي ، قول المتنبي :

اكيداً لنا يابينُ واصلتَ وصْلنا ... فلا دارنا تدنو ولا عيشنا يصفو

اردّد ويلي ، لو قضى الويل حاجةً واكثر لهفي، لو شفا غُلةً لهفُ
ضنى في الهوى كالسم في الشهد كامناً لذذتُ به جهلا وفي اللذة الحتف

وكان الابيوردي يمثل وجده بوجد الظبية تترك ولدها في طلب الكلأ ثم تعود سريعة إلى لقائه فتجده مات ! واليك من شعره هذه اللؤلؤة الفتانة :

وما امُّ ساجي الطرف مال به الكرى على عذبات الجزع تحسبه قلبا
تُراعي باحدى مُقلتيها كناسها وترمي بأخرى نحوهُ نظراً غرْبا
فلاحَ لها من جانب الرمل مَرتعٌ كأن الربيعَ الطلقَ ألبَسه عُصبا
فمالت اليه والحريصُ إذا غدت به سَورةُ الأطماع لم يحمَدِ العقبى
وآنسها المرعى الخصيب فصادفت مدى العين في ارجائه بلداً خصبا
فلما قضت منه اللبانةَ راجعتْ طَلاها فألفتْه قضى بعدها نَحْبا
اتيحَ له عاري السواعد لم يزل يخوض إلى اوطاره مطلباً صَعبا
فولّتْ على ذُعرٍ وبالنفس ما بها من الكرب لا لُقيتَ في حادث كربا
بأوجدَ مني يوم عجّتْ ركابها لبينٍ فلم تترك لذي صَبْوَةٍ لُبا

وهذه الصورة الشعرية كثيرة الامثال في الآداب القديمة ، وانما نسبناها إلى الابيوردي لأنه يرددها في شعره ، فمن ذلك قوله في كلمة ثانية :

وما مُغزلٌ تعطو الاراكَ يَهزّهُ نسيمٌ تناجيه الخمائلُ وانِ (١)
وتُزجى برَوقيْها أغنَّ كأنه من الضعف يطوي الارض بالرسفان (٢)
فمال إلى الظلّ الاراكيّ دونها وكانا به من قبلُ يرتديان
وصُبّت عليه الطُلسُ وهي سواغب تجوبُ اليه البيدَ بالنسلان (٣)
فعادت اليه أمهُ وفؤادُها هفاً كجناح الصقر في الخفقان
وظلت على الجرعاء وَلهى كئيبةً وقد سال واديها بأحمر قان

---

(١) المغزل : ام الغزال ، الخمائل جمع خميلة وهي ألفاف الشجر
(٢) الرسفان ، المشي في القيد
(٣) الطلس ، الذئاب . ولواغب ، الجياع . والنسلان ، مشي الذئب إذا أسرع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تسوف الثرى طوراً ويعبث تارةً بها اولقُ من شدة الولهان (١)
بأوجدَ مني يومَ سرتُ إلى الحمى وقد نزلتْ سمراءُ سفح ابان (٢)

ونحب ان نلفت القارىء الى ما في امثال هذه الصور الشعرية من الكلف بتصوير الطبيعة ، وما فيها من حياة الحيوان ، فقد اغرم شعراء الغرب بهذا الاسلوب ، فزاد شعرهم جمالا إلى جمال . ولولا الرغبة في الايجاز لنقلت قطعة من شعر (ألفريد دي ميسّيه) تماثل شعر الابيوردي في هذا الجانب من البيان. والناس هم الناس ، في كل قطر ، وفي كل جيل ، والتباين قليل في الميول ، وفي تذوق الوان الحياة ، وان عظم الفرق حيناً في التعبير عن نزعات النفوس ، وشهوات العقول .

ومن خالد الشعر في ثورة الوجد نونية الوزير ابن زيدون ، وقد رأينا ان نثبتها هنا كاملة — كما فعل المقرّي صاحب نفح الطيب — لأنها ذكرت مفرقة في اكثر المؤلفات :

اضحى التنائي بديلا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا
مَن مُبلغ الملبسينا بانتزاحهمُ حزناً مع الدهر لا يَبلى ويُبلينا
ان الزمان الذي قد كان يضحكنا انساً بقربهمُ قد عاد يُبكينا
غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا بأن نغَصّ فقال الدهر آمينا
فانحل ما كان معقوداً بأنفسنا وانبتّ ما كان موصولاً بأيدينا
بالأمس كنا وما يُخشى تفرّقنا فاليومَ نحن وما يُرجى تلاقينا
يا ليت شعري ولم نُعتب اعاديكم هل نال حظاً من العُتبى اعادينا (٣)
لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم رأياً ولم نتقلد غيره دينا
كنا نرى اليأس تُسلينا عوارضهُ وقد يئسنا ، فما لليأس يُغرينا
بِنتم وبنا فما ابتلّت جوانحُنا شوقاً اليكم ولا جفت مآقينا

---

(١) تسوف ، تشم . الاولق ، الجنون
(٢) أبان ، جبل شرقي الحاجر فيه نخل
(٣) اعتبه ، ارضاه . والعتبى ، الترضية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نـكاد حين تُناجيكم ضمائرُنا ... يقضي علينا الاسى، لولا تأسّينا (١)

حالتْ لبُعدكم أيامنا فغدت ... سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا

إذ جانبُ العيش طلقٌ من تألفنا ... ومورد اللهو صافٍ من تصافينا

وإذ هصرنا فنون الوصل دانيةً ... قطوفها فجنينا منه ما شينا

ليُسقَ عهدكم عهدُ السرور فما ... كنتم لأرواحنا إلا رياحينا

لا تحسبوا نأيكم عنا يُغيّرُنا ... إذ طالما غيّر النـأي المحبينا

والله ما طلبت اهواؤنا بدلاً ... منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا

●

يا ساريَ البرقِ غادِ القصرَ فاسق به ... من كان صِرف الهوى والود يسقينا

واسأل هنالكَ هل عنّى تذكّرنا ... إلفاً تذكّره أمسى يعنّينا (٢)

ويا نسيم الصّبا بلغ تحيتنا ... من لو على البعد حياً كان يُحيينا

وبيتِ مُلكٍ كأن الله أنشأه ... مِسكاً وقد أنشأ الله الورى طينا

او صاغهُ ورقاً محضاً وتوّجه ... من ناصع التبر إبداعاً وتحسينا (٣)

إذا تأوّد آدتهُ رفاهيةٌ ... تُدمي العقول وأدمته البُرى لينا (٤)

كانت له الشمس ظِئراً في تكلّلهِ ... بل ما تجلى بها إلا أحايينا (٥)

كأنما نبتتْ في صحنِ وجْنته ... زُهر الكواكب تعويذاً وتزيينا

ما ضر ان لم نكن اكفاءهُ شرفاً ... وفي المودة كافٍ من تكافينا (٦)

يا روضةً طالما اجنتْ لواحظنا ... ورداً جناه الصبا غضاً ونسرينا

ويا حياةً تملأنا بزهرتها ... مُنى ضروباً ولذاتٍ افانينا (٧)

ويا نعيماً خطرْنا من نضارتـه ... في وشي نُعمى سحبْنا ذيلهُ حينا

لسنا نسميكِ إجلالا وتكرمـةً ... فقدرك المعتلي عـن ذاكِ يُغنينا

---

(١) التأسي، التعزي (٢) عناه، اشقاه (٣) ورق ككتف، الفضة

(٤) تأود، تثنى. آدته، اثقلته. البرى، الخلاخيل (٥) الظئر من معانيه جانب القصر

(٦) متكافي، التكافؤ والتماثل (٧) تملأنا، تمتعنا

إذا انفردتِ وماشوركتِ في صفةٍ فحسبنا الوصف ايضاحاً وتبيينا

●

يا جنة الخلد أُبدلـنا بسلسلها والكوثر العذبِ زقّوماً وغسلينا
كأننا لم نبتْ والوصلُ ثالثنا والسعد قد غضّ من اجفان واشينا
سِران في خاطر الظلماءِ تكتمنا حتى يكاد لسان الصبح يُفشينا
لا غروَ في ان ذكرنا الحزن حين نهت عنه النهى وتركنا الصبرَ ناسينا
إنا قرأنا الاسى يوم النوى سُوَراً مكتوبة وأخـذنا الصبر تلقينا
أمّا هواك فـلم نعدل بمشربه شِرباً وان كان يُروينا فيُظمينا(١)
لم نجفُ أفق جمالٍ أنتِ كوكبُه سالينَ عـنه ولم نهجره قالينا
ولا اختياراً تجنبناكِ عن كثبٍ لكن عدتنا على كرهٍ عوادينا (٢)
نأسى عليك إذا حُثت مشعشعة فينا الشمول وغنـانا مُغنينا
لا أكؤس الراح تبدي من شمائلنا سِيما ارتيـاحٍ ولا الاوتار تلهينا
دومي على العهد ما دمنا محافظةً فالحر من دانَ إنصافاً كما دِينا
فما استعضْنا خليلا عنك يحبسنا ولا استفدنا حبيباً منك يُغنينا
ولو صَبا نحونا من أفق مَطلعه بدر الدجى لم يكن حاشاكِ يصبينا
أوْلي وفـاءً وإن لم تبذلي صلةً فالطيف يقنعنا والذكر يكفينا
وفي الجواب شفاءٌ لو شفعْتِ به بيضَ الايادي التي ما زلت تولينا

وقد أغرمَ الشعراء بتخميس هذه القصيدة، وتسديسها، وتشطيرهـا؛ وكذلك شغلت الاذهان زمناً غير قليل. وقد ارسل ابن زيدون هذه القصيدة إلى معشوقته ولادة، وهي سيدة اندلسية ظريفة من بنات الخلفاء الامويين؛ وقد كانت في جمالها شاعرة مجيدة ومن شعرها هذان البيتان تدعو بهما ابن زيدون:

ترقب إذا جَنَّ الظـلام زيارتي فاني رأيتُ الليلَ أكتمَ للسر
وبي منك مالو كان بالفجر لم يَلحْ وبالليل لم يُظلم وبالنجم لم يَسْرِ

ولابن زيدون في ولاّدة مقطعات حسان، كقوله:

---

(١) الشرب بكسر الشين كالمشرب وهو المورد (٢) عن كثب، عن قرب

واهاً لعطفك والزمان كأنما صُبغت نضارته ببرد صباك
والليل مهما طال قصّر طوله هاتي ، وقد غفل الرقيب ، وهاك
امّا منى نفسي فأنت جميعها يا ليتني اصبحتُ بعض مُناك
يُدني مثالكِ حين شطّ به النوى وهمٌ اكادُ به اقبّل فاكِ

ومن موجع الشعر قوله :

بيني وبينك ما لو شئت لم يضعِ سرٌ إذا ذاعت الاسرار لم يَذعِ
يا بائعاً حظهُ مني ولو بُذلتْ ليَ الحياة بحظي فيه لم أبعِ

ولصديقنا الاستاذ انيس ميخائيل ولع غريب بانشاد قول ابن زيدون :

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا والافق طلقٌ ووجه الروض قد راقا
وللنسيم اعتلالٌ في اصائله كأنما رقّ لي فاعتلّ اشفاقا
والنهر عن مائه الفضيّ مبتسمٌ كما حللتَ عن اللبّات اطواقا
يومٌ كأيام لذاتٍ لنا انصرمتْ بتنا لها حين نام الدهر سُرّاقا
نلهو بما يستميل العين من زَهَرٍ جال الندى فيه حتى مال اعناقا
كأن أعينهُ إذ عاينت ارقي بكت لما بي فجال الدمع رقراقا
وردٌ تألق في ضاحي منابتهِ فازداد منه الضحى في العين إشراقا
سرى ينافحه نيلوفرٌ عبقٌ وَسنان نبّه منه الصبح احداقا
كلٌ يهيج لنا ذكرى تشوقنا اليك لم يعدُ عنا الصدر ان ضاقا
لو كان وفى المنى في جمعنا بكم لكان من اكرم الايام اخلاقا
لا سكّن الله قلباً عن ذكركم فلم يطر بجناح الشوق خفّاقا
لو شاء حملي نسيم الريح حين هفا وافاكمُ بفتىً اضناه ما لاقى
كان التجازي بمحض الود مُذ زمن ميدان انسٍ جرينا فيه اطلاقا
فالآن احمد ما كنا لعهدكم سلوتمُ وبقينا نحن عشاقا

واني لمفتون بهذا الشطر الحزين :

سلوتمُ وبقينا نحن عُشاقا

فانه يمثل المحب ، وقد سلا احبابه ، وبقي وحده يعاني آلام الوجد ، واهوال الصدود .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الارق والسهاد

شكا الشعراء قديماً وحديثاً طول الليل بعد الفراق ، وعندالهجر والصدود . فنهم من يستنجد محبوبه ، ويستعديه علـى وحشة الليل ، ومضاضة الارق ، كقول الابيوردي .

أأُمَيمَ إن خفِيَت عليك صبابتي   فسَلي ظلامَ الليل كيف اكون
واستخبري عني النجومَ فقد رأت   سَهري وأرْوقة الغياهب جُون
ولئن أذلتُ مصونَ دمعي في الهوى   فعلى البكاءِ يُعوّلُ المحزون

وهذه الابيات من خير ما قال المحبون في شكوى الوجد ، وعبثه بكرائم النفوس . ومنهم من يستعين من حوله ، ويرجوهم ان يحدثوه عن النـهار ، أو يصفوه له ، فقد طال ليله ، حتى نسي النهار ، وأوصاف النهار ، كما قـال ابن الأحنف :

أيهـا الراقدون حولي أعينو   ني على الليلِ حسبةً وائتجارا
حدثوني عن النهار قليلا   أوصفوهُ فقد نسيت النهارا

وابن الاحنف يجيد شكوى الليل الطويل ، والسهاد المملول ، فمن ذلـك قوله :

نام من أهدى ليَ الأرقا   مُستريحاً سامني قلـقا
لو يبيت النـاس كلهمُ   بسهادي بيّض الحـدقا
أنا لم أرزق مودتكم   إنما للعبد ما رُزِقا
كان لي قلب اعيش بـه   فاصطلى بالحب فاحترقا

وتوجعني شكواه في قوله :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أنا لم ارزق مودتكم   انما للعبد ما رزقا

فقد تكلفُ النفس بفتنة من فِتن الحسن في هذا الوجود ، ثم لا تجد اليها السبيل ، على ان هذا الحسن قد يكون زمامه بيد من لا يشعر بروعة الجمال !

ومن الشعراء من يظمن احبابه بالليل ، فيظمن بذلك الكرى عن جفونه . كالبحتري حين يقول :

أمولعةٌ بالبين ربٌّ تفرّقٍ   جرحتِ به قلباً بحبِّكِ مولعا
ولي لوعةٌ تستغرق الهجر والنوى   جميعاً وحبٌّ يُنفد الدمع اجمعا
على ان قلبي قد تصدع شمله   فنوناً لشمل البيض حين تصدعا
ظعائنُ أظعنّ الكرى عن جفوننا   وعوّضننا منه سهاداً وأدمُعا
نوَيْنَ النوى ثم استجبن لهاتفٍ   من البين نادى بالفراق فأسمعا
وحاوَلن كتمان الترحل بالدجى   فنمّ بهن المسك حين تضوّعا

وقد يفزع المحب إلى تحكيم العدل والحق ، حين تطول لياليه . كقول ابن الرومي :

أيا شمسَ النهار سناً وعِزاً   يُقصر عنهما نظرٌ ولمسُ
أحلٌ ان تنامي عن سهادي   ولي مذبان عني النومُ خمسُ
أمّيز كل شيء من اموري   سوى امري لديكِ ففيه لبس
غرست هوًى فربّيه بحفظٍ   فليس يُرَبُّ بالتضييع غَرس

ومن الشعراء من يتفنن في وصف الليل فيذكر ان نجومه اقسمت لا تزول . كقول احدهم :

ألا هل على الليل الطويل مُعينُ   إذا نزحتْ دارٌ وحن حزينُ
أكابد هذا الليل حتى كأنما   على نجمه أن لا يغور يمين
ووالله ما فارقتكم قالياً لكم   ولكنّ ما يُقضى فسوف يكون

ومنهم من يزيد على ذلك شوقه إلى تمزيق سرابيل الليل ، وظهور تباشير الصبح ، كقول حُندج بن حندج :

في ليل صول تناهى العرض والطولُ   كأنما ليلهُ بالليل موصول

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لا فارقَ الصبح كفي إن ظفرتُ به　　وإن بدت غرةٌ منه وتحجيلُ
لساهرٍ طـال في صولٍ تململه　　كأنه حيـةٌ بالسوطِ مقتول
متى أرى الصبحَ قد لاحت مخائله　　والليل قد مُزقت عنه السرابيل
ليلٌ تحيّر ما ينحطُّ في جهةٍ　　كأنه فوق متن الارض مشكول
نجومهُ ركدٌ ليست بزائـلةٍ　　كأنما هنَّ في الجوّ القناديل
ما أقدر الله ان يُدني على شحَط　　من داره الحزن ممن دارهُ صول
الله يطوي بساط الارض بينـهما　　حتى يُرى الربع منه وهو مأهول

نعم وما أقدر الله ان يدني على النوى من دارُه سِنتريس ممن داره أسيوط

لودِدتُ إذ سكنوا هنالك دارَهم　　وعدَتهُم عنا امورٌ تشغلُ
أنا نُطاع إذن فتنقلُ أرضنا　　أو ان ارضهم الينا تُنقل

وقد شبه ابن الرومي نجوم الليل بنجوم الشيب حين قال :

ربّ ليلٍ كأنه الدهر طولاً　　قد تناهى فليس فيه مزيد
ذي نجوم كأنهن نجوم الشيـ　　ـب ليست تزول لكن تزيد

قال ابو بكر الوليد بن البزاز : كان عـلي بن الجهَم يستنشدني كثيراً شعر
[illegible]

جفت عيني عن التغميض حتى　　كأنّ جفونها عنها قصارُ

وليس للبيت الثاني قيمة من الوجهة الادبية ، لان الغمض لا يجفو العيون ، لقصر الجفون ، كما يقول . وانما يجفوها لثورة الوجد ، وهجمة الاشجان !

ويقول في كلمة ثانية :

خليليّ ما بال الدجى لا تزحزحُ ... وما لعمود الصبح لا يتوضّحُ
اضلّ النهار المستنير طريقهُ ... ام الدهر ليل كله ليس يبرح
وطال علي الليل حتى كأنه ... بليلين موصول فما يتزحزح

والبيت الاخير يذكرني بقول صاحب البدائع :

وجنّ علي الليل حتى حسبته ... جفاءَ كريم او رجـاءَ لئيمِ

وإن كان هذا في الحديث عن ظلام الليل ، لا عن طوله

وتروقني البساطة في قول سويد بن ابي كاهل :

وإذا ما قلت ليلٌ قد مضى ... عطف الاول منـه فرجعْ
يسحب الليل نجوماً ظلَّعاً ... فتواليها بطيئات التبَع

والخيال هنا خيال بادية . ولكنه في بداوته بديع . وقول الآخر :

سلوا مضجعي هل قرّ من بعد بعدكم ... وهل عرفتْ طعم الرقاد جفوني
سهرنا بنعمانٍ ونمتم ببابل ... فيا لعيونٍ ما وفتْ لعيون

وهو يذكرني بقول بعض الاعراب :

لعمري لئن كنتم على النأي والغنى ... بكم مثل مـا بي إنكم لصديق
فما ذقت طعم النوم منذ هجرتكم ... ولا ساغ لي بين الجوانـح ريق
إذا زفرات الحب صعّدن في الحشا ... كررن فلم يُعـلم لهنّ طريق

ومما جمع بين الشكوى من ليل الفراق ، وذكرى ليل الوصال قول عبد الرحمن بن هشام :

طال عمر الليل عندي ... مذ تولعتَ بصدي
يا غزالا نقض العهـ ... ـدَ ولم يوفِ بوعد
انسيت العهد اذبتـ ... ـنا على مفرّش وردِ
واجتمعنا في وشاحٍ ... وانتظمنا نظم عِقد

ونجوم الليل تحكي ذهبـــاً في لازوَرْد

ومن الشعراء من لا يبالي طول الليل في غيبة الحبيب ، كقول ابن زيدون :

يا ليل ُطلْ لا اشتهي إلا لعهدي قِصَرَكْ
لو بات عندي قمري ما بتُّ ارعى قمرك

وليالي القمر في سنتريس عذبة المذاق ، شهية الورود ، وما احسب المصريين عبدوا النيل إلا حين رأوه يداعب القمر في ضواحي سنتريس ، ذات الظـــلال والافنان .

ليالي َالنـــيل واللذاتُ ذاهبةٌ وجدي عليكنّ اشجاني فأضناني
لو يرجع الدهر لي منكنّ واحدةً في سنتريس ويُدني بعض ُخلاني
إذن تبين دهري كيف يرحمُني من ظلم همّي ومن عدوان احزاني

وقد اجاد شعراء العصر وصف الارق في الليل الطويل . فمن ذلـــك قول شوقي :

بـــدأ الطيف بالجميل وزادا يا رسول الرضا وقيت العثارا
ُخذ من الجفن والفؤاد سبيلا وتيمّم مـــن السويداء دارا
انت ان بتّ في الجفون فأهل عادة النور ينزل الابصارا
زار والحرب بين جفني ونومي قد اعدّ الدُّجى لها اوزارا
سألتني عـــن النهار جفوني رحم الله يا جفوني النهارا
قلنَ نبكيه قلت هاتي دموعاً ُقلن صبراً فقلت هاتي اصطبارا
يا لياليّ لم اجدك طوالاً بعد ليلي ولم اجدكِ قِصارا
إن من يحمل الخطوب كباراً لا يبالي بحملهنّ صِغارا
لم ُنفق منك يا زمان فنشكو مدمن الخمر ليس يشكو ُالخمارا

وقال حافظ :

سكن الظلامُ وبات قلبك يخفق وسطا على جنبيك همٌّ ُمقلِقُ
حارَ الفراش وحِرت فيه فأنتما تحت الظلام معذبٌ ومؤرّق
درج الزمان وانت مفقود المنى ومضى الشباب وأنت ساهٍ مطرق

وقال القاياتي :

جنّ الظلام فما يزاح يا ويلتنا اين الصباحْ
ليلٌ كأن نجومهُ يطلعن في كبدي جراح
يا من اتاح ليَ الاسى بَردُ الفؤاد متى يتاح
قلبٌ اساه لاعجٌ لولا تحجّبهُ لفاح
ما بال دمعي يُستبا حُ وحاجتي ليست تباح

وقال العقاد يخاطب الليل:

طويْتَ أزمّة الاجساد منا فدانت وانطوت عنك القلوب
فما تدري أتسكن حين مالت إلى تلك المضاجع ام تجوب
وما تدري اباتت في جحيم ام الجنات مرتعها الخصيب
وما تدري ايسمع في دجاها هتافٌ للبلابل ام نعيبُ
عقدت من الكرى وطناً رفيقاً وكل مسهّدٍ فيه غريب
تضيق به الوسائد والحشايا وتلفظه المسالكُ والدروب
وحيدٌ لا يقاربهُ بعيدٌ ولا يدري بلوعته القريب
فيا وطن النيام بكل فجّ أمن حرجٍ بك السّهدُ المريب
ويا سكن الاحبةِ والاعادي أليس بساحليك لنا نصيب
ويا دار السلام بأي سدّ يصدُّ الطرفَ مربعكِ الرحيب
لئن هجعتْ بساحتكِ المآقي لما هجعَتْ بساحتك الخطوب
كأن جموعهنّ سباع ليلٍ تبيت على فرائسها تلوب
فهل عند الظلام لنا حديث يحاذر ان يُلمّ به رقيبُ
ام ادخر الظلامُ لنا متاعاً يضنُّ بمحيِهِ الحلمُ الكذوب
سهرْنا يا ظلام فلم يصبنا على طول المدى إلا الشحوب
وإلا حلكةٌ فيها تلاقي سواد القلب والطرف الكئيبُ

والعقاد يكثر في شعره من شكوى الليل الطويل ، وقد يشجيك حين ينظر إلى نفسه فيحسبها من اليأس امست وهي خراب ينعب على اطلالها البوم. وانظر كيف يقول :

وناعبةٍ صاحت والليل هجمةٌ ... فقال علامَ البومُ ينعبه ناعيـــا
لقبّحتِ من عمياءَ تقرأ في الدجى ... إذا اسودَّ أسطار الخراب الخوافيا
فقلتُ على النفس التي سوف تفتدي ... طلولاً بأحناءِ الضلوع حوانيا
تجوس أفاعي الحزن في جنباتها ... ويا ربما تُؤوي الضلوعُ الأفاعيا
فلا تحسبنَّ البومَ تنعى المغانيا ... فقد تندب البوم النفوس البواليا
وكم وحشةٍ للنفس يخشى اقتحامها ... أخو غمراتٍ ليس يخشى الفيافيا

وما أجمل قوله في هذه القصيدة :

ولما تقضّى الليل إلا أقـــلهُ ... وحان التنائي جشتُ بالدمع باكيا
فأقبل يرعاني ويبكي وربما ... بكى الطفل للباكي وان كان لاهيا
وزحزحني عنه بكف رفيقةٍ ... وأسبل اهداب الجفون السواجيا
يقول لقد ران الكرى وتفرقت ... نجوم الدجى والديك اصبح داعيا
فقلت وكم من ليلةٍ إثر ليلةٍ ... سهرتُ وقد أمسيتَ وحدك غافيا
فهبْ لوداعي من رقادك ليلةً ... تمرُّ فاني وقد وهبتُ حياتيا
واسلمتُ كفي كفهُ فأعادها ... وقلبي ! فهلا أرجعَ القلب ثانيا ؟

الطبيعة في انفس الشعراء

لقد اكثر شعراء الغرب من الحديث عن الطبيعه ، حتى لتحسب ان ذلك سمة من سماتهم ، لا يشاركهم فيها احد من العالمين .

ونريد ان نبين في هذه الكلمة ان شعراء العرب وردوا هذا المنهل ، ونقعوا صداهم بمائه العذب الفرات ، فان الطبيعة مِلك لجميع العيون ، في جميع الاقطار والشعور بها ، والجنوح اليها ، من حاجات الفطرة ، التي تسوّي بين مختلف الشعوب ، والتي تجمع حولها شتى العواطف والاهواء.

ونحن نعلم ان شعراء الغرب اكثروا من وصف السحاب : إذ كانت بلادهم غزيرة المطر ، وإذ كانت آذانهم ، وأبصارهم ، أليفة لدويّ الرعد . ولمع البرق . على ان شعراء العرب لم يقصروا في هذا الباب . ويكفي ان نذكر قول البحتري يصف سحابة :

ذات ارتجازٍ بحنين الرعدِ　　مجرورةُ الذيل صدوق الوعدِ
مسفوحة الدمع لغير وجـدِ　　لها نسيمٌ كنسيم الورد
ورنةٌ مثل زئير الاسد　　ولمع برق كسيوفِ الهِند
جاءت بها ريح الصَّبا من نجد　　فانتثرت مثل انتثار العِقـد
فراحتِ الارض بعيش رغدِ　　من وشي انوار الربى في بُرد
كأنما غُدرانها في الوهد　　يلعبن من حَبابها بالنرد

ومن اظهر الدلائل على سكون العرب إلى الطبيعة ، وإخلادهم إلى مواردها

الشهية انهم يقرنون الحنين إلى معاهدهم بالدعاء لها بالسقيا وتراوُح النسمات .
واليك قول الشريف :

أمعاهدَ الاحباب هل عودٌ إليّ — مغدًى نبلٌ به الجوى ومراح
يكفيك من انفسنا ودموعنا — ان تُمطري من بعدنا وتراحي
فلربَّ عيش فيك رقّ نسيمه — كالماء رقّ على جنوب بطاح
وتغزل كصبا الاصائل ايقظت — ريّا خُزامى باللوى واقاح
كم فيك من صاحي الشمائل مُنتش — بالدّل او مرضى العيون صِحاح
فسقى اللوى صوْبُ الغمام ودرّه — وسقى النوازلَ فيه صوب الراح

وقد يقوى شعورهم « بشخصية » الطبيعة ، حتى ليخاطبون الفلك الدائر ،
وينذرونه بالفناء ! انظر قول البحتري :

أناةً أيها الفلكَ المدارُ — انهب ماتصرّف ام جُبارُ
ستفنى مثل ما تُفنى وتبلى — كما تُبلى فيدرك منك ثار
تُناب النائبات إذا تناهت — ويدمر في تصرفه الدمار
وما اهل المنازل غير ركبٍ — مطاياهم رواحٌ وابتكار

وانظر قول ابي القاسم ابن هانيء :

تفنى النجوم الزُّهرُ طالعةً — والنيّرانِ الشمسُ والقمرِ
ولئن تبدّت في مطالعها — منظومة فلسوف تنتثرُ
ولئن سعى الفلكُ المدار بها — فلسوف يُسلمها وينفطر

وانظر قول العتابي في وداع جارية له :

ما غناءُ الحِـذار والإشفاق — وشآبيب دمـعك المهراقِ
ليس يقوى الوجد منك على الوجـ — ـدِ ولا مقلتنا طليح المآقي
غدَرات الايام منتزعاتٌ — ماجنينا من طول هذا العناق
إن قضى الله ان يكون تلاقٍ — بعد ما تنظرين كان تلاقِ

هوّني ما عليك واقنَي حياءً   لستِ تبقين لي ولست بباق

أيُّنا قدّمت صروف المنايا   فالذي اخرت سريع اللحاق

غرّ من ظن ان تفوت المنايا   وعُراها قلائد الاعناق

كم صفيَّين مُتعا باتفاقٍ   ثم صارا لغربة وافتراق

قلت للفرقدين والليل مُلقٍ   سودَ اكنافه على الآفاق

ابقيا ما بقيتما سوف يُرمى   بين شخصيكما بسهم الفراق

وانما قلت « شخصية الطبيعة » لأدل القارىء على مبلغ ما سما اليه العرب حين كلفوا بالنظر إلى الوجود ... وانظر قول الحسن بن وهب في وصف النار وقد نفرت منها إحدى الجواري الحسان:

بأبي . كرهت النار حتى أبعدت   فعلمت ما معناك في إبعادها

هي ضرةٌ لـكِ في التماع ضيائها   وهُبوب نفحتهـا لدى إيقادها

وارى صنيعك في القلوب صنيعها   بسيالها واراكها وعدادها

شركتكِ في كل الامور بفعلهـا   وضيائها وصلاحها وفسادها

ولينظر القارىء نظرة خاصة إلى قول علي بن شعيب :

انزعي الوشيَ فهو يسترحسناً   لم تحزهُ برقمهنّ الثياب

ودعيني عسى اقبـل ثغراً   لذّ فيه اللمى وطاب الرُّضابُ

وعجيبٌ ان تهجرينيَ ظلماً   وشفيعي إلى صِباك الشباب

فإنا نجده تخطى كل الاسوار الصناعية التي يحيط بها الشعراء اغراضهم ، ثم هجم على المعنى واخذ بنواصيه ، حين قال « وشفيعي إلى صباك الشباب » ولم يقل : وشفيعي الى صباك حبي وهيامي ، ووجـدي وغرامي ، وخشوعي وخضوعي . إلى آخر ما يقول المتيمون !

وانظر قول محمدالبطليوسي:

غصبوا الصباح تقسموه خدودا　　واستنهبوا قضبَ الاراك قدودا
رأوا حصا الياقوت دون محلهم　　فاستبدلوا منه النجوم عقودا
واستودعوا حدق المها اجفانهم　　فسبوا بهنّ ضراغما واسودا
لم يكفهم حمل الاسنّة والظبا　　حتى استعانوا اعيناً ونهودا
وتضافروا بضفائرٍ أبدت لنا　　ضوء النهار بليلها معقودا
صاغو الثغور من الاقاحي بينها　　ماء الحياء لو اغتدى مورودا

ويكاد هذا الشعر يكون عبادة للطبيعة ، ولن يغيب على احد ما فيه من سمو الخيال .

وانظر كيف يكون كمون الحتف في الجفون ، وكمون الموت في السيوف . في قول السريّ الرفاء :

بنفسي من اجود له بنفسي　　ويبخل بالتحية والسلامِ
ويلقاني بعزةِ مستطيلٍ　　وألقاه بذلة مستهام
وحتفي كامنٌ في مُقلتيه　　كمون الموت في حد الحسام

ويجيد شعراء العرب حين يمزجون وصف الطبيعة بالمعاني الوجدانية فكأنما يريدون ان يشركوا الوجود في نعيمهم وبؤسهم . وهذا في ذاته ملحظ بديع . ولننظر قول صرّدر :

يقول خليلي والظباء سوانحٌ　　أهذي التي تهوى ؟ فقلت نظيرها
لئن اشبهت اجيادها وعيونها　　لقد خالفت اعجازها وصدورها
فيا عجباً منها يصدُّ انيسها　　ويدنو على ذعر الينا نَفورُها
ومـا ذاك إلا ان غزْلان عامرٍ　　يَثقن بأن الزائرين صُقورها
ووالله ما أدري غداةَ نظرننا　　اتلك سهامٌ ام كؤوسٌ تديرها
فإن كنّ من نبلٍ فأين حفيفها　　وإن كنّ من خمر فأين سرورها
أيا صاحبيّ استأذنا لي خُمْرها　　فقد أذِنت لي في الوصال خدورها
هباها تجافت عن خليل يروعها　　فهل انا إلا كالخيال يزورها
وقد قلتما لي ليس في الارض جنةٌ　　اما هذه فوق الركائب حُورها

فلا تحسبي قلبي طليقاً فإنما له الصدر سجنٌ وهو فيه اسيرها

اراكَ الحمى قل لي بأي وسيلةٍ وصلت الى ان صادفتك ثغورها

وان فروع البان من ارض بيشةٍ حبيبٌ إليّ ظِلها وحَرورها

ألذّ من الورد الجني عَرارها واحلى من الشهد المصفى بريرها

على رسلكم في الحب إنا عِصابةٌ إذا ظفِرتْ في الحب عفّ ضميرها

ولسنا بصدّد الموازنـــة بين شعراء الغرب والشرق في النـــظر الى الطبيعة ، فإن هذا باب طويل . وانما نشير فقط إلى ان الناس سواء في الإحساس بمظاهر الوجود . وانمـــا يختلفون في طرائق التعـبير ، واساليب البيان .

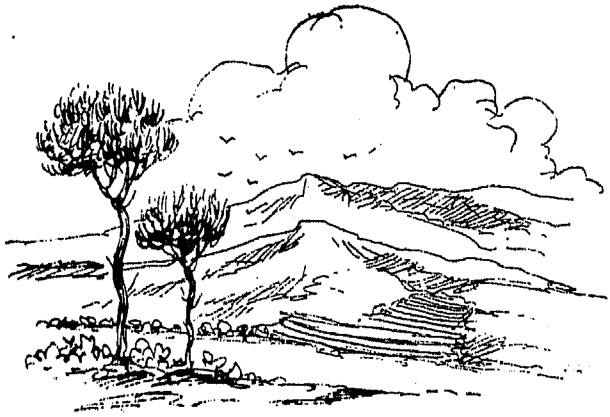

مداراة الرقباء

للعشاق اساليب مختلفة في معاملة الرقباء والوشاة . فمنهم من يداريهم ويرصد غفلتهم . كقول ابن المعتز :

اردُّ الطرف من حَذري عليه　　وامنحه التجنُّبَ والصدودا
وارصد غفلة الرقبـــاء عنه　　لتسرقَ مقلتي نظراً جديدا

وكقول السري الرفاء :

ونواظرٍ وجد المحب فتورها　　لما استقلّ الحيُّ في اعضائه
ما كان هذا البين اول جمرة　　اذكت لهيب الشوق في احشائه
لو لا مساعدة الدموع ودفعها　　خوف الفراق اتى على حوبائه [1]
وانا الفداءُ لمن مَخيلةُ برقهِ　　حظي وحظ سوايَ من انوائه
قمرٌ إذا ماالوشي صِين أذاله　　كيما يصون بهاءَه بدهائه [2]
خفِرُ الشمائل لوملكت عِناقه　　يومَ الوداع وهبته لحيائه
ضعُفت معاقدخصره وعهوده　　فكأن عقد الخصر عقد وفائه
ادنو الى الرقباء لا من حبهم　　واصد عنه وليس من بغضائه

وفي هذا المعنى يقول عبد الله بن كعب العُميري :

أيا نخلة مَرّانَ هل لي اليكما　　على غفلات الكاشحين سبيلُ
أُمنيكما نفسي إذا كنت خالياً　　ونفعكما إلا العناءَ قليل
وما ليَ شيءٌ منكما غير انني　　أُمني الصدى ظِليكما فأطيل

ومن المتيمين من يرجو من محبيه مقارعة الوشاة . كقول احد الشعراء :

تبدّل هـــذا السّدر اهلاوليتني　　أرى السدربعدي كيف كان بدائلهْ

---

(١) الحوباء : النفس　(٢) أذاله : أهانه

وعهدي به عذبَ الجنى ناعم الذُّرى تطيب وتندى بالعشيّ أصائـــله
فما لك مـــن سدْرٍ ونحن نحبه إذا ما وشى الواشي بنا لا تجادله
كما لو وشى بالسدر واش رددته كئيباً ولم تصلُح لدينا شمائله

وكقول كثيّر :

فيا عزّ إن واشٍ وشى بيَ عندكم فلا تكرميه ان تقولي له اهـــلا
كما لو وشى واشٍ بعزةَ عنـــدنا لقلنا : تزحزحْ لا قريباً ولا سهلا

وقد يُعنى المحب بتكذيب الوشاة ، فيما ادعوا من سلوانه ، كقول أبي حية النميري :

وخبّركِ الواشون ان لن احبكم بلى وستور الله ذات المحارمِ
وإن دمـــاً لو تعلمين جنيتِه على الحيّ جاني مثله غيرُ سالم
اصد وما الصد الذي تعلمينه عزاءً بنا إلا ابتلاع العلاقم
حياءً وتُقيا ان تشيع نميمةٌ بنا وبكم ، أفّ لأهل النمائم

ومن المعذبين من يشجيه ان لا ينفع العذل عنده ، في حين ان من يهواه يأتمر بأمر الوشاة . ويسمع نُصح اللائمين .

فمن ذلك قول الابيوردي :

رمتني بسهم راشه الكحل بالردى واقتل ألحاظ المِلاح كحيلها
مريضة ارجاء الجفون وانما أصحّ عيون الغانيات عليلها
فولت وقد أبقت بقلبي علاقة تمر بهـــا الايام وهي مقيلها
وقلت لأدنى صاحبيّ وقد وشى بسريَ دمعي إذ تراءت حُمولها
ذر اللوم اني لست أُرعيك مسمعي فتلك هوى نفسي وانت خليلها
وليت لساناً ارهف العذل غربه على الصب مفلول الشباة كليلها
أردّ عذولي وهو يمحضني الهوى بغيظ ، ويحظى بالقبول عذولها
ويعتادني ذكر العقيق واهله بحيث الحمام الوُرق ُشادٍ هديلها
تنوح وتبكي فوق افنان أيكةٍ فِداهنّ من أرض العراق نخيلها
ولولا تباريح الصبابة لم أُبَلْ بكاها ولا اذرى دموعي عويلها

ومن بديع الشعر في مدافعة الوشاة ، قول الرصافي الاندلسي في غلام حائك:

قالوا وقد اكثروا في حبه عذَلي ... لو لم تهم بمُذال القدر مبتذلِ
فقلت لو كان امري في الصبابة لي ... لاخترت ذاك ولكن ليس ذلك لي
علقته حببي الثغر عاطره ... حلو اللمى ساحرَ الاجفان والمقَل
غزيّلٌ لم تزل من الغزل جائلةً ... بنانه جولان الفكر في الغزَل
جزلان تلعبُ بالحواك أنمله ... على السدى لعب الأيام بالاجل
ضمّا بكفيه او فحصاً بأخمصه ... تخبُّط الظبي في أشراك مُحتبل

واحب لو تأمل القارىء هذه (الصورة الشعرية) التي تمثل هذا الحائك الجميل . بالظبي يتخبط في الأشراك . وانها لوثبة من وثبات الخيال .

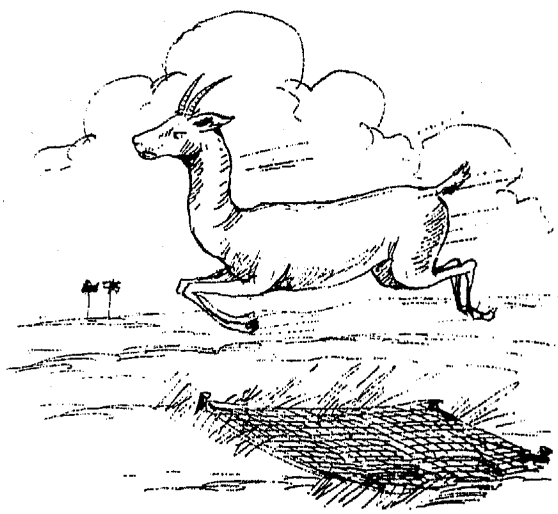

بخل الحسان

نذكر هنا طرفاً مما قال الشعراء في بُخل الحِسان : وكل حسناء بخيلة ، وكل جميل ضنين ! واشهر الشعر في هذا المعنى قول مهيار :

يا لُواة الدَّين عن ميسرةٍ والبخيلاتُ ما كنّ لئاما
حمّلوا ريح الصبا نشركم قبل ان تحمل شيحاً وخزامى
وابعثوا لي في الكرى طيفكم إن أذِنتم لجفوني ان تناما

ويجمل بنا ان نذكر قصيدة كثيّر التائية ، ففيها صورة شعرية لصدق اللوعة ، عند بخل الحبيب . وهي فوق ذلك غُرة من غرر الآداب العربيه . قال :

خليليّ هذا ربع عزّة فاعقلا قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلتِ
وما كنت ادري قبل عزة ماالبكا ولا موجعات القلب حتى تولت
فقد حلفت جهْداً بما نحرت له قُريشٌ غداة المأزَمين وصلتِ
أناديك ما حج الحجيجُ وكبرت بفيفا غزال رُفقةٌ واهلت
وكانت لقطع الحبل بيني وبينها كناذرة نذراً فأوفت وحلت
فقلت لها يا عز كل مصيبة إذا وُطنت يوماً لها النفس ذلت(١)
ولم يلق إنسانٌ من الحب ميعةً تعم ولا غمّاءَ إلا تجلت (٢)
كأني انادي صخرة حين اعرضت من الصم لو تمشي بها العصم زلت(٣)
صفوحاً فما تلقاك إلا بخيلة فمن مل منها ذلك الوصل ملت (٤)
اباحت حمىً لم يَرعه الناس قبلها وحلت تلاعاً لم تكن قبل حُلت(٥)

---

(١) ذلت هانت (٢) الميعة والغماء ، الشدة . وتجلت ، انصرفت

(٣) العصم ، جمع أعصم وهو من الظباء والوعول ما في ذراعيه أو أحدهما بياض وسائره أسود أو أحمر . وزلت : زلقت

(٤) صفوح ، معرضة (٥) التلاع ، جمع تلعة وهي ما ارتفع من الارض

فليت قلوصي عنـد عزة قُيدت … بحبل ضعيف غُر منهـا فضلت

وغودر في الحي المقيمين رحلها … وكان لها باغٍ سواي فبلت (١)

وكنت كذي رجلين رجل صحيحة … ورجل رمى فيها الزمان فشلت

وكنت كذات الظلع لما تحاملت … على ظلعها بعد العثار استقلت (٢)

أريد الثواء عندها واظنها … إذا ما اطلنا عندها المكث ملت

فما انصفت اما النساء فبغضت … إليّ وأما بالنوال فضنت

يكلفها الغيران شتمي وما بها … هواني ولكن المليك استذلت

هنيئاً مريئاً غير داءٍ مُخامرٍ … لعزة من اعراضنا ما استحلت

فوالله ما قاربت إلا تباعدت … بصرمٍ ولا اكثرتُ إلا أقلت

فان تكن العتبى فأهلا ومرحبا … وحقت لها العتبى لدينا وقلت (٣)

وإن تكن الاخرى فان وراءنا … منادح لو سارت بها العيس كلت (٤)

فلا يبعدنْ وصلٌ لعزة اصبحتْ … بعاقبة اسبابه قد تولتِ

اسيئي بنا أو احسني لا ملومةً … لدينا ولا مقليَّة إن تقلتِ (٥)

ولكن انيلي واذكري من مودةٍ … لنا خُـلة كانت لديكم فطلت

فاني وإن صدّتْ لمثنٍ وصادقٌ … عليها بما كانت الينا أزلت (٦)

فما انا بالداعي لعزة بالجوى … ولا شامتٌ إن نعلُ عزة زلت

فلا يحسب الواشون ان صبابتي … بعزة كانت غمرة فتجلت

فأصبحت قد ابللت من دنفٍ بها … كما ادنفت هيماءُ ثم استبلت (٧)

فوالله ثم الله ما حلّ قبلها … ولا بعدها من خُلة حيث حلت

وما مرّ من يوم عليّ كيومها … وان عظمت أيام اخرى وجلت

واضحت بأعلى شاهق من فؤاده … فلا القلب يسلوها ولا العين ملت

---

(١) بلت المطية : ضلت (٢) ظلع البعير : غمز في مشيه . واستقل : نهض من عثرته .

(٣) العتبي والاعتاب : الترضية (٤) المنادح : جمع مندوحة وهي ما اتسع من الأرض .

(٥) تقلت : ظهرت بالقلى وهو البغض . ومقلية : مبغوضة (٦) أزلت : أسدت

(٧) أبل من مرضه برىء منه . والدنف المرض . والهيماء : المريضة بالهيام وهو داء يصيب الابل فلا تصبر على الماء .

فيا عجباً للقلب كيف اعترافه ... وللنفس لما وُطِّنت كيف ذلت [١]
واني وتهيامي بعزة بعدما ... تخليت مما بيننا وتخلت
لكالمرتجى ظل الغمامة كلما ... تبوأ منها للمقيل اضمحلت
كأني واياها سحابة ممحل ... رجاها فلما جاوزته استهلت [٢]
فان سأل الواشون فيمَ هجرتها ... فقل نفسُ حر سلِّيتْ فتسلت [٣]

ومن الشعراء من ينص على ان شح الحسان سماحة ، كالتهامي حين يقول :

ماتت لفقد الظاعنين ديارهم ... فكأنهم كانوا بهـا ارواحا
ولقد عهدت بها فهل ارينه ... مغدًى لمنتجع الصبى ومراحا
بالنافثات النافذات نواظراً ... والنافذين اسنّة وصِفاحا
وارى العيون ولا كأعين عامرٍ ... قدراً مع القدر المتاح مُتاحا
متوارثي مرض الجفون وانما ... مرض الجفون بأن يكن صحاحا
من كان يكلف بالأهلة فليزر ... ولدي هِلال رغبة وبراحا
لا عيب فيهم غير شح نسائهم ... ومن السماحة ان يكن شحاحا
طرقته في أترابها فجلتْ له ... وهنا من الغرر الصِّباح صباحا
أبرزن من تلك العيون اسنةً ... وهززن من تلك القدود رماحا
يا حبذا ذاك السلاح وحبذا ... وقت يكون الحسن فيه سلاحا

ويأسى ابن التعاويذي على ان يرجو عطف البخيلة ، وهو جواد الكف . وذلك قوله :

---

(١) الاعتراف : الاصطبار . وذلت : رضيت

(٢) ممحل : أصابه المحل وهو القحط

(٣) تلك هي تائية كثير . ولقد كان بها جد مفتون . حتى انه سئل أنت أشعر أم جميل؟ فقال ، بل انا . فقيل له : أتقول هذا وأنت راويته ؟ فقال : جميل يقول :

رمى الله في عيني بثينة بالقذى ... وفي الغر من انيابها بالقوادح

وانا أقول :

هنيئا مريئا غير داء مخامر ... لعزة من أعراضنا ما استحلت

نأيت فحرمت الجفون على الكرى ... واغريت دمع العين بالهملان

واعهد قبل البين قلبي يطيعني ... ولكنه يوم الوداع عصاني

وما زال مطبوعاً على الصبر قلباً ... سواءٌ بعادٌ عنده وتداني

فما باله يوم النوى سار منجداً ... مع الركب في اسر الصبابة عان

فليت طبيباً امرضتني جفونه ... وفي يده منها الشفاء شفاني

وليت غريمي في الهوى وهو واجد ... تحرج من ليّانه فقضاني [1]

ولولا الهوى يا آل خنساءَ لم يكن ... ليملكني منكم خضيب بنان

ولا بتُّ في ابياتكم سائلا قِرًى ... بغير قناً او طالباً لأمان

أُرجّي جواد الكف عطف بخيلة ... واخشى حديد القلب فتك جبان

وقبلك ما انهضتُ عزمي لحاجةٍ ... فأدركتها إلا بجدّ سِنان

واولى بمثلي ان يكون مهادهُ ... سرير حِصانٍ لا سرير حَصان

وبي أنفٌ ان اقتضي بسوى الظُّبى ... ديوني إذا غير الحبيب لواني

(١) الليان : مصدر لوى . يقال : لوى غريمه إذا مطله

الامر للحب

ومن الشعراء من يتحدث عن صبره المغلوب ، ثم يجعل الامر كله للحب . كما انشد احمد بن يحيى :

من كان يزعم ان سيكتم حبه ... حتى يُشككك فيه فهو كذوب
الحبُّ اغلب للفؤاد بقهــره ... من ان يُرى للستر فيه نصيب
وإذا بدا سر اللبيب فانــه ... لم يبدُ إلا والفتى مغلوب
إني لأبغض عاشقاً متستراً ... لم تتهمه أعينٌ وقلوب

وفي هذا المعنى يقول الاقرع بن معاذ القشيري في حبيبة غلبته على قلبه ، واستأثرت به من بين النساء :

يقر بعيني ان ارى ضوءَ مُزنةٍ ... يمانيـــةٍ او ان تهبَّ جنوب
لقد شغفتني ام بكر وبغّضت ... إليَّ نساءً مــا لهن ذنوبُ
اراكِ من الضرب الذي يجمع الهوى ... ودونــك نسوانٌ لهنَّ ضروب
وقد كنت قبل اليوم احسب انني ... ذلولٌ بأيام الفراق اديب

وقد وضح هذا المعنى كل الوضوح في قول الضحاك :

يقولون مجنونٌ بسمراءَ مولعٌ ... ألا حبّذا جنٌّ بنا وولوع
واني لأخفي حب سمراءَ منهم ... ويعلم قلبي انــه سيشيع
ولا خير في حبٍّ يُكنُّ كأنه ... شغافٌ اجنته حشاً وضلوع

ومن العشاق من يخلع العذار ، لروعة الحسن في محبوبه ، وصولة الحب في قلبه . كقول عمارة اليمني :

ظبيٌ اعار الليل طُرة شعره ... وامدّ ضوء الصبح بالاشراق

وسنان ذاب السحر في آماقه　　　واذاب ماء الروح من آماقي
كتب الجمال على صحيفة خدّه　　　عذرَ المحبّ وحجة المشتاق
ماكنت ادرى يوم رؤية وجهه　　　ان الخدود مصارع العشاقِ

واحب ان يتأمل القارىء جمال التصوير في قوله :

وسنانُ ذاب السحر في آماقه　　　وأذاب ماء الروح من آماقي

فقد جعل الدمع ذوب الروح ، وهو خيال بديع [١] . وعذر المحب الذي كتبه الجمال على خد المحبوب يذكرنا بقول بعض الظرفاء :

يا مليح الدّلّ والغنَجِ　　　لك سلطانٌ على المهجِ
إن بيتاً انت ساكنه　　　غير محتاجٍ إلى السُّرُجِ
وجهك المعشوق حجتنا　　　يوم يأتي الناس بالُحجج

(١) في كتاب البدائع رسالة ممتعة عن دولة الحسن وعالم الجمال ، كتبها المؤلف في وصف ليلة من ليالي الرقص في مصر الجديدة ، فليراجعها القارىء إن شاء

حمل السلام

للشعراء فنون مختلفة في نجوى الحبيب البعيد . فمنهم من يقصد الى غرس الرفق في قلوب احبابه ، بوصف ما هو عليه من الخطر ، كقول الطغرائي :

ويا ايها الغادي تحمَّل رسالة   على ما بها إن الحديثَ طويلُ
وقل للأولى حلوا الحمى سُقي الحمى   عزاءكم   فالعامري   قتيل

ومنهم من يوصي الرسول بملاطفة المحبوب واستدراجه . واطرف ما قيل من الشعر في هذا المعنى قول الوأواء الدمشقي :

بالله ربكما عُوجا على سَكنى   وعاتباه لعلَّ العتبَ يعطفه
وحدّثاه وقولا في حديثكما   ما بال عبدك بالهجران تُتلفه
فإن تبسمَ قولا في ملاطفةٍ   ما ضرّ لو بوصال منك تسعفه
وإن بدا لكما في وجهه غضبٌ   فغالطاهُ وقولا ليس نعرفه

وهو مأخوذ من قول عمر بن أبي ربيعة في وصف قوادة :

فأتتها   طبة   عالمةٌ   تمزج الجدّ مراراً باللعبْ
تُغلظ القول إذا لانت لها   وتراخى عند سورات الغضب

قيل ان ابن أبي عتيق قال لعمر لما سمع هذا الشعر : ما أحوج المسلمين إلى خليفة يدبر أمورهم مثل قوادتك هذه [١] . ولعله تذكر قول معاوية : لو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت . قيل وكيف ذاك ؟ فقال إذا شدوا ارخيت وإن تراخَوا شددت :

وقد تلطف البها زهير في وصية الرسول بقوله :

فيا رسولي الى من لا أبوح بهِ   إنّ المهمات فيها يعرف الرجل

---

(١) في كتاب « حب ابن أبي ربيعة وشعره » تفاصيل ممتعة لعبث هذا الشاعر بالنساء .

بلغ سلامي وبالغ في الخطاب له ... وقبّل الارض عني حينما تصل
بالله عرّفه حالي إن خلوت به ... ولا تُطل فحبيبي عنده مَللُ

وإنك لتضحك بملء فيك حين تتأمل قوله :

إن المهمات ِ فيها يُعرف الرجلُ

فكأنما هي قيادة حربية ، لا قيادة غرامية !

ومنهم من يحمّل النسيم تحياته إلى من يهوى . كما قال بعض الظرفاء :

فيا نسيمَ الصبا انت الرسول له ... والله يعلم اني منـــك غيرانُ
بلغ سلامي إلى من لا أكلمه ... اني على ذلك الغضبان غضبان
لا يا رسوليَ لاتذكر له غضبي ... فذاك منيَ تمويهٌ وبهتان
وكيف اغضب لاوالله لاغضبٌ ... اني لما رام من قتلي لفرحان
اكلّ يوم لنا رسلٌ مرددةٌ ... وكلّ يوم لنا في العَتب ألوان
أستخدم الريح في حمل السلام لكم ... كأنما انا في عصري سليمان

وقد ذكر أمين الدين بن عطايا السبب في اختيار النسيم لحمل الرسالة حين قال :

انا اهوى غصن النقا وهو لاه ٍ ... وفؤادي بحبه في التيه
يا نسيم الصبا ترفق عليه ... وتلطفْ بـــه ولا تُؤذيه
وتحمّل رسالة ليس إلا ... كَ أميناً في حملها أرتضيه
وإذا لم يكن رسولي نسيما ... نحو غصن النـــقا فمن يثنيه

وأظهر من ذلك ما حُكي ان ابن سعيد المغربي مشى مع جماعة مـــن ادباء المصريين وفيهم أبو الحسين الجزار . فمروا في طريقهم بمليح نائم تحت شجرة ، فهبت الريح فكشفت ثيابه عنه . فقال الجزار : قفوا ! لينظم كل منا شيئاً في هذا ! فقال ابن سعيد :

الريح أقودُ ما تكونُ لأنها ... تُبدي خفايا الردف والاعكان
وتميل بالأغصان عند هبوبها ... حتى تقبّل اوجـــه الغدران
ولذلك الأحباب يتخذونهـــا ... رسلا الى الاحباب والاوطان

وهو شعر حسن . غير انه لا وجه لذكر الاوطان في هذا الموطن إذ لا علاقة

لها بالقيادة . ولو قال الخلان او الاخدان لكان انسب واقرب إلى المراد . وقال ابن الخياط :

يا نسيم الصبا الولوع بوجدي حبذا أنت لو مررت بهندِ
ولقد رابني شذاك فبالله متى عهده بأظلال نجد

ومنهم من يوصي الركبان بحمل سلامه ، وتبليغ شكواه ، كقول الشريف :

دعا بالوحاف السُّود من جانب الحمى لديغ هوىً لبّيتُ حين دعاني
تعجَّب صحبي من بكائي وأنكروا جوابي لما لم تسمع الاذنان
فقلت نعم لم تسمع الاذن دعوةً بلى إن قلبي سامعٌ وجَناني
ويا أيها الركب اليمانون خبّروا طليقاً بأعلى الخيف أني عاني
عِدُوه لقائي أو عِدوني لقاءه ألا ربما دانيتُ غير مدان

وهذا شعر موجع ، يغري القلب بالحزن ، والعين بالدمع ، واشجى منه قول مهيار :

تحرّشْ بأحقاف اللوى عمر ساعةٍ ولولا مكان الريب قلت لك ازددِ
وقل صاحبٌ لي ضل بالرمل قلبه لعلك ان يلقاك هادٍ فتهتدي
وسلم على ماءٍ به بُرد غُلتي وظِلٍّ أراكٍ كان للوصل موعدي
وقل لحمام البانتين مهنئاً تغنَّ خلياً من غرامي وغرّدِ
أعندكم يا قاتلين بقيةٌ على مهجةٍ إن لم تمتْ فكأن قدّ
ويا أهل نجدٍ كيف بالغور بعدكم بقاء تهاميٍّ يهيمُ بمنجدِ
ملكتم عزيزاً رِقّهُ فتعطّفوا على منكرٍ للذل لم يتعوّد

وحدث أبو العباس محمد بن يزيد قال : خرجت مع الحسن بن رجاء إلى فارس فلما صرنا إلى موضع يعرف بشعب بوّان رأيت على حائط مكتوباً بخط جليل :

إذا أشرف المكروب من رأس تلعة على شِعب بوّانٍ أفاق من الكربِ
وألهاه بطنٌ كالحريرة مسُّه ومطّرد يجري من البارد العذب
وطِيب ثمار في رياض أريضةٍ وأغصان اشجار جناها على قرب
فبالله يا ريح الجنوب تحملي الى شعب بوانٍ سلام فتى صبٍّ

واذا تحت ذلك الخط الجليل بخط أدق منه :

ليت شعري عن الذين تركتنا خلفنا بالعراق هل يذكرونا
أم لعل المدى تطاول حتى قدُم العهد بيننا فنسونا

ولا يفوتنا ان نمتع القارىء بقول الشريف :

حيّ بين النقاوبين المصلىّ وقفات الركائب الانضاء
ورواح الحجيج ليلة جمع وبجمع مجامع الاهواءِ [1]
وتعهدذكري اذا كنت بالخيـ ـف لظبى من بعض تلك الظباء
قل له هل نراك تذكر ما كا ن بباب القبَيبة الحمراءِ
قال لي صاحبي غداة التقينا نتشاكى حرّ القلوب الظماء
كنت خبرتني بأنك في الوجـ ـد عقيدي وان داءَك دائي
ماترى النفْر والترحُّل للبيـ ـن فماذا انتظارنا بالبكاءِ
لم يقلها حتى انثنيت لما بي اتلقى دمعي بفضل ردائي

(١) ترد كلمة « جمع » كثيراً في شعر الشريف . وهو من مناسك الحج . ويوم جمع يوم عرفة . وايام جمع ايام منى .

دموع الغانيات

لا نريد هنا الدمع يسفحه الندم ، بل الدمع يرسله الوفاء . لان عبرة النادم رفق بنفسه التي افسدها الإسراف . أما عبرة المودّع فهي رفق بحبه الـــذي أشجاه الفراق !

قال جرير في بكاء الحسان عند الوداع :

ان الذين غدوا بلبك غادروا وشلاً بعينك ما يزال مَعِينا
غيّضن من عبراتهن وقلن لي ماذا لقيت من الهوى ولقينا

وهو كلام فطري لا كلفة فيه . وما ابدع قول الظاعنات :

ماذا لقيت من الهوى ولقينا !

ومثله قول ابن التعاويذي :

لما وقفنا للودا ع وقد دعا داعي الرحيل
وتخاذلت أنصار دمـ ـي في هوى الظبي الخذول
قالت وأدمعها تسيـ ـل أسىً على الخد الاسيل
يا بين كم أجليت يو م نوى الأحبة عن قتيل

وهذا شعر خفيف الروح ، لطيف النسيم . ويشبه قول بعض الاعراب :

ومما شجاني أنها ودّعت تولّت وماء العين في الجفن حائرُ

فلما أعادت مـــن بعيد بنظرةٍ

اليَّ التفاتاً أسلمتـــه المحاجر

وقد أنصف الابيوردي معشوقته إذ يقول :

وما أنس لا أنس الوداع وقد بدت	تُفيض دمعاً فاض وابله سكبا
مهفهفـــة لم ترض أترابها لهـــا	ببدر الدجى شبهاً وشمس الضحى تربا
تنفسُ حتى يُسلم العقدَ سلكهُ	وأكظم وجداً كاد ينتزع القلبـــا
وتذري شآبيب الدموع كأنما	أذابت بعينيها النوى لؤلؤاً رطبا

ولو سلمت هذه الأبيات من مثل هذا الغزل الطريف لكان انسب بموقف التوديع . ومثلها في ذلك قول السري الرفاء :

تنادوا لتفريق الفريق فأصبحت	مدامعنا تندى لفرقتهم دما
سلام على من سار قلب محبـــه	اليه فلم يرجع صحيحاً مسلّما
يحلُّ عقود الدر دمعاً ومنطقاً	وينظمها حلياً عليـــه ومبسما
أماط عن الغذب اللثاةِ لثامــه	فعاد بديباج الحيـــاء ملثما
وكلمني جفناه بالدمع خفية	فهمَّ غليل الشوق ان يتكلما

ومن العشاق من ينسب إلى حبيبته التباكي ، وإلى نفسه مر البكاء ، ثم يفرق بين العبرتين ، ويميز بين الزفرتين . كالأرجاني إذ يقول :

سفرت كي تزود الحب منها	نظرة حين آذنت بالتنائي
ورأت انها من الوجد مثلي	ولها للفراق مثل بكائي
فتباكت ودمعها كسقيط الطل	في الجلنـــارة الحمراء
فترى الدمعتين في حمرة اللو	نِ سواء وما هما بسواء
خدها يصبغ الدموع دمعي	يصبغ الخد قانياً بالدماء
خضب الدمع خدها باحمرار	كاختضاب الزجاج بالصهباء

وما ادري بأي قلب يلح هذا الشاعر ليحول دموع محبوبته إلى دماء !! وما أرفق المتنبي اذ يقول :

وجلا الوداع من الحبيب محاسناً	حُسن العزاء وقد جلين قبيحُ

فيدٌ مسلمة وطرف شاخص   وحشاً يذوب ومدمع مسفوح

ألم تر اليه وقد انخلع قلبه ، حين رأى حبيبته باكية ، فلم يذكر إلا انها جميلة ، وان الصبر على فراقها أعز منالا من نجوم السماء !

وتعجبني هذه النجوى في قول ابن الرومي يصف عتاب حسناء :

زارت على غفلة من الحرسِ   تهدي إليّ السلام في الغلسِ
أني تجشمت نحو أرحلنا الهو   ل ولم ترهبي أذى العسس
قالت ترامى بنا إليك من الشو   ق مُغيصٌ بالبارد السلس
كم زفرة لي تبيتت تنهض أحشا   ئي ودمع عليك منبجس
وأنت لاهٍ بغيرنا ولنا   منك هوى ممسك على النفس
عجبت من ذلتي ومن قلبك القا   سي علينا وخلقك الشكسِ
لا تأمنن الهوى وسطوته   واخش رداه ومنه فاحترسِ

وهذا الشعر جميل في معناه ، ولكن يظهر ان أسلوبه لا يمثل الرقة في نجوى الحسناء ، وقد مسها الحب بناره ، وأحرقها بجواه ! ولو تناول ابن ابي ربيعة أو ابن الاحنف هذا المعنى لرأيت له ثياباً أرق من هذه الثياب ، وأسلوباً غير هذا الاسلوب !

ومن بارع الشعر في دموع الحسان قول جميل :

لما دنا البين بين الحي واقتسموا   حبل النوى فهو في أيديهم قِطع
جادت بأدمعها ليلى وأعجلني   وشك الفراق فما أبقي وما أدعُ
ياقلب ويحك ما عيشي بذي سلم   ولا الزمان الذي قد مرّ مُرتجع
أكلما بان حيٌّ لا تلائمهم   ولا يبالون ان يشتاق من فجعوا
علقتني بهوى عنهم فقد جعلت   من الفراق حصاة القلب تنصدع

وهذا الشعر يمثل الطبيعة في مواقف الوداع ، فالشاعر هنا شائق ومشوق . ولا كذلك أبيات الرومي التي حصر دمعها في عيون زائرته الحسناء . ومن هذه الناحية يعجبني ما أنشده صاحب الأمالي :

ولما رأت ان النوى أجنبية
وان خليلا من غدٍ سيبينُ

بكت فبكى من لاعج الشوق والاسى ... وكل بكلٍ ان يبين ضنينُ
فقلت ولم أملك سوابق عبرة ... على الخد مني فالدموع هتون
لقد كنت ابكي قبل ان تشحط النوى ... فكيف إذا ما غبت عنك اكون

وأنظر كيف يصف العرجي خوف محبوبته من فراقه :

وما أنس ملأشياء لاأنس موقفاً ... لنا ولها بالسفح دون ثبير
ولا قولها وهناً وقد بل جيبها ... سوابق دمع لا يجفُّ غزير
أأنت الذي خبرت أنك باكر ... غداة غد أو راحل بهجير
فقلت يسيرٌ بعد شهر أغيبـــه ... وما بعض يوم غبته بيسير
وقلت لها قول امرىء شفَّه الهوى ... اليها ولو طال الزمان فقير
فما أنا إن شطت بك الدار أو نأت ... بي الدار عنكم فاعلمي بصبور

وكنا نحب ان نعلم بقية العتاب في قوله :

أحين عصيت العاذلين اليكم ... ونازعت حبلي في هواك أميري
وباعدني فيك الاقارب كلهم ... وباح بما يخفي اللسان ضميري

ولكن الرواة لم يذكروا هذه القصيدة كاملة .

والشعر الذي تقدم لا يمثل عواطف النساء تمام التمثيل ، لأنه من أحاديث الرجال . ولو ان المرأة تكلمت لعرفنا منها وكيف تشعر بلوعة الفراق . وإليك ما قالته امرأة من بني أسد في حبيب بنقض العهود :

بنفسي من أهوى وأرعى وصاله ... وتنقض مني بالمغيب وثائقه
حبيب أبى إلا اطّراحي وبغضتي ... وفضّله عندي على الناس خالقه

وانظر قول ابنة الحباب :

تحاحب* يحيي حب يعلى فاصبحت ... ليحيى توالي حبنا وأوائله
ألا بأبي يحيى ومثنى ردائـــه ... وحيث التقت من متن يحيى حمائله

فان هذا الشعر يمثل احساس النساء بجمال الرجال . ومـــا اوجع الشوق في قول هذه الشاعرة :

أأضرب في يحيى وبيني وبينه ... تنائف لو تسري بها الريح كلتِ

الا ليت يحيى يوم عيهم زارنا   وان نهلت مني السياط وعلّت

وفي الآداب العربية قطع منثورة تمثل ما تشتهي المرأة من الرجل ، ولكنها من القلة بحيث لا تصور تماماً نفوس النساء ، ولا تزال لغزاً من الألغاز ، ولو أنها تحدث عن عواطفها كما تحدثت الرجل عن عواطفه ، لعرفنا بعض ما ستره هذا الصمت البليغ !

ندم المفارق

أشهر الشعر في ندم المحب، على فراق من يحب، ما قاله قيس بن ذريح وقد طلق لبنى . قال محمد بن زياد الاعرابي : لما ألحّ ذُرَيح على ابنه قيس في طلاق لبنى ، فأبى ذلك قيس ، طرح ذريح نفسه في الرمضاء وقال : لا والله . لا اريم هذا الموضع حتى اموت . او يخليها . فجاءه قومه من كل ناحية ، فعظموا عليه الأمر وذكروه بالله وقالوا : اتفعل هذا بأبيك وامك ، وان مات شيخك على هذه الحال كنت معيناً عليه وشريكاً في قتله ، ففارق لبنى على رغم أنفه وقلة صبره . وبكى حتى بكى لهما من حضرهما . وانشأ يقول :

أقول لُخلتي في غير جرمٍ ... ألا بيني بنفسك انت بيني
فوالله العظـــيم لنزع نفسي ... وقطع الرجل مني واليمينِ
أحبُّ إليّ يا لبنى فِراقاً ... فبكى للفراق واسعديني
ظلمتك بالطلاق بغير جرمٍ ... لقد أذهبت آخرتي وديني

قال : فلما سمعت بذلك لبنى بكت بكاء شديداً وأنشأت تقول :

رحلت اليه مـــن بلدي واهلي ... فجازاني جـزاء الخائنينا
فمن يرني فلا يغترّ بعــدي ... بحلو القول أو يبلو الدفينا

فلما انقضت عدتها وارادت الشخوص الى اهلها أُتيت براحلة لتحمل عليها . فلما رأى ذلك قيس داخله منه امر عظيم ، واشتد لهفه ، وأنشأ يقول :

بانت لبينى فأنت اليوم متبول ... وانك اليوم بعـد الحزم مخبول
فأصبحت عنك لبنى اليوم نازحة ... ودلُّ لبنى ، لها الخيرات ، معسول

هــل ترجعن نوى لبنى بعافيةٍ كما عهدت ليالي العشق مقبول
وقد اراني بلبنى حــق مقتنع والشمل مجتمعٌ والحبل موصول
فصرت من حب لبنى حين اذكرها ألقلب مرتهن والعقل مدخول
اصبحت من حب لبنى حين اذكرها في كربة ففؤادي اليوم مشغول
والجسم مني منهوك لفرقتها أخو هُيام مصاب القلب مسلول
استودع الله لبنى إذ تفارقني عن غير طوع وأمر الشيخ مفعول

ثم ارتحلت لبنى فجعل قيس يقبّل موضع رجليها من الارض وحول خبائها فلما رأى ذلك قومه اقبلوا على ابيه بالعذل واللوم ، فقال ذريح لما رأى حاله : قد جنيت عليك يا بُني ! فقال له قيس : قد كنت اخبرك أني مجنون بها فلم ترض إلا بقتلي . فالله حسبك وحسب امي !! واقبل قومه يعذلونه بتقبيله التراب ، فأنشأ يقول :

فما حبي لطيب تراب ارضٍ ولكن حب من وطىء الترابا
فهذا فعل شيخينا جميعاً ارادا لي البليــة والعذابا

ولقيس بن ذريح شعر أجود مما تقدم ، وأدلُّ على لوعته واسفه لفراق لبنى كقوله :

تُبكي على لبنى وانت تركتها وكنت كآتٍ غيه وهو طائع
فلا تبكين في إثر شيء ندامــة إذا نزعته مــن يديك النوازع
فليس لأمر حاول الله جمعــه مُشِتٌ ولا ما فرق الله جامع
كأنك لم تقنع اذا لم تلاقهــا وان تلقها فالقلب راض وقانع
فيا قلب خبرني اذا شطت النوى بلبنى وصدت عنك ما انت صانع
اتصبر للبين المشتّ مع الجوى ام انت امرؤٌ ناسى الحياء فجازع
فما انت ان بانت لُبينى بهاجع إذا ما استقلت بالنيام المضاجع
وكيف ينام المرء مُستشعر الجوى ضجيج الاسى فيه نكاسٌ روادع
ولا خير في الدنيا إذا لم تُواتنا لبينى ولم يجمع لنا الشمل جامع
ولولا رجاء القلب ان تعطف النوى لما حملته بينهن الاضالــع

له وجباتٌ إثر لبنى كأنها — شقائق برق في السحاب لوامع

نهاري نهار الناس حتى اذا دجا — لي الليل هزتني اليك المضاجع

اقضي نهـاري بالحديث وبالمنى — ويجمعني بالليل والهمّ جامع

ألا إنما ابكي لمـــا هو واقع — وهل جزع من وشك بينك نافع

ومن جيد شعره ايضاً هذه القصيدة :

سأصرم لبنى حبل وصلك مجملا — وان كان صرم الحبل منك يروعُ

وسوف أسلي النفس عنك كما سلا — عن البلد النائي البعيد نزيع

وان مسني للضرّ منك كآبة — وان نال جسمي للفراق خشوع

سقى طلل الدار التي انتم بهـا — بشرقيّ لبنى صيفٌ وربيع

يقولون صبٌ بالنساء مُوكل — وما ذاك من فعل الرجال بديع

مضى زمن والناس يستشفعونني — فهل لي الى لبنى الغداة شفيـع

ايا حرجات الحي حيث تحملوا — بذي سلمٍ لاجادكن ربيـــع

وخيماتك اللاّتي بمنعرج اللوى — بلين بـلى لم تبلهن ربوع

الى الله اشكو نية شقت العصا — هي اليوم شتى وهي امس جميع

وإن انهمال العين بالدمع كلما — ذكرتك وحدي خالياً لسريع

فلو لم يهجني الظاعنون لهاجني — حمائم وُرقٌ في الديار وقـــوع

تجاوبن فاستبكين من كان ذاهوى — نوائح ما تجري لهن دموع

لعمرك اني يوم جرعاء مالكٍ — لعاص لامر المرشدين مُضيع

ندمت على ما كان مني ، فقدتني — كما يندم المغبون حين يبيـــع

اذا مالحاني العاذلات بحبهـا — ابت كبد ممـــا أجنُّ صديع

وكيف اطيع العاذلات وحبها — يؤرقني والعاذلات هُجوع

عدمتك من نفس شعاع فانني — نهيتك عن هذا وانت جميع

فقربتِ لي غير القريب واشرقت — هناك ثنايا مالهـــنّ طلوع

وضعفني حبيكِ حتى كأنني — من الاهل والمال التلاد خليـــع

وحتى دعاني الناس احمق مائقاً — وقالوا مطيع للضلال تبوع

ويعجبني قوله :

ندمت على ما كان مني ، فقدتني ! كما يندم المغبون حين يبيع

وهو في شعره يمثل الفطرة الخالصة من شوائب التكلف ، فانه فُجع بفراق حليلته ، والحليلة المعشوقة متاع عزيز .

وفي وصف اثر الطلاق يقول احد الاعراب :

ندمت وما تغني الندامة بعدما جرجن ثلاث ما لهنّ رجوع
ثلاث يُحرّ من الحلال على الفتى ويصدعن شعب الدار وهو جميع

والتعبير بشعب الدار تعبير دقيق ، ما كان يغنى عنه ان يقول: (ويصدعن شعب القلب) لان فراق الحليلة هدم للبيت من اساسه .

ومن شجى الشعر في ندامة المفارق عينية ابن زريق ، وقد ترك ابنة عمه ببغداد ورحل الى الاندلس في سبيل الرزق ، ثم حيل بينه وبين ما يريد، فأرسل هذه الزفرة الباقية :

استودع الله في بغداد لي قمراً بالكرخ من فلك الازرار مطلعهُ
ودّعته وبودي لو يودعني صفو الحياة واني لا أودعه
وكم تشفع بي ان لا افارقه وللضرورات حال لا تشفعه
وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحى وأدمعي مستهلات وادمعه
لا اكذب الله ثوب العذر منخرق مني بفرقته لكن أرقعه
إني أوسع عذري في جنايته بالبين عنه وقلبي لا يوسعه
أعطيت ملكا فلم احسن سياسته كذلك من لا يسوس الملك يُخلعه
ومن غدا لابساً ثوب النعيم بلا شكر عليه فعنه الله ينزعه
اعتضت من وجه خلي بعد فرقته كأساً يُجرّع منها ما اجرعه
كم قائل لي ذنب البين قلت له الذنب والله ذنبي لست ادفعه
هلا اقمت فكان الرشد اجمعه لو انني حين بات الرشد اتبعه
لو انني لم تقع عيني على بلد في سفرتي هذه إلا واقطعه
يا من اقطع ايامي وأنفدها حزناً عليه وليلي لست اهجعه
لا يطمئن بقلبي مضجع وكذا لا يطمئن به مذ بنت مضجعه

ما كنت احسب ان الدهر يفجعني ... به ولا ان بي الايام تفجعه

حتى جرى الدهر فيما بيننا بيد ... عسراء تمنعني حقي وتمنعه

وكنت من ريب دهري جازعاً فرقاً ... فلم أوَقَّ الذي قد كنت أجزعه

بالله يا منزل القصف الذي درست ... آثاره وعفَت مذ بعتُ أربعه

هل الزمان معيد فيك لذتنا ... ام الليالي التي امضته ترجعه

في ذمة الله من اصبحت منزله ... وجاد غيث على مغناك يُمرعه

من عنده لي عهدٌ لا يضيع كما ... عندي له عهد صدق لا اضيعه

ومن يصدع قلبي ذكره وإذا ... جرى على قلبه ذكري يصدعه

لاصبرن لدهر لا يمتعنى ... به ولا بي في حال يمتعه

علماً بأن اصطباري معقب فرجاً ... فأضيق الامر لو فكرت اوسعه

علّ الليالي التي اضنت بفرقتنا ... جسمي ستجمعني يوماً وتجمعه

وان تغل احداً منا منيته ... لا بدَّ في غده الثاني سيتبعه

وان يدم أبداً هذا الفراق لنا ... فما الذي بقضاء الله نصنعه

ومما يتصل بندامة المفارق ما قاله ابن الرومي في فرصة ضاعت منه فعض من بعدها البنان . فلنذكرها على سبيل الفكاهة ، لما فيها من ظرف المجون :

استغفر الله من تركي علانية ... ذنباً هممت به في شادن خنث (١)

ظبيٌ دعتني عيناه ومنطقه ... بنية صدقت عن ظاهر عبث

فلم اجبه وحظي في اجابته ... لكن سكتّ كأني غير مكترث

لا بل فررت وظل الصيد يطلبني ... والله ما كنت فيها بالفتى الدَّمث

اقسمت بالله لما كنت محتجزاً ... أني انبعثت بقلب غير منبعث

(١) الشادن : الغزال . والخنث : المتثني

غربة المحب

نتكلم قليلا عن غربة المحب ، وكل مهجور غريب ، لأن الامر كما قال الشريف

ليس الغريب الذي تنأى الديار به ان الغريب قريبٌ غير مودود

فمن الشعراء من يغترب في سبيل حبه . كما قال حذيفة الغنوي :

يقولون من هذا الغريب بأرضنا اما والهدايا إنني والغريب
غريب دعاه الشوق واقتاده الهوى كما قيدَ عود بالزمام اديب (١)
وماذا عليكم ان اطاف بأرضكم مطالب دين او نفته حروب
امشي بأعطان المياه وابتغي قلائص منها صعبة وركوب

ومن شجيّ الشعر في غربة المحب قول بعض الاعراب :

وفي الجيرة الغادين من بطن وجرة غزال كحيل المقلتين ربيب
فلا تحسبي ان الغريب الذي نأى ولكن من تنأين عنه غريب

ومما يتصل بهذا المعنى قول بعض الاعراب يذكر اختصاصه بالبلوى في اغتراب محبوبته :

أرى كل ارض دمنتها وان مضت لها حججٌ يزداد طيباً ترابها (٢)
الم تعلمن يا رب ان رُب دعوة دعوتك فيها مخلصاً لو اجابها
واقسم لو اني ارى نسباً لها ذئاب الفلا حُببت إليّ ذئابها
لعمر ابي ليلى لئن هي اصبحت بوادي القرى ماضرّ غيري اغترابها

وغربة المحب تتمثل في حرمانه . وكيف لا يكون غريباً من يقول :

---

(١) العود الجمل، واديب ذلول

(٢) دمنتها : مشت عليها

أيا منشر الموتى اقدني من التي | بها نهلت نفسي سقاماً وعلَّتِ
لقد بخلت حتى لو اني سألتها | قذى العين من سافي التراب لضنت
وما أمّ بوٍّ هالك بتنوفة | اذا ذكرته آخر الليل حنتِ
بأكثر من لوعةٍ غير انني | اطامن احشائي على ما اجنَّت

ويظهر ان قذى العين كان في انفس العرب مثلا لما لا يضن به ، فقد رددوا ذكره في اشعارهم ، كما قال بعض بني اسد :

وكيف طلابي وصل من لو سألته | قذى العين لم يطلب وذاك زهيد(١)
ومن لو رأى نفسي تسيل لقال لي | اراك صحيحاً والفؤاد جليدُ

(١) اطلبه : اعطاه ما طلب

الامل الضائع

نذكر في مقدمة هذا الباب رسالة كتبها صاحب البدائع، ونقلها الى الفرنسية حضرة الاديب عبد المجيد عيسى البيه. وهي تمثل الوجد يضطرم في الصدر، بعد قسوة الإخفاق.

• • •

تأيمت حتى لامني كل صاحب رجاء سُليمى ان تئيم كما إمتُ

لئن بعت حظي منك يوماً بغيره لبئس إذاً يوم التغابن ما بعت

كنت اصبر على بأساء الحياة، واحتمل ما فيها من غم وغم، لو ان عندي بقية من الامل أرفّه بها احزاني، وادفن فيها آلامي! ولكن حال القنوط دون الرجاء، واتى اليأس دون الطمع، فلم يبق غير الجزع من مُسعد، ولا سوى النوح من شفاء!

فيا جيرة ما كان اهنأ وردهم، واطيب عيشهم، ويا احباباً ذقت الفرح بقربهم، وعرفت الهمّ لبعدهم، ويا من افناني فراقهم، وكان احياني لقاؤهم، وبربكم ما الذي لقيتم بعدي، فقد لقيت بعدهم ذلا وهواناً، وظلماً وعدواناً، ومن عسى ان يكون قد ظفر بودكم، ونعيم بحسنكم، فأصفاكم من الحب اجمله، ومن الانس اكمله، فقد صحبت بعدكم من جحدنعمتي، وانكر خلقي، ومن سقيته الشهد فسقاني الصاب، واوليته القرب فأولاني القطيعة؟!

فيا ليت شعري من ألوم؟

أألوم نفسي على ان لم اعقّ في بركم اهلي واخواني، فأسير حيث سرتم، واقيم حيث اقمتم.

تفرّق أهلي من مقيم وظاعن   فيا ليت شعري أيّ اهليّ اتبع
اقــام الذين لا ابالي فراقهم   وشطّ الذين بينهم اتوقع

أم ألومكم على ان تركتموني وحيداً وآثرتم وطنكم ، واهلكم ، ولم تبالوا بمن خلفتموه طريح حزنه ، واسير همه ؟

أم ألوم قوماً جعلتهم منكم بدلا فكانوا شر بدل ، واتخذتهم من بعدكم ذخراً فكانوا كالهباء ، ورجوتهم حصناً اتقي به الدهر الخائن ، والزمن الجائر ، فاذا هم أذل من قراد بمنسم ، وإذا المتفيء ظلهم ، والراجي برهم ، يطمع في غير مطمع ، ويلجأ الى شر وزَر ؟ !

أم ألوم دهراً اضطركم الى الرحلة فرحلتم ، وحكم عليّ بالمقــام فأقمت ، ثم أمدنا من اليأس لبعد الدار ، وشطّ المزار ، مــا جعل الامر في التلاقي خائباً ، ورجاء التداني كاذباً :

وقلما ابقى على مــا ارى   يوشك ان ينعاني الناعي
ما اقتل اليأس لاهل الهوى   لا سيما من بعــد إطماعِ

ما هذا الذي صنعتم ؟ اخضعتم لليأس ، واذعنتم للقنوط ، ولم ترهبوا العتاب إذ لم تأملوا اللقاء ، فزففتم تلك الشمس الى غيري ، وآثرتم بها سواي ؟ !

يا عزّ ان ضاعت عهودي عندكم   فأنا الذي استودعت غير امينِ
او عدت مغبوناً فما انا في الهوى   لكم بأول عاشق مغبونِ

غلب اليأس عليكم فمللتم — ولا وفاء للملول — فكان منكم ما اقضّ المضجع، واورث الجفن السهاد، فهل تعلمون ما صنع اليأس بنا، ونال القنوط منا ؟ولكن هيهات بعد اليوم ان ينفع العزاء .

هي الغاية القصوى فان فات نيلها
فكل مُنى الدنيا علّي حرام

• • •

وقد نظرت ما قال الشعراء في الامل الضائع ، ووجدت لهم فيه افانين ، فمنهم من يأسف على ان لم يؤهله وجهه للعشق ، كالذي يقول :

جارية اعجبها حسنها   فمثلها في الناس لم يُخلق
خبرتها اني محب لها   فأقبلت تضحك من منطقي
والتفتت نحو فتاة لها   كالرشأ الوسنان في قرطق
قالت لها قولي لهذا الفتى   انظر الى وجهك ثم اعشق[1]

ومن جيد الشعر في ضياع الامل قول عمر بن ابي ربيعة في سُكينة بنت الحسين :

قالت سكينة والدموع ذوارف   تجري على الخدين والجلبابِ
ليت المغيري الذي لم اجزه   فيما اطال تصيدي وطلابي
كانت تردُّ لنا المنى ايامنا   إذ لا نُلام على هوىً وتصابي
خبِّرت ما قالت فبت كأنما   يُرى الحشا بنوافذ النشاب
اسكين ما ماء الفرات وبردُه   مني على ظمأ وفقد شراب
بألذ منكِ وان نأيت وقلما   يرعى النساء امانة الغيّاب
ان تبذلي لي نائلا اشفى بـه   سقم الفؤاد فقد اطلت عذابي
وعصيت فيك اقاربي فتقطعت   بيني وبينهمُ عرى الاسبابِ
فتركتني لا بالوصال مُمسكاً   منهم ولا اسعفتني بثواب
فقعدتُ كالمهريق فضلة مائه   في حرّ هاجرة للمع سراب

ولم أر من الشعراء من بكى الامل الضائع كما بكاه كُثيِّر في قوله :

وادنيتني حتى اذا ما استبيتني   بقول يُحل العصم سهل الاباطحِ
توليت عني حين لالى مذهبٌ   وغادرتِ ما غادرت بين الجوانح

وهي صورة شعرية تمثل المحب ، وقد استدرجه محبوبه ، حتى اخذ الطمع

---

(١) رواية صديقنا الدكتور ابراهيم زكي الساعي لهذا البيت هكذا (انظر لاسنانك ثم اعشق) لأن بريق الثنايا هو شارة الحسن والقوة عند اطباء الاسنان .

بنواصي آماله ، ثم تركه في اللحظة الاخيرة ، يتعثر في اذيال الخيبة والقنوط !

وفي هذا المعنى يقول الشريف :

كم قد نصبت لك الحبائل طامعاً ... فنجوتَ بعد تمرُّض لوقوعِ
وتركتني ظمآن أشرب غُلتي ... أسفاً على ذاك اللمى الممنوع

ومن الامل الذاهب ان يكون من تحبه ، من بلد غير بلدك ، وقوم غير قومك ، كما قال نُصيب :

أرِق المحب وعاده سُهده ... لطوارق الهم التي ترده
وذكرت من رقّت له كبدي ... وقسا فليس ترق لي كبده
لا قومه قومي ، ولا بلدي ... فنكون حيناً جيرةً بلده
ووجدت وجداً لم يكن احدٌ ... من اجله بصبابة يجده

ونصيب يتحدث كثيراً عن عقم الأماني ، حتى ليقول :

ألا هل على البين المفرّق من بدّ ... وهل مثل أيام بمنقطع السدّ
تمنيت أيامي أولئك والمنى ... على عهد عادٍ ما تعيد وما تبدي

الكتمان

من الشعراء من لا يهمه من الكتمان غير ستر تفاصيل الود . واسرار القرب ، ولا يرى بعد ذلك حرجاً في ذكر اسم من يحب ، كما قال جميل :

لا لا ابوح بحب بثينة انها   أخذت عليّ مواثقاً وعهودا

وانه لو كان يذهب الى نكران الاسم وجحوده ، تضليلا للوشاة ، لكان هذا البيت من سخف القول ، وهذره . واليك ما يقول من كلمة ثانية :

وماذا عسى الواشون ان يتحدثوا   سوى ان يقولوا انني لك عاشق
نعم صدق الواشون انت حبيبة   إليّ وإن لم تصفُ منكِ الخلائقُ

فانه يدل على انه لا يبالي ان يُعرف بحبها . حتى قال الناس : جميل بثينة كما قالوا مجنون ليلى . ويذكر ابو علي القالي ان البيت السالف لكثيّر ، وانه ذكر بثينة تورية عن حبيبته ، وهذا فيما أرى غير حتم ، لأن كثيّر ما كان يعدل عن عزة إلا لضرورة الشعر . كقوله :

كفى حزناً للعين أن رد طرفها   لعزة عيرٌ آذنت برحيل
وقالوا نأت فاختر من الصبر والبكا   فقلت البكا اشفى اذن لغليلي
توليت محزوناً وقلت لصاحبي   أقاتلتي ليلى بغير قتيلِ

فقد ذكر عزة عند مواتاة الشعر ، وليلى عند مُعاصاته ، وهو نوع من التلاعب بالاسماء الذي كثر في شعر العرب . وقال كثيّر من قصيدة اخرى :

سيهلك في الدنيا شفيق عليكم   إذا غاله من حادث الدهر غائله
ويخفي لكم حباً شديداً ورهبة   وللناس أشغالٌ وحبك شاغله
كريمٌ يُميت السر حتى كأنه   اذا حدثوه عن حديثك جاهله

يودّ بأن يمسي سقيماً لعلهــــا   اذا سمعت عنه بشكوى تراسله
ويجهد للمعروف في طلب العلا   لتُحمد يوماً عند عَز شمائله

وهو في هذا الشعر لا يكتم اسم من يهوى ، وانمـــا يكتم احاديث الحب ، واسرار الصبابة ، كما قال جابر بن ثعلب الجرمي :

ومستخبرٍ عن سر ريّا رددته   بعمياء من ريا بغير يقينِ
فقال انتصحني إنني لك ناصح   ومــــا انا إن خبرته بأمين

وهذا العباس بن الاحنف كان من اكثر المحبين كتماناً ، ولكنه صرح باسم محبوبته فوز ، ولقد بلغ من حسد احدى جارته له ان سمت جاريتها « فوز » وقد قال في ذلك :

ما ينقضي عجبي من جهل حاسدة   كانت بذي الأثل من خدني وانصاري
سمت وليدتها فوزاً مغايظــة   عذرت لو لطمتني ذات اسوار
وما يزال نساء من قرابتها   في كل ناحية يهتكن أستاري

ومسلم بن الوليد يتغنى بكتم تباريح الصبابة في قوله :

وما نلت منها نائلا غير انني   بشجو المحبين الا لى سلفوا قبلي
بلى ربما وكلت نفسي بنظرة   اليها تزيد القلب خبلا على خبل
كتمت تباريح الصبابة عاذلي   فلم يدر ما بي فاسترحت من العذل

وقد عارضه ابن عبد ربه بقوله :

بنفسي التي ضنت عليّ بوصلها   ولو سألت قتلي وهبت لها قتلي
وان حكمت جارت عليّ بحكمها   ولكن ذاك الجور أحلى من العدل
واحببت فيها العذل حباً لذكرها   فلا شيء أحلى في فؤادي من العذل

وهو يذكرنا بقول ابي الشيص الخزاعي :

اجد الملامة في هواكِ لذيذة   حباً لذكرك فليلمني اللوّمُ
أشبهت اعدائي فصرت احبهم   اذ كان حظي منكِ حظي منهم

وقول ابن نُباتة المصري :

لثمت ثغر عذولي حين سمّاكِ   فلذ حتى كأني لاثمٌ فاكِ

ومن العشاق من يكتم الهوى جملة واحدة كقول ابن قلاقس :

كتمت الهوى عنـد العواذل ضنة ... عليهم بمن أصبو اليه وأهواه
ولو قلت اني عـاشق فطنوا له ... لعلمهم أن ليس يُعشق إلا هو

وهو مذهب غريب ، وأغرب منه مذهب من يقول :

وقائلة ما بال جسمك لا يُرى ... سقيما واجسام المحبين تسقمُ
فقلت لها قلبي بحبك لم يبح ... لجسمي فجسمي بالهوى ليس يعلم

وللعباس بن الاحنف شجون من الحديث عن الكتمان ، فتارة يذكر انه باح بحبه حين طال بلاؤه . كقوله :

هذا كتاب بدمع عيني ... أملاه قلبي عـلى لساني
الى حبيب كنيت عنـه ... أجلّ ذكر اسمه لساني
قد كنت اطوي هواه عنه ... مذ كنت في سالف الزمان
فبحت اذ طال بي بلائي ... ولم يكن لي به يدان

وهو هنا يكتم حبه عن محبوبه ، فضلا عن الناس . وتارة يذكر أنه سيموت مكتوم السر إلا عمن يحب ، فيقول :

أبكي الذين أذاقوني مودتهم ... حتى إذا ايقظوني في الهوى رقدوا
واستنهضوني فلما قمت منتصباً ... بثقل ما حمّلوني في الهوى قعدوا
جاروا عليّ ولم يوفوا بعهدهم ... قد كنت احسبهم يوفون ان وعدوا
لأخُرجنّ من الدنيا وحبـكم ... بين الجوانح لم يشعر به احد
حسبي بان تعلموا أن قد احبكم ... قلبي وان تسمعوا صوت الذي اجد

وحيناً يذكر انه سلا ، لينصرف الناس عن التحدث بحبه رفقاً بمحبوبته فيقول :

كذبت على نفسي فحدثت انني ... سلوت لكيما ينكروا حين أصدق
ولا من ِقلى مني ولا عن ملالةٍ ... ولكنني أبقى عليك وأشفِقُ
عطفت على اسراركم فكسوتها ... قميصاً مـن الكتمان لا يتخرّق

وقد يعتذر عن هجره فيقول :

الله يعلم مـــا اردت بهجركم إلا مصانعة العدو الكاشحِ
وعلمت ان تباعدي وتستري أدنى لوصلكِ من دنوٌ فاضح

وأحلى من هذا قوله في تعيين الغرض من الصدود :

سأهجر إلفي وهجرانها اذا ما التقينا صدود الخدود
كلانا محب ولكننا ندافع عن حبنا بالصدود

وتأمل قوله « صدود الخدود » يريد بذلك ان كلاً منهما يصدف بخـــده عن صاحبه ، أما القلوب فهي في ائتلاف . وطورا يكتفي بحديث العيون ، كقوله :

كلانا مُظهر للناس بغضاً وكلٌ عند صاحبه مكينُ
تخبرنا العيون بما اردنا وفي القلبين ِثم هوًى دفين

وقد يُسرُّ الحزن ، ويبدي السرور ، مبالغة في التستر ، كقوله :

عيون العائدات تراكِ دوني فيا حسدي لعيني من يراكِ
أريدك بالكلام فأتقيهم وأعمد بالكلام الى سواك
واكثر فيهم ضحكي ليخفى فسنّي ضاحك والقلب باك

وقد افصح عن ضرورة الكتمان بقوله :

سأستر والستر من شيمتي هوى من أحب بمن لا أُحب
ولا بد من كذب في الهوى اذا كان دفع الأذى بالكذب

وربما تمنى لو استطاع ان يكاتم قلبه الحب . فيقول :

اذا لم يكن للمرء بدٌ من الردى فأكرم اسباب الردى سبب الحب
ولو ان خلقاً كاتم الحب قلبــه لمت ولم يعـــلم بحبكم قلبي
اذا قيل تقريك السلام تماسكتْ حشاشة قلبي وانجلت غمرة الكرب

وقد ييأس من كتم الحب فيقول :

أما الهوى فهو شيء لا خفاء به شتانُ بين سبيل الغيّ والرشد
إن المحبين قوم بـــين اعينهم وسمٌ من الحب لا يخفى على احد

وقد يبالغ بالكتمان حتى يضل الناس من اجل حبه في بيداء من الظنون ،

ليس لليل نهار ، كما يقول :

قد سحّب الناس أذيال الظنون بنا   وفرّق الناس فينا قولهم فِرَقا
فجاهلٌ قد رمى بالظن غيركم   وصادق ليس يدري انه صدقا

وقد ذكروا ان العباس بن الاحنف مات هو وابرهيم الموصلي والكسائي في يوم واحد . فرفع ذلك الى الرشيد . فأمر المأمون ان يصلي عليهم . فصفوا بين يديــه . ثم سأل عنهم واحداً واحداً وأمر بتقديم ابن الاحنف فصلى عليه . فلما فرغ وانصرف دنا منه هاشم بن عبد الله بن مالك الخزاعي فقال : ياسيدي كيف آثرت العباس بالتقدمة على من حضر ؟ فأنشده المأمون هذين البيتين :

سمّاكِ لي ناس وقالوا انهـا   لهي التي تشقى بها وتكابد
فجحدتهم ليكون غيرك ظنهم   اني ليعجبني المحب الجاحدُ

ثم قال أتحفظها ؟ فقال نعم . فقال : أليس من قال هذا الشعر أولى بالتقدمة فقال بلى يا سيدي ! (١)

ومن جيد ما قيل في كتمان السر قول قيس بن ذُريح :

لو ان أمرأ اخفى الهوى عن ضميره   لمت ولم يعلم بذاك ضمير
ولكن سألقى الله والنفس لم تبح   بسرك والمستخبرون كثير

ومن الشعر الموجع في الكتمان قول جماهر بن عبد الحكيم الكلبي :

قضى كلُّ ذي دين فوفى غريمه   ودَينك عند الزاهرية ما يُقضى
أكاتم في حي ظريفـــة بالتي   اذا استبصر الواشون ظنوا به بغضا
صدوداً عن الحي الذين أودهم   كأني عدوٌ لا يزور لهم ارضا
ولم يدعُ باسم الزاهرية ذاكرٌ   على آلةٍ إلا ظللنا لهـا مرضى
وما نقع الهيمان بالشرب بعدهم   ولا ذاقت العينان مذ فارقوا غمضا

وقد يتهم المرء بحب مـــن لا يحب ، فيتمنى لو تصدق التهمة ، كما قال

---

(١) وضع صاحب البدائع كتاباً خاصاً سماه «صبابة ابن الاحنف» تناول فيه بالتفصيل حياة هذا الشاعر الوجدانية ، ووازن بينه وبين ابن ابي ربيعة وابي نواس.

صاحب البدائع :

عجبت لهم أنى رموني بحبها ولامهجتي رهنٌ لديها ولا قلبي
فيا رب صدق في هواها عواذلي فان عناءً ان ألام بلا ذنب
وإلا فلا تقطع عليّ ملامهم فان ملام المرء فاتحة الحب

طرفة أدبيـة

قال بعضهم لمحبوبته :

سرّي وسرّك لا يعلم به احد إلا الإله وإلا أنتِ ثم أنا

فقالت له لا تنس القوادة ، فعندها الخبر اليقين !

قسوة التجني

أكثر الشعراء من شكوى الهجر والصدود . واكثروا القول كذلك عن قسوة التجني ، فمن ذلك قول ابن نُباتة السعدي :

يا دهر لا غفلات العيش عائدةٌ ولا الشباب الذي ابليته فيها
ان كنت تمنع سُعدى من مطالبها فلست تمنع سُعدى من تمنيها
لله نغمة أوتارٍ ومسمعةٌ باتت تدل على شوقي اغانيها
وقهوةٌ كشعاع الشمس طالعةً أفنيت بالمزج فيها ريق ساقيها
لو كنت اخضع في الدنيا لنائبةٍ خضعت من هجرها او من تجنيها
تستعذب الدمعَ عيني في محبتّها كأن ما تمريه العين من فيها

وما اجمل قول ابن الرومي :

يا عليلا جعل العلـّ ـةَ مِفتاحاً لظلمي
ليس في الارض عليلٌ غير جفنيك وجسمي

وقد كتبت الآنسة حياة فهمي كلمة عنوانها (لعن الله الحب) ونشرتها في الصباح : فأجابها الشاعر المبدع السيد حسن القاياتي بقوله :

تلوم حياةٌ على العاشقينْ رويداً ورفقاً بنا يا حياتي
جهلت الغرام فلمت الحبَّ هنيئاً لعينيك في الناعسات

ثم سأل صاحب البدائع عن رأيه في تجني هذه الفتاة . فأجابه بما نصه :

« يرى سيدي الشاعر ان الآنسة حياة جهلت الحب ، فلامت المحبين . ولو قال غير ذلك لأصاب شاكلة الصواب . لأن المرأة كالسياسي سواء بسواء . يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، والله أعلم بما يكتمون . فاذا قال السياسي

(لا) فاعلم انه يريد (نعم) واذا قال (نعم) فاعلم انه يريد (لا) واذا قالت المرأة (لا احب) فاعلم انها (تحب) واذا زعمت انها (كارهة) فاعلم انها (راضية) فان كنت في ريب من ذلك يا صديقي الاديب فاني اذكرك بقولك من قصيدة نشرتها لك في جريدة الافكار سنة ١٩١٩ :

عهد السياسة كاذبٌ   لله درُّكِ يا سَجاح !

وقد قال (تاسو) احد شعراء ايطاليا : ان المرأة تفر ، وتود ان تلحق وهي فارّة : وتأبى ، وتود في اباتها ان تُسرق . وتناضل ، وترغب ان يُظفر بها في النضال ! !

فقول الآنسة حياة « لست ممن تغلب الحب على قلوبهم » معنـــاه ان الحب صيرها باكية العين ، دامية الفؤاد ! وقولها « الحب عدو لدود للانسان ، فيجب ان يُبعد عـــن القلوب » معناه ان الحب مادة الحياة . فيجب ان تزود بـــه القلوب !

وقولها « تباعدوا عن الحب » معناه أقبلوا على الحب بسمعكم وبصركم ، أيها الشباب !

هذا يا صديقي ما تريده الآنسة حيـــاة فهمي ! فهي حين تقول « لعن الله الحب » انما تريد « حيا الله الحب » وانت بما تريد عليم !

ولا يفوتني قبل ختام هذه الكلمة ان اوجه للآنسة حياة هذا السؤال :

انك تأمريننا بأن لانحب (سمعاً وطاعة !) ولو اني سمعت هذه النصيحة قبل خمسة عشر عاماً لنجوت من الحب . ولاسترحت الآن من تسطير مدامع المشاق ، ولكنني يا مولاتي لسوء الحظ قد احببت ، وقد ضُربت بحمبتي الامثال ، واريد ان اسلم من الحب على يدك الطاهرة ، جعل الله في يمناك الشفاء ، من كل داء ، فهل لك ان تصفي لي طريق الخلاص من هذا الضلال القديم ، ومن اسماء الحب الضلال ؟

انا في انتظار الجواب !

ملحوظة — ارجو ان تحترس الآنسة حياة ، وهي تكتب أنواع العقاقير ،

من ان تنهاني عن التطلع الى العيون ، والخدود ، والثغور ، والنحور ،والنهود ، فانه لا سبيل الى مثل هذا العتاب !! وانما اريد ان اسلو وانا اعبث بأفنان الجمال ، كما يردُّ الشارب الكأس وهي تتوهج بين أنامل الساقي الجميل !!

وقد رد السيد حسن القاياتي على هذه الكلمة بخطاب شائق ولولا الرغبة في الايجاز لأمتعنا به القارىء ، ومن السهل الرجوع اليه في كتاب البدائع .

وقد حسُن التجني في قول احد الشعراء :

صدّ عني محمد بن سعيد — اجمل العالمين ثاني جيدِ

ليس من بغضة يصد ولكن — يتجنى لحسنه في الصدود

ظلم الحبيب

وفي الحب وحده يحلو الظلم ، حتى لتحكم عُليّة بنت المهدي بأن الحب بُني عليه . وتقول :

وُضع الحبُّ على الجَور فلو ... انصف المعشوق فيه لسمُجْ
ليس يستحسن في شرع الهوى ... عاشقٌ يُحسن تأليف الحُجَج

وقال النميري :

راحتي في مقـــالة العُذّالِ ... وشفائي في قيلهم بعد قالِ
لا يطيب الهوى ولا يحسن الحـ ... ـب لصبٍّ الا بخمس خصال
بسماع الاذى وعـذل نصيحٍ ... وعتابٍ وهجرةٍ وتقـال

ويعلل بعضهم جمال الظلم في الحب بقوله :

لولا اطّراد الصيد لم تكُ لذةٌ ... فتطاردي لي في الوصال قليلا
هذا الشراب اخو الحياة وماله ... من لذة حتى يصيبَ غليلا

ومثله قول الآخر :

دع الصبّ يصلى بالأذى من حبيبه ... فان الاذى ممن تُحب سرورُ
غبار قطيع الشاءِ في عين ذئبها ... اذا ما تلا آثارهنّ ذرور

وأنشد الاصمعي :

لا خير في الحب وقفاً لا تحركه ... عوامل اليأس او يقتاده الطمعُ
لو كان لي صبرها اوعندها جزعي ... لكنت املك ما آتي وما ادع
اذا دعا باسمها داعٍ ليحزنني ... كادت له شعبةٌ من مهجتي تقع
لا احمل اللوم فيها والغرام بهـــا ... ما كلف الله نفساً فوق ما تسع

ومن جيّد الشعر في ظلم الحبيب قول أبي حية النميري :

رمتني وستر الله بيني وبينها ... ونحن بأكناف الحجاز رميم
رميم التي قالت لجارات بيتها ... ضمنت لكم أن لا يزال يهيمُ
ألا ربَّ يومٍ لو رمتني رميتها ... ولكنّ عهدي بالنضال قديم
فيا عجباً من قاتلٍ لي أودّه ... أشاط دمي شخص عليّ كريم
يرى الناس أني قدسلوت وانني ... لمذنف احشاء الضلوع سقيم

وهذا الشعر غاية في رقة المعنى وجزالة الألفاظ .

وما أجمل الرفق في قول ابن الرومي :

أصبحت مملوكاً لأحسن مالك ... لو كان كمل حسنَه إسجاحه
لم يَعسنهِ أرَقي وفيه لقيتهُ ... حتى أضرَّ بقلقي إلحاحهُ
كلا ولا دمعي وفيه سفحته ... حتى أضر بوجنتي تَسفاحه
لامسّه بعقوبةٍ من ربهِ ... إقلاقه قلبي ولا إتراحه
يا ليت شعري هل يبيت مُعانقي ... ويداي من دون الوشاح وشاحه
هل انتَ مُنصف عاشقٍ متظلمٍ ... طول النحيب شكاته وصياحه
قَسَماً لقد خيّمت منك بمنزلٍ ... لي حَزنهُ ولمن سِوايَ بطاحهُ
مابال ثغرك مشرَباً لي سُكرُه ... ولمن سواي فدتك نفسي راحه
نفسي معذبةٌ به من دونه ... ويُباحه دوني ولست أباحُه

وأحب لو تأمل القارىء قول الشريف :

ولي ناظرٌ بعد بين الخليط ... مات من الدمع إنسانه
رواءٌ من الماء آماقُه ... ظِماءٌ من النوم أجفانه
فأين من الداء إفراقه (١) ... واين من القلب سُلوانهُ
فيا ظالماً طيباً ظلمُه ... كثيراً على القلب اعوانه
يباع بسومك حبُّ القلوب ... وتغلق عندك أثمانهُ (٢)

---

(١) أفرق من دائه أبرىء منه (٢) غلق الثمن : ضاع

وشرّ الاساءة من مالكٍ أساء وما نيلَ إحسانه

وقال نُوَيب :

أيا ثارات من قتلته سُعدى دمي لا تطلبوه لها حلالُ

أرقّ لها وأشفق بعد قتلي على سُعدى وإن قلّ النوال

وما جادت لنا يوماً ببذل يمينٌ من سعادَ ولا شمال

ونوَيب هذا هو الذي يقول:

ألا في سبيل الله نفسٌ تقسّمت شعاعاً وقلب للحسان صديقُ

أفاقت قلوبٌ كن عذّبن بالهوى زماناً وقلبي ما أراه يُفيق

عصيت بك الناهين حتى لو أنني أموت لما أرعى عليّ شفيق

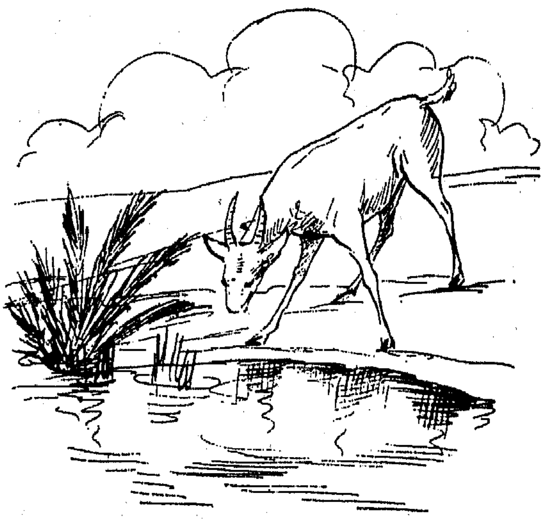

قساة القلوب

والعشاق يرمون اهل الحسن بقسوة القلب ، وغلظ الكبد ، ويحسب ابن الأحنف ان قلوب الحسان قُدّت من الصخر . فيقول :

اظن وما جربت مثلك انما قلوب نساءِ العالمين صُخور
ذريني أنم إن لم أنل منك زَوْرةً لعلّ خيالاً في المنام يزور
بكيت إلى سِرب القطا حين مرّ بي فقلت ومثلي بالبكاء جديرُ
أسرب القطا هل من يعير جناحه لعلي إلى من قد هويت اطير

وقد نظر المرحوم اسماعيل باشا صبري إلى استعارة الجناح فقال :

يا سرحة بجوار الماء ناضرةً سقاكِ دمعيَ ان لم يوفِ ساقيكِ
عارٌ عليك وهذا الظل منتشرٌ فتكُ الهجير بمثلي في نواحيك
هل من مُعيري جناحَيْ طائرٍ غردٍ كي اقطع العمر شدواً في أعاليك
فلا أُنفّر عن أرض غُرستِ بها ولا يرنّ بسمعي غير واديك

ومن المحبين من يصف قلب محبوبته بالطمأنينة والهدوء ، في حين ان قلبه يتلظى على جمر الصدود . كما قال بشار (١) :

أيها الساقيان صُبّا شرابي واسقياني من ريق بيضاء رودِ
إن دائي الصدى وإن دوائي شربةٌ من رُضاب ثغرٍ برودِ
ولها مبسمٌ كغرّ الاقاحي وحديثٌ كالوشي وشي البرودِ

---

(١) في كتاب البدائع بحث شائق عن ظلم العواطف ، فارجع اليه لترى ما صنع الدهر بشعر بشار .

نزلت في السواد من حبة القلـ ـب ونالت زيادة المستزيد
ثم قالت نلقاك بعد ليالٍ والليالي يبلين كل جديد
عندها الصبر عن لقاي وعندي زفرات يأكلن قلب الحديد

وما أظرف قول ابي نواس في معشوقته جنان :

جِنان تسبني ذكرت بخيرٍ وتزعم انني رجل خبيث
وأن مودتي كذب ومين واني للذي اهوى نثوث
وليس كذا ولا رد عليها ولكن الملول هو النكوث
ولي قلب ينازعني اليها وشوق بين اضلاعي حثيث
رأت كلفي بها ودوام عهدي فملتني كذا كان الحديث

وأبدع ما قيل في قسوة قلب الجميل قول خالد الكاتب :

ليت ما اصبح مِن رقة خديك بقلبك

ولقساة القلوب يقول صاحب البدائع :

لقد صددنا كما صددتم فهل ندمتم كما ندمنا
وشفنا الوجد مذ جفوتم فأظهر الدمع ما كتمنا
وهبت روحي وقلت عطفاً فما عطفتم وما رجعنا
ملكتموها وما وصلتم لقد غنمتم وما غنمنا
وماازددت خوفاً على فؤادي إلا وزدتم رضىً وأمنا
وما رجائي وقد قويتم على جفائي وزدت وهنا
قتلت نفسي على جفاكم وما قرعتم عليّ سنّا
لهفي على السالف المفدّى لو كان يجدي الفدا لجدنا
فما ذكرنا الذي تقضّى إلا على حسنه انتحبنا

●

لو كنت اشكو الهوى لصخر لحنّ وجداً وأنّ حزنا
وذاب من هول ما أراه فقد برانا الهوى وذبنا
ن كان ذنب فساعونا ويشهد الله ما أسأنا

وصاحب البدائع هو الذي يقول:

أيها الظالمُ الجميلُ سلامٌ ... من أسير قيّدْته بجفاكا
كيف اصليتني من الهجر ناراً ... وحرمت العيون من أن تراكا
ليت من شاء ان يطول أساتا ... في سبيل الهوى اطال اساكا
سوف انجو من الغرام واغدو ... مُطلق النفس من قيود هواكا
فاسقني المرّ من صدودك واحكم ... جائر الحكم في ظلال صِباكا

وقد حسب بعض الناقدين ان في هذا الشعر نذيراً بنقض العهد ، وجحود الود ، وليس الأمر كما يحسبون ، وانما هي صورة لحالة من حالات النفس ، حين يثور الوجد ، ويتمنى المحب ليأسه لو افلت من اشراك هواه ، وهيهات هيهات!

سيف الفراق

نتكلم في هذا الحديث عن وصف الشعراء لفتك الفراق بالنفوس وقتله للقلوب ، فمنهم من يذكر تعثره في الطريق ، وضلاله عن القصد ، بعد فراق من يحب ، كما قال بعض الاعراب :

وما وجد مغلوبٍ بصنعاءَ موثقٍ ... بساقيْه من ثقل الحديد كبُولُ
ضعيف الموالي مُسلمٌ بجريرةٍ ... له بعد نومات العيون عويل
يقول له الجلاد أنت معذبٌ ... غداةَ غدٍ أو مُسلمٌ فقتيل
بأوجعَ مني لوعةً يوم راعني ... فراق حبيبٍ ما اليه سبيل
غداةَ أسيرُ القصد ثم تردُّني ... عن القصد لوعات الهوى فأميل

وهذه القطعة من غرر الشعر ، وهي آية في وصف الحيرة يرمى بها المحب المشوق ، بعد فراق لا يُرجى ان يعقبه لقاء . وتأمل كيف شبه حاله بحال مغلوب كبّل بالحديد ، في جريرة لا يغني في دفعها ضعف مواليه ، وقد اصبح موضع النذير من الجلاد في كل صباح ومساء ، وحسب الفراق ان يرمى المحب في مثل هذه الحال !

وانشد الجاحظ :

أزف البين المبين ... قطع الشكّ اليقين
حنّت العيش فأبكا ... ني من العيش الحنينُ
لم أكن لاكنت أدري ... ان ذا البين يكون
علموني كيف اشتا ... قُ إذا خفّ القطين

وكان أستاذنا الشيخ سيد المرصفي يسخر ممن يقول :

وأنا بكيت من الفرا ق فهل بكيت كما بكيت
ولطمت خدي خالياً ومرسته حتى اشتفيت
وعواذلي ينهينني عمّن هَويت فما انتهيت

وانا احسب ان البكاء ولطم الخدود اهون ما يجري بعد الفراق ، ويا ويلتاه من الفراق !

وما اصدق من يقول :

أمُزمعةٌ ليلى ببينٍ ولم تَمُتْ كأنك عمّا قد اظلكَ غافلُ
ستعلم إن شطّت بهم غربة النوى وزالوا بليلى ان قلبك زائل

ومن المتيمين من يشجيه ان يقاسي احبابه متاعب السفر، ومشاق السُّرى، ومصاعب الادلاج . ثم يرجع إلى نفسه فيتوجّع لحاله بعد الفراق . كقول ابي تمام :

لو كان في البين إذ بانوا لهم دعةٌ لكان بينهم مــن اعظم الضررِ
فكيف والبين موصولٌ به تعبٌ تكلف البيد في الادلاج والبُكر
لو ان ما يبتليني الحادثات به يكون بالماء لم يُشرب من الكدَر
او كان بالعيس مابي يوم رحلتهم اعيتْ على السائق الحادي فلم تسِر
كأن ايدي مطاياهم إذا وَخدَتْ يقعن في حُر وجهي او على بصري

وهذا شعر يُذيب لفائف القلوب ... وقال بعض المعذبين

قد قلت والعبرات تسـ فحها على الخد المآقي
حين انحدرت الى الجزيـ رة وانقطعت عن العراقِ
يا بؤس من سلّ الزمـا نُ عليـه سيفاً للفراق

إي والله:

يا بُؤسَ من سلّ الزمـا نُ عليـه سيفاً للفراق

إنه لا محالة مقتول !

وقد يلوم المحب نفسه على فراق احبابه ، كالذي يقول :

أتظعن عـن حبيبك ثم تبكي عليه فمن دعـاك الى الفراقِ
كأنك لم تذق للبـين طعما فتعلم انه مر المذاق

اقم وانعم بطول القرب منه ولا تظعن فتكبَت باشتياق
فما اعتاض المفارق من حبيب ولو يعطى الشآم مع العراق

ومثله من يقول :

تطوى المراحل عن حبيبك دائباً وتظل تبكيه بدمع ساجم
كذبتك نفسك لست من اهل الهوى تشكو الفراق وانت عين الظالم
هلاّ اقمت ولو على جمر الغضى قلّبتَ او حدّ الحسام الصارم

وما أوجع ما قالته احدى النساء :

وكنا كغصني بانةٍ وسطَ روضةٍ نشم شذا الأزهار في عيشةٍ رغدِ
فأفرد هذا الغصن من ذاك قاطعٌ فيا فردة بانت تحنُّ الى فرد

ولهذين البيتين قصة محزنة يضيق عن ذكرها المجال

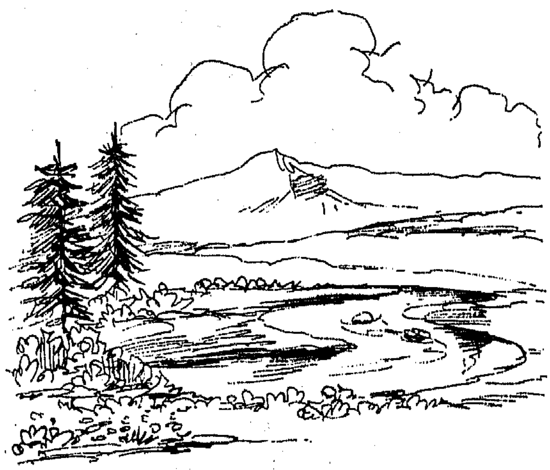

الهرب من الفراق

وإذا كان ما تقدم هو حـــال المحبين يوم الفراق ، فليس ببدع ان يهرب البحتري من منظر الوداع ، وان يظرف حين يقول :

الله جارك في انطلاقِكْ   تِلقاءَ شامِكَ او عِراقِكْ
لا تعذُلنّي في مسيـ   ـركَ يومَ سِرتَ ولم أُلاقِكْ
اني خشيت مواقفاً   للبين تسفح غربَ ماقِكْ
وعلمت ما يلقى المتيَّـ   ـمُ عند ضمّك واعتناقك
وعلمت ان لقاءنا   سبب اشتياقي واشتياقك
فتركت ذاك تعمُّداً   وخرجت اهرب من فِراقك

وفي مقابل هذا المعنى يقول العباس بن الاحنف وقد حُرم توديع من يحب :

كفى حَزناً اني بقيت وليس لي   سبيلٌ الى توديـــعكم فأودّعُ
تلفتُّ خلفي حيث لم تبق حيلةٌ   وذوّدت عيني نظرةً وهي تدَمع

غراب البين

اكثر العرب من ذكر الغراب ، والتشاؤم من منظره ، حتى ليقولون :

رأيت غراباً ساقطاً فوق بانةٍ ينتّفُ اعلى ريشه ويطايرُهُ
فقلت ولو اني اشاء زجرته بنفسيَ للنهديِّ هل انت زاجرُه
فقال غرابٌ لاغترابٍ من النوى وفي البان بينٌ من حبيب تجاوره
فما اعيَف النهديّ لا درّ درُّه وازجره للطير لا عزّ ناصره

ومن الشعراء من استخف بهذه الخرافة ، وسخر من المتطيرين ورأى ان الإبل هي التي تفرق الاحباب . كقول ابي الشيص :

ما فرّق الاحباب بعـ ـد الله الا الإبلُ
والناس يلحون غرا ب البين لمّا جهلوا
وما علی ظهر غرا ب البينُ تطوى الرّحل
ولا اذا صاح غرا بٌ في الديار احتملوا
وما غراب البين الا ناقةٌ او جمل

ومنهم من لا يجيز ذم المطيّ ، لأن لها صلة بمن يحب . كالذي يقول :

زعموا بأن مطيهم عون النوى والمؤذنات بفرقة الاحباب
ولو انها حتفي لما ابغضتها ولها بهم سببٌ من الاسباب

فقد العزاء

وقد يعنف الهوى ويقسو ، حتى يذهب بجميل الصبر ، وحميد العزاء ، فمن العشاق من يفقد اصطباره عند الوداع . كقول ابن نُباتة السعدي :

كيف العزاءُ وأين بابُـهُ ... والحيُّ قد خفت ركابُـهُ
بأغرَّ منتقبٍ ينمُّ ... على محاسنِه نقابُه
متأوِّدٍ حُـلو الشمائلِ ... من أساوره حِقابُه (١)
زعم المخبّر انـه ... ضُربتْ على سلعٍ قبابه
فطلبتهُ كالأيم أو ... كالسيل في الليل انسيابـه
فإذا أحـمُّ المقلتيـ ... ـن يشين أنمله خِضابه
يهتزُّ مثل السمهريِّ ... تدافعت فيه كِعابُه
وقف الولائد دونه ... كالقلب يستره حجابُه
أقبلت أسأله وأعـ ... ـلم ان حرماني جوابه
ويلي عـلى متلوِّن الـ ... ـأخلاق يعجبُه شبابه
لا رُسلُهُ تترى اليـ ... ـنا بالسلام ولا كتابـه

وأحب ان يتأمل القارىء هذه القصيدة البديعة ، وان يتنبه إلى دقة الوصف في جميع ما عرض الشاعر له . وعلى الاخص تلون الاخلاق ، والزهو بالشباب ، في أرباب الجمال !! وقال الشريف :

ورامين وهناً بالجمار وانما ... رمَوا بين أحشاء المحبين بالجمر
رمَوا لا يبالون الحشا وترَوَّحوا ... خليين والرامي يصيبُ ولا يدري
وقالوا غداً ميعادنا النفْر عن مِنىً ... وما سرني ان اللقاء مـع النفرِ

(١) الحقاب ما تشده المرأة في وسطها وتعلق به الحلي

ويا بؤس للقرب الذي لا نذوقه	سوى ساعة ثم البعاد مدى الدهر
فيا صاحبي ان تعطَ صبراً فانني	نزعت يديّ اليوم من طاعة الصبر
وإن كنت لم تدر البكا قبل هذه	فميعاد دمع العين منقلبُ السَّفرِ

وقد يستولي الحزن على القلب ، ويتغلغل في سويدائه ، حتى ييأس المحب من صلاحية فؤاده للسرور ، لو رجعت أسبابه ، كما قال بعض الشعراء :

كم استراح إلى صبرٍ فلم يُرَحِ	صبٌّ اليكم من الأشواق في تَرحِ
تركتمُ قلبهُ من حزن فرقتكم	لو يرزق الوصل لم يقدر على الفرَح

وقال خالد الكاتب يفضل اللوعة على العزاء :

عاتبت نفسي في هوا	كَ فلم اجدها تقبل
واطعت داعيها الي	كَ فلم أطعْ من يعذل
لا والذي جعل الوجو	ه لحسن وجهك تمثُّلُ
لا قلتُ إن الصبر عن	كَ من التصابي اجمل

وقال اسحق الموصلي في ذهاب الوداع بالصبر الجميل :

تقضّتْ لُبانات وجدّ رحيلُ	ولم يُشفَ من أهل الصفاء غليل
ومُدّت أكفٌ للوداع فصافحت	وفاضت عيونٌ للفراق تسيل
ولا بدّ للالاّف من فيض عَبرَةٍ	إذا ما خليلٌ بان عنهُ خليلُ
فكم من دمٍ قد طُلّ يوم تحمّلت	أوانسُ لا يودَى لهنّ قتيلُ
غداة جعلت الصبر شيئاً نسيتهُ	وأعولتُ لو أجدى عليّ عويلُ
ولم أنس منها نظرةً هاج لي بها	هوًى منه بادٍ ظاهرٌ ودخيل
كما نظرت حوراءُ في ظلّ سِدرةٍ	دعاها إلى ظلّ الكِناس مقيل

وابن زيدون يجعل صبره عن حبيبه كصبر الظماء عن الماء ، فيقول :

اليك من الأنام غدا ارتياحي	وانت من الزمان مدى اقتراحي
وما اعترضت هموم النفس إلا	ومن ذكراك ريحاني وراحي
فديتك ان صبري عنك صبري	لدى عَطشي عن الماء القَراحِ
ولي أملٌ لو الواشون كفّوا	لأطلع غرسهُ ثمر النجاح

واعجبُ كيف يغلبني عدوٌّ رضاك عليه من أمضى سلاحي
فؤادي من أسىً بكَ غير خالٍ وقلبي من هوًى لك غير صاحي
فلو أستطيع طرت اليك شوقاً وكيف يطير مقصوس الجنــاح

ويأسى ابن الدمينة على ان لم يُغنه القرب ، ولم يسله البعد ، فيقول :

وقــد زعموا ان المحب إذا دنا يملُّ وان النأي يشفي من الوجدِ
بكلٍّ تداوينا فلم يشفَ ما بنا على ذاك قرب الدار خير من البعد
على ان قرب الدار ليس بنـافعٍ إذا كان من تهواه ليس بذي عهدِ

وأوجع الشعر في فقد العزاء قول بعض الاعراب :

فيا ربّ إن اهلكْ ولم تروهامتي بليلى امتْ لا قبراعطشُ من قبري
وإن أكُ عن ليلى سلوت فانما تسليت عن يأس ولم أسْل عن صبر
وان يكُ عــن ليلى غنىً وتجلد فربغنىنفسٍ قريب من الفقر

بكاء الشباب

ولعل اشجى ما يمر بخاطر المرء ان يهجره الغيد بعد انصرام الشباب، والشباب هو شفيع الفتى الى قلوب الحسان، فاذا مضى فقد اصبح بلا شفيع، والويل للمفرد المغلوب!

من اجل ذلك تفنن الشعراء، في بكاء الشباب، والتنكر المشيب. فمنهم من تبيضُّ في رأسه شعرة واحدة، فلا يراها قليلة، لأن قذى العين غير قليل، كما قال ابن الرومي:

طرَفت عيون الغانيات وربما أمالت إليَّ الطرفَ كلَّ مميلِ
وما شبت إلا شيبةً غير انه قليل قذاه العين غــير قليل

وابن الرومي يكثر البكاء على شبابه، ويعلل نفسه احياناً بأن الشيب في الرأس كالنورْ على الغصن. ويأسى كثيراً لاحتياجه الى الخضاب، الذي يراه اشبه بسواد الحداد، ويكاد يصرخ من خروجه الى الحسان في شَعر ميّت، وقلبٍ حي، والمحب يتفجر قلبه دائماً بالحياة! وانظر كيف يقول:

شاب رأسي ولات حــين مشيب وعجيب الزمان غير عجيب
قــد يشيب الفتى وليس عجيباً ان يُرى النورُ في القضيب الرطيب
ساءها ان رأت حبيباً اليها ضاحك الرأس عن مفارق شيب
يا حليف الخضاب لا تخدع النفـ ـس فــما انت للصبى بنسيبِ
ليس يُجدي الخضاب شيئاً من النفـ ـعِ سوى انه حــدادُ كئيب
لهفَ نفسي على القناع الذي مَحّ وأعقبتُ منه شرَّ عقيب (١)
منع العــين ان تقرّ وقرّتْ عين واشٍ بنا وعــين رقيب

(١) مح القناع بلى. والعقيب البديل.

شَعَرٌ ميّتٌ لذي وطرٍ حيٍّ كنار الحريق ذات اللهيبِ
ظلمتني الخـطوب حتى كأني ليس بيني وبينها من حسيبِ

وما أروع قوله في السُّخر من الخضاب :

رأيت خِضاب المرء عند مشيبه حداداً على شرخ الشبيبة يُلبَسُ
وإلا فما يغزو امرؤٌ بخضابه أيطمع أن يخفى شبابٌ مُدَلّسُ
وكيف بأن يخفى المشيب لخاضبٍ وكلّ ثلاثٍ صبحهُ يتنفسُ
وهَبهُ يواري شيبهُ أين ماؤهُ وأين أديمٌ للشبيبة أملسُ

وقال اشجع السلمي يوصي بانتهاب اللذات ، قبل ان يقف في سبيلها الهَرَم والمشيب :

ومـاليَ لا أعطي الشباب نصيبه وغصناه يهتزّانِ في عوده الرطبِ
رأيت الليالي ينتهبن شبيبتي فأسرعت باللذات في ذلك النهْب
رأيت بنات الدهر يخلِسْن لذتي لقد حزن سلمى وانتهين إلى حربي
وقد حوّلت حالي الليالي وأسرَجت على الرأس امثال الفتيل من العطبِ
وموت الفتى خيرٌ له من حياته إذا كان ذا حالين يصبو ولا يُصبي

وقال آخر في صدوف النساء عن صَرعى المشيبِ :

هل الأدم كالآرام والدهر كالدُّمى مُعاودتي أيامهنّ الصوالحُ
زمانَ سلاحي بينهن شبيبتي لها سائقٌ مـن حسنهنّ ورامح
وأقسمنَ لا يسقينني قَطر مُذنةٍ لشيبي ولو سالت بهنّ الاباطح

وكان استاذنا المرحوم فقيد اللغة والأدب الشيخ محمـد المهدي بك كثير الإعجاب بقول أبي منصور النميري في الجزع على شبابه المفقود :

ما تنقضي حسرةٌ مني ولا جَزَعُ إذا ذكرت شبابـاً ليس يرتجعُ
بان الشباب ونابتني بفرقته خُطوب دهرٍ وايام لهـا خِدَع
ما كنت أوفي شبابي كنه قيمته حتى انقضى فاذا الدنيا له تبَع
تعجبتْ ان رأت أسراب دمعته في حلبة الخد أجراها حشاً وجع
اصبحت لم تطعمي ثكل الشباب ولم تشجَيْ بغصته والعـذر لا يقع

لا ألحينّ فتاتي غير كاذبةٍ   عينَ الكذوب فما في ودكم طمعُ
ما بالشبيبة من وانٍ وإن رفعت   إلا لها نبوةٌ عنه ومرتدعُ
إني لمعترفٌ مـا فيَّ من أربٍ   عند الحسان فما في النفس منخَدع
قد كدت تقضي على فوت الشباب أسى   لولا اعزيـك إن الامر منقطع

ويذكرون ان الرشيد سمع هذا الشعر ، وبكى له ، وأنشد :

أتأمل رجعة الدنيا سِفاهـاً   وقد صار الشباب الى ذهابِ
فليت الباكيات بكل ارضٍ   جُمعنَ لنا فَننُحن على الشبابِ

ومن التعليل الكاذب قول البحتري في مدح المشيب :

عذلتـنا في عشقها أم عمروٍ   هل سمعتم بالعـاذل المعشوق
ورأت لمةً ألمّ بها الشيـ   ـب فريعت من ظلمة في شروقِ
ولعمري لولا الاقاحي لأبصر   تَ انيق الرياض غير انيق
وسواد العيون لو لم يجـاورْ   هُ بياضٌ ما كان بالموموق
ومزاج الصهباء بالمـاء املى   بصبوح مُستَحسنٍ وغبوق
أيُّ ليلٍ يَبهى بغير نجومٍ   او سحاب يَندى بغير بروق

لكن ماذا يصنع الاشيب ، إن لم يغالط الحسان بهذه المعاذير ؟!

بلايا الغيرة

نذكر هنا ما جرى في سبيل الغيرة من الدموع . ونتقدم ذلك بقول بعض الاندلسيين وقد قبّل من يهواه :

يا ربّ إن قدّرته لمقبّلٍ غيري فللمسواك او للاكؤسِ
وإذا قضيت لنا بصحبة ثالثٍ يا رب فليكُ شمعة في المجلس
وإذا حكمت لنا بعين مراقبٍ يارب فليكُ من عيون النرجس

ألست ترى الرعب وقد استولى على هذا الشاعر من ان ينعم بحبيبه سواه ، فجعل يتمنى ، لو تنفع الاماني ، ان لا يراقبهم غير النرجس ، وان لا يصحبهم غير الشمعة ، وان لا يقبّل محبوبه غير الكأس او المسواك ؟ !

وقد جُن العرب بالغيرة جنوناً : فتخيلوا غسان بن جهضم ينشد زوجه من عالم الارواح ، وقد زُفت إلى غيره بعد موته بقليل :

غدرتِ ولم ترعَيْ لبعلك حُرمةً ولم تعرفي حقاً ولم تحفظي عهدا
ولم تصبري حولاً حفاظاً لصاحب حلفتِ له يوماً ولم تنجزي وعدا
غدرت به لما ثوى في ضريحه كذلك ينسى كل من سكن اللحدا

وتخيل رواة العرب ان موسى الهادي جاء إلى جاريته (غادر) وقد اقبلت من بعده على اخيه هرون فأنشدها وهي نائمة هذه الابيات :

أخلفتِ عهدي بعد ما جاورتُ سكان المقابرْ
ونكحتِ غادرةً اخي صدق الذي سماك غادر
لا يَهنِكِ الإلف الجديـ ـدُ ولا تدر عنك الدوائر
ولحقتِ بي قبل الصبا ح وصرت حيث غدوت صائر

بعد هذا التمهيد يستطيع القارىء ان يدرك لِمَ حملت الغيرة عبد السلام بن رغبان على قتل غلامه وجاريته !! وحديث هذا الشاعر عجيب : فقد ذكروا انه اشترى غلاماً وجارية ، ثم شغفاه حباً ، فكان يجلس للشراب والجارية عن يمينه والغلام عن شماله !! ثم خشي ان يموت قبلهما فينعم غيره بما لهما من روعة وجمال : فذبحهما واحرقهما وصنع من ترابهما آنيتين للشراب !!

وكان ينشد حين يشرب من الآنية التي صنعها من تراب الغلام هذه القطعة الباكية :

اشفقتُ انيردَ الزمان بغدره	او أُبتلى بعد الوصال بهجره
قمرٌ قداستخرجته من دَجنه	لبليتي واثرتهُ مـــن خِدره
فقتلته وله عــليَّ كرامةٌ	فله الحشا وله الفؤاد بأسره
عهدي به ميْتاً كأحسن نائمٍ	والحزن يسفح مدمعي في نحره
لو كان يدري الميْتُ ماذابعدهُ	بالحيِّ منهُ بكى له في قبره
غُصصٌ تكادتفيض منهانفسه	ويكاد يخرج قلبه من صدره

ثم ينشد حين يشرب من الآنية التي صنعها من تراب الجارية هذه القطعة التي يندر ان نجد احر منها في الرثاء:

يا طلعةً طلع الحمام عليها	فجنى لها ثمرَ الردى بيديها
حكمت سيفي في مجال خِناقها	ومدامعي تجري على خدَّيها
روَّيت من دمها الثرى ولطالما	روَّى الهوى شفتيَّ من شفتيها
فوحقِّ نعليها وماوطىء الثرى	شيءٌ أعزُّ عليَّ من نعليها
ما كان قتليها لأني لم اكن	أبكي إذا سقط الذباب عليها
لكن بخلت على الوجود بحسنها	وأنِفْت من نظر العيون اليها

ولعل الظلم لم يرزق حجةً اقوى من هذه الحجة ، ولا برهاناً اسطع من هذا البرهان !! وكانت السيدة سكينة تعيب على جرير قوله:

طرقتكَ صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعي بسلام

وكانت تقول : قاتله الله ما اقساه : هلا قال : ادخلي بسلام !

فلو سمعت السيدة سكينة بهذا الحب السفاح لطال بكاؤها على صرعى الغيرة ، وقتلى الاشفاق !! ولئن كان الجنون فنوناً كما يقولون ، فهذا ورب الكعبة اغرب فنون الجنون! وكنا نود لو حدثنا التاريخ عن اثر هذه الاعجوبة في انفس من عاصروا ابن رغبان لنعرف رأيهم في الجناية على الجمال ! ألم يكفهم ان الحسن حال تحول ، ودولة تدول ، حتى تسوق غيرتهم اليه الفناء ؟ وبعد فقد سمي عبد السلام بن رغبان هذا « ديك الجن » وانه في فعلته هذه لشيطان مريد !!

هذا ، ومن الشعراء من يغار من عود البَشام حين يَستاك به الحبيب ، ومن العقد يطوّق به الجيد ، ومن النقاب يحجب به الوجه الجميل ، كما قال الشريف :

يا غزال الجزع لو كا نَ علي الجزعِ لِمام
أحسد الطوق على جِيـ ـدِكَ والطوق لِزامُ
وأعضُّ الكفَّ إن نا لَ ثناياك البَشام
وأغار اليومَ إن مرَّ على فيك اللثام

ومنهم من يغار من قميص حبيبه ، كما قال خالد الكاتب :

محبكَ شفَّهُ ألمٌ وخامرَ جسمَهُ سقَمهُ
وباح بما يُجمجمُهُ من الاسرار مكتتَمُهُ
أما ترثي لمكتئبٍ يحبك لحمه ودمه
يغار على قميصك حيـ ـن تلبسهُ ويتهمه

وكما قال بعض الاعراب :

ارى القميص على ليلى فأحسده
ان القميص على ما ضمَّ محسود

ومنهم من يغار على اسم محبوبه ، فيكنى عنه ، لئلا تتمتع به الآذان ، كما قال البها زهير :

وأُنزه اسمك ان تمرَّ حروُفه
من غيرتي بمسامع الجُلاسِ
فأقول بعض الناس عنك كنايةً
خوف الوُشاةِ وانت كل الناس

وقد يغار المحب على حبيبه من نفسه ، كما قال ابو تمام :

بنفسي من اغار عليه مني وتحسد مقلتي نظري اليه
ولو اني َقدَرت طمست عنه عيون الناس من حذري عليه
حبيبٌ بثَّ في قلبي هواهُ وامسك مهجتي رهناً لديه
فروحي عندهُ والجسم خالٍ بلا روحٍ وقلبي في يدَيهِ

الاستعطاف

نذكر هنا حيل العشاق في لفت أنظار الاحباب اليهم ، وتوجيه أفكارهم نحوهم ، حتى ينالوا طِلبتهم من القرب ، وبغيتهم من الوصل ، ولذلك حالات : فمن العشاق من يقبّح لحبيبه المطل والخلف ، حتى يبرّ بوعده ، ويفي بعهده . كقول ابن الأحنف :

كأنْ لم يكن بيني وبينكم هوًى ولم يك موصولاً بحبلكم حبلي
وإني لأستحيي لكم من محدّثٍ يحدث عنكم بالملالة والمطلِ

وكقول الطغرائي :

ويا جيرتي بالجزع جسميَ بعدكم نحيلٌ وطرفي بالسهاد كليلُ
عهدت بكم غصن الشبيبة مورقاً فخان وخنتم والوفاء قليل
وأودعتكم قلبي فلما طلبته مطلتم وشر الغارمين مَطول
فإن عدتمُ يوماً تريدون مهجتي تمنّعت إلا أن يقام كفيل

ومن المتيمين من يُحرم كل شيء حتى الوعد فتراه لا يطلب الوفاء ولا يقبّح الإخلاف ، وإنما يرجو وعداً يجلو به كربة قلبه ، ويطفىء به نار جواه ، لو تغني الوعود !

وما أزال ألمح في عالم الخيال مجنون بني عامر ، وقد صادف في توحشه حي ليلى ، ولقيها فجأة فعرفها وعرفته ، فصعق وخر مغشياً عليه ، واقبل فتيان من حي ليلى فأخذوه ، ومسحوا التراب عن وجهه واسندوه إلى صدورهم ، وسألوا ان تقف له وقفة ! فرقت لما رأته وقالت اما هذا فلا يجوز ان افتضح به ثم قالت لجاريتها : اذهبي الى قيس فقولي له : ليلى تقرأ عليك السلام ،وتقول لك أعززْ علي بما انت فيه ! ولو وجدت سبيلا إلى شفاء دائك لوقيتك بنفسي !

فمضت الوليدة اليه واخبرته بقولها فأفاق وجلس ، وقال : أبلغيها السلام ،وقولي لها هيهات هيهات ! إن دائي ودوائي انت ، وان حياتي ووفاتي لفي يديك ، ولقد وكلتِ بي شقاءً لازماً وبلاءً طويلا ، ثم بكى ، وانشأ يقول :

أقول لأصحابي هي الشمس ضوؤها	قريبٌ ولكن في تناولهـــا بُعدُ
لقد عارضتنا الريح منهـا بنفحةٍ	على كبدي من طيب ارواحها بَرد
فما زلت مغشياً عليَّ وقد مضت	أناةٌ وما عندي جواب ولا ردُّ
أقلَّب بالأيدي واهلي بودهم	يُفدُّونني لو يستطيعون ان يَفْدوا
ولم يبق إلا الجلد والعظم عارياً	ولا عظم لي إن دام مابي ولا جلد
أدنايَ ما لي في انقطاعي ورغبتي	اليك ثوابٌ منك دَيْنٌ ولا نقد
عِديني بنفسي انت وعـــداً فربما	جلا كربة المكروب عن قلبه الوعد
غزتني جنود الحب من كل جانب	إذا حان من جُند قفول اتى جند

والبيت الاخير اعجوبة من اعاجيب الخـــيال ، فما زال المحبون صرعى مساكين ، إن قفلت عنهم جنود الخدود ، غزتهم جنود العيون ويرحم الله مـــن تألبت عليه جنود الحب جميعاً حتى ذهبت بلبه ، ولم يبق إلا ان تنكسر النصال على النصال !

وقد يستعطف المتيم المحزون ولكنه لا يطلب وعداً يطارد بـــه جيوش الاحزان ، ولا يرجو الوفاء بوعد كأن يهتدي به في ظلمات الشجون ، وانما يُلمّح وقد يكونُ التلميح ، ابلغ من التصريح . فيذكر ان الحسن يحدق به مـــن كل جانب ، ولكنه لا يصبو ولا يميل لأنه بمن يحب مشغول . وانظر قول الابيوردي في هذا المعنى البديع :

وقتكِ الردى بيضٌ حسانٌ وجوهها	ومثريةٌ من نضرة وجمال
طلعن بدوراً في دجىً من ذوائب	ومِسْن غصوناً في متون رمالِ
أرى نظرات الصب يعثرن دونها	بأعراف جُردٍ او رءوس عوال
عرضن عـــليَّ الوصل والقلب كله	لديك فانى يبتغين وصالي
ولولاك ما بعت العراق واهـــله	بوادي الحمى والمندليَّ بضال

فما لنساء الحيّ يضمرن غيرةً سبتها العوالي ما لهن وما لي
ولو خالفتني في متابعة الهوى يميني ما واصلتها بشمالي
وفيكِ صدودٌ من دلالٍ اظنه على ما حكى الواشي صدود ملال

وقد يتمنى المحب ان يمرض ليعوده الحبيب . واليك قول ابن الخياط :

احنُّ الى سقمي لعلك عائدي ومن كلفٍ اني احنُّ الى السقم
وحتامَ أستشفي من الداء ما به سقامي واستروي من الدمع مايظمي
فراقٌ اتى في إثرِ هجرٍ وما اذىً بأوجعَ من كلم اصاب على كلمِ

مسكين هذا المحب ، يتمنى المرض ليعاد ، فهل يعلم ان من المحبين من اشقاه المرض ، فلم يسعده العُوّاد . وهل اتاه حديث ابن الاحنف وقد لجّ به المرض فأخذ يهذي بهذا الشعر الباكي الحزين :

اهابكِ ان اشكو اليك وليس لي يدٌ بالذي القى واخفى من الوجد
واني لصادي الجوف والماء حاضرٌ اراه ولكن لا سبيل الى الورْدِ
وما كنت اخشى ان تكون منيتي بكف اخص الناس كلهم عندي

وهل وصلت اليه تلك الوصية البديعة التي بعث بها ابن الاحنف الى حُجاج البيت الحرام وقد توقع ان يمروا بدار هواه ؟

انظر الى ذلك العليل ، وقد خفي الداء ، وتعذر الشفاء ، وكلما عُصر الماء في فيه مجه ، كما يفعل الطفل الغرير ، وقد ذهبت العلة بجمال نظراته ، وسحر بسماته ، وان نودي لم يجب بغير الانين ، انظر اليه وقد تمنى جرعة مُزجتْ بريق حبيبته يحملها اليه الحجاج في زجاجة ! ولو امكن ان تنقل اليه النظرة ، لرجاهم ان يحملوا اليه نظرة ، ولو خلق الفنوغراف في ذلك الحين لرجاهم ان ينقلوا اليه نغمة من نغماتها العِذاب ! ولو مهر المصورون إذ ذاك لكلفهم ان يصوروا مِشيتها الفتانة في الضحى والاصيل ! انظر اليه وهو يرجوهم ان يتعللوا عند اهله فيذكروا ان تلك الجرعة العذبة انما هي من ماء زمزم ! ويحك ، واين ماء زمزم الملح الاجاج ، من ماء ذلك الثغر العذب الفرات ؟ انظر اليه وقد اوصاهم ان يرشوا ريق من يهوى على وجهه ، فان صادفوه ميتاً فليرشوه على

قبره ! انظر كيف يقول :

ازوِّارَ بيت الله مُرورا بيثرب … لحاجة متبول الفؤاد كئيب
وقولوا لهم يا اهل يثرب أسعدوا … على جلب للحادثات جليبِ
فإنا تركنا بالعراق اخا هوًى … تنشّب رهنا في حبال شَعُوبِ
به سَقمٌ اعيا المداوين عـلمه … سوى ظنهم من مخطىءٍ ومصيب
إذا ما عصرنا الماء في فيه مجّه … وان نحن نادينا فغير مجيب
خذوا لي مَنها جرعة في زجاجة … ألا انهـا لو تعلمون طبيبي
وسيروا فان ادركتم بي حُشاشةً … لها في نواحي الصدر وجس دبيب
فرشّوا على وجهي افق من بليتي … يثيبكم ذو العرش خير مثيب
فان قال اهلي ما الذي جئتم به … وقد يحسن التعليل كل اريب
فقولوا لهم جئناه من ماء زمزم … لنشفيَه من دائه بذَنوب
وان انتم جئتم وقد حيل بينكم … وبيني بيومٍ للمنون عصيب
وصرت من الدنيا الى قعر حفرةٍ … حليفَ صفيحٍ مطبق وكثيب
فرشوا على قبري من الماء واندبوا … قتيل كعَاب لا قتيل حروب

وكان ابن الاحنف هذا يستعطف فلا يرجو شيئاً ، ولا يخاف شيئاً ، وكل مناه ان يعلم فاتنوه انه يحبهم ، وان يسمعوا صوت ما يجد ، وانه لمطلب زهيد ، ولكنه قد يصبح صعب المنال ، وانظر هذه الابيات التي يندر ان نجد مثلها في تصوير المحب وقد خلاّه من اذكوا نار جواه ، وتركوه يتلوى ويتململ ، فوق جمر الهوى وجمر الصدود :

ابكي الـذين اذاقوني مودتهم … حتى اذا ايقظوني للهوى رقدوا
واستنهضوني فلمـا قمت منتصباً … بثقل ما حملوني في الهوى قعدوا
جاروا علي ولم يوفوا بعهدهم … قد كنت احسبهم يوفون ان وعدوا
لأخرجنّ من الدنيا وحبكم … بين الجوانح لم يشعر به احـد
حسبي بأن تعلموا ان قـد احبكم … قلبي وان تسمعوا صوت الذي اجد

●

ومن حسن الاشارة قول ابراهيم بن المهدي :

يا غزالاً لي اليه شافعٌ من مُقلتيه
والذي اجللتُ خديْهِ فقبّلت يديهِ
بأبي وجهك ما اكثر حُسّادي عليه
انا ضيفٌ وجزاء الضيف إحسانٌ اليه

والاحسان الذي يرجوه هذا الشاعر يذكرنا بقول بعض الاعراب :

آل ليلى ان ضيفكم واجدٌ بالحي مُذ نزلا
امكنوهُ من ثنيتها لم يُردْ خمراً ولاعسَلا

ومن جميل الاستعطاف قول ابن زيدون :

يا هلالاً تتراءاه نفوسٌ لا عيونُ
عجباً للقلب يقسو منك والعِطفُ يلين
ما الذي ضرك لو سُر بمرآكَ الحزين
وتلطّفت بصبٍّ حَينهُ فيك يحين
فوجوه اللطف شتى والمعاذير فُنونُ

وما اوجع الاسى في قول ابن هانيء :

يا بنت ذي البُرْد الطويل نجادُه اكذا يجور الحكم في ناديكِ
عيناكِ ام مغناكِ موعدنا وفي وادي الكرى ألقاكِ ام واديكِ
منعوكِ من سِنة الكرى وسروا فلو عثروا بطيفِ طارقٍ ظنوكِ
ودعَوْكِ نشوى ما سقوكِ مُدامةً لما تمايل عِطفك اتهموكِ
حسبوا التكحُّل في جفونك حِليةً تالله ما بأكفهم كحلوكِ
وجلوكِ لي إذ نحن غُصنا بانةٍ حتى اذا احتفل الهوى حجبوكِ

ويندر ان تجد بين الادباء من لا يحفظ قول ابن الطثرية :

عُقيليّةٌ امّا مَلاثُ إزارها فَدِعصٌ واما خصرها فبتيل
تقَيّظ اكنافَ الحمى ويُظلها بنعمانَ من وادي الاراك مَقيل
أليس قليلا نظرةٌ ان نظرتها اليكِ ، وكلاّ ليس منكِ قليل

فيا نُخـلة النفس التي ليس دونها ... لنا من اخـلاء الصفاء خليل
ويا من كتمنا حبّه لم يُطعْ به ... عدوٌ ولم يؤمـن عليه دخيلُ
اما من مَقامٍ اشتكي غربة النوى ... وخوف العدا فيه اليكِ سبيلُ
فؤادي اسيرٌ لا يُفكُّ ومهجتي ... تفيض واحزاني عليـك تطول
ولي مقلةٌ قرحى لطول اشتياقها ... اليـك واجفاني عليك هُمول
فديتك اعـدائي كثيرٌ وشُقتي ... بعيدٌ واشياعي لديك قليل
وكنت اذا ما جئت جئت بعلة ... فأفنيت عِـلاتي فكيف اقول
فما كلّ يومٍ لي بأرضك حاجـةٌ ... ولا كلّ يوم لي اليـك رسول
صحائفُ عندي للعتاب طويتها ... ستُنشرُ يوماً والعتاب طويل
فـلا تحملي ذنبي وانت ضعيفةٌ ... فحمل دمي يوم الحساب ثقـيل

ولنختم هذا الباب بقول صاحب البدائع :

اجبني إن تفضلتَ ... على المسكين بالردّ
أأنسى الدهر ماجادت ... به عيناكَ من وَعد ؟
وارسم للمنى حداً ... وما لجواي َمن حدٌ ؟
واقنع بالرّدى ورْداً ... وغيري سائغ الوردِ ؟
وأرضى باللظى مثوى ... ووجهك جنةُ الخلدِ ؟

وفياً حافظاً اشقى ... ليسعَدَ ناقض العهد
وصباً والهاً افنى ... ليبقى جاحد الوُدّ
فيا ويلاهُ من حبٍّ ... حملتُ بلاءَهُ وحدي !
أُعِدُّ لحمله جُهدي ... فيصعَق بُطشه جُهدي

الحنين

هل اتاك حديث الصمّه بن عبد الله وقد خطب ابنة عمه ، وكان لها محبا ، فاشتط عليه عمه في المهر ، فاستعان بأبيه وكان مثريا فلم يعنه ، فأم عشيرتــه فأسعفوه ، ثم ساق الابل الى عمه ، فقال لا اقبل هذه في مهر ابنتي ، فسل اباك ان يبدّلها لك . فسأل اباه ذلك فأبى عليه ، فلما رأى ضنّ ابيه وإباء عمه قطع عقلها وخلاها فعاد كل بعير الى اهله ... ويروى ان اباه اعطاه تسعة وتسعين بعيراً فأبى عمه إلا مائة وحلف ابوه لا يكملها . فقال الصمة : والله مــا رأيت ألأم منكما ، واني لألأم منكما جميعاً ان اقمت بينكما . ثم رحـــل الى الشام . فقالت ابنة عمه : تالله ما رأيت كاليوم رجلا باعته عشيرته ببعير ! !

تأمل ايها القارىء هذه القصة الوجيزة ، وأكملها بما لديك من وثبات الخيال ، ولا تطالبني بأكثر من هذا الايجاز ، فانما اتخذه مقدمة لدرس قصيدة الصمة في الحنين ... الم تر اليه وقد طالت غربته ، فعبث الشوق بقلبه ، واعتادته ذكرى احبابه واوطانه . فقال يعاتب نفسه ، ويحاور فؤاده :

امن ذكر دارٍ بالرقاشين اصبحت ... بها عاصفات الصيف بدءًا ورجّعا
حننت إلى ريّا ونفسك باعدت ... مزارك مـــن ريا وشعبا كما معا
فما حسنٌ ان تأتي الامر طائعاً ... وتجزع ان داعي الصبابة اسمعا

ثم اخذ يخاطب رفيقيه – وقد بالغا في لومه واطالا في تأنيبه – فقال :

ألا يا خليليَّ اللذين تواصيا ... بلوميَ الا ان اطيعَ وأتبعا
قِفا إنه لا بد من رَجْعِ نظرة ... يمانيةٍ شتى بها القوم او معا
لمغتصَبٍ قد عزّه القوم امره ... حياءً يكفكف الدمع ان يتطلعا

ثم شرع في تعجيزهم وتيئيسهم فقال :

فان كنتم ترجون انيذهب الهوى   يقيناً ونروى بالشراب فننقعا
فردّوا هبوب الريح اوغيّروا الجوى   إذا حلّ ألواذ الحشا فتمنّعا

ومن يستطيع ذلك ؟ تالله ما العاذل وان اشتط في عذله ، وبالغ في لومه ، بقادر على نسيانك ، اوسلوانك :

ظنّ الهوى لِبسةً تبلى فيخلعها   فكان في القلب مثل القلب في البدنِ

ثم عاد الى رفيقيه يسألها الإسعاد والإنجاد :

قفا ودعا نجداً ومن حلّ بالحمى   وقلّ لنجدٍ عندنا ان يُوَدّعا

مسكين ! وقل لنجد ان يودّع ! اذن فما كنت صانعاً لو انصفته ؟ اكنت تُغرب في البكاء والإعوال حتى يرحمك اعداؤك ، ويرثي لك حاسدوك ؟ ام كنت تقتل نفسك جوًى وحزناً ؟ ثم قال :

بنفسيَ تلك الارض ماطيب الربى   وما اجمل المصطافَ والمتربّعا
وليست عشيّات الحمى برواجعٍ   اليك ولكن خلّ عينيك تدمعا

اتق الله في نفسك يا ابن عبد الله وارحم شبابك وصبرك

واستبق دمعك لا يودي البكاء به   واكفف مدامع من عينيك تستبق
فما الشئون وان جادت بباقيةٍ   ولا الجفون على هذا ولا الحدَقُ

ثم اخذ يصف موقفه وقد حال (البِشْر) بينه وبين احبابه واوطانه . فقال :

ولما رأيت (البشر) اعرض دوننا   وحالت بنات الشوق يحننّ نُزّعا
بكت عينيَ اليسرى فلما زجرتها   عن الجهل بعد الحلم اسبلتا معا

وقد رأيت من الادباء من يستنكر هذا الخيال ، وهو عندي من دلائل الوله وعلائم الصبابة المضلة . ثم قال في وصف ما لاقى في تلفته من العَنَت :

تلفتُّ نحو الحيّ حتى وجدتني   وَجِعْتُ من الإصغاء لِيتاً واخدعا

وهو معنى جميل نال في هذا البيت حظه من البيان . وقد تبعه الشريف الرضي فأبدع واجاد في قوله :

ولقد مررت على ديارهم   وربوعها بيد البلى نَهْبُ

فوقفت حتى ضجّ من لغَبٍ نضوى ولجّ بعذلي الركب

وتلفتَتْ عيني فمذ خفيَتْ عني الربوع تلفت القــلب

ويمتاز بيت الصمّة بتمثيله ما يعرف الناس في مثل هذه المواقف من ظاهر التعب . فأما بيت الشريف فلا يعرف حسنه غير من كابد الشوق وعانى الصبابة . ثم قال الصمة في تتمة الحديث عن جواه :

وأذكر أيام الحمى ثم أنثني على كبدي من خشيةٍ ان تصدعا

ولم أر هذا المعنى لأحد قبل الصمة . وقد أكمله ابن نباتة السعدي بقوله :

أضمُّ على قلبي يديَّ مخافــةً إذا لاح لي برقٌ من الشرق لامعُ

وهل ينفع القلبَ الذي بان إلفه إذا طار شوقاً ان تضم الأضالع

ومن الحنين قول ابن عبد ربه :

ودّعتني بزفرة واعتناقٍ ثم نادت متى يكون التــلاقي

وبدت لي فأشرق الصبح منها بين تلك الجيوب والاطواق

يا سقيم الجفون من غير سقم بين عينيك مصرع العشاق

ان يوم الفراق افــظع يوم ليتني مت قبل يوم الفراق

لأن الشاعر قد يرحل فيأخذ في ذكر المعاهد والعهود ، وقــد يظعن حبيبه ويقيم ، فيأخذ في الإعوال عليه ، والحنين الــيه ، وهناك من غرائب الهوى وعجائب الصبابة حالة ثالثة ليست اقل من سابقتيها جوًى وحزناً ، بل ربمــا كانت اكثر حيرة : وهي ان يلتقي الركبان وفيهما محب ومحبوب ، ثم يفترقان قبل ان يتلاقى الصبان : ويجتمع الخلاّن ، فلا يدري العاشق اي عهد يبكي ، واي حظ يندب ، كما لا يعرف ايلوم نفسه لأنه ظعن وترك حبيبه مقيما ، ام يشكو دهره لان حبيبه سار وخلّفه ، ام يُعول إعوالاً مُبهما لا يعرف مصدره ، ولا

يفهم مبعثه ، والشعر في هذا المعنى اقرب الى الذكرى منه الى الحنين ، ومن الجيد فيه قول الارجاني :

استودع الله قوماً كيف ابعدنا   تقلب الدهر منهم حين ادنانا
زمّوا الغداة مطاياهم لفرقتنا   لما أنخنا للقيام مطايانا
لم تشتبك بعدُ أطناب الخيام لنا   ولا المنازل ضمتهم وإيانا
لكنهم عاجلونا بالنوى ومضوا   وخلفوا الطّرب المشتاق حيرانا
لم يملأ العين من احبابه نظراً   إذ غادر الدمع منه الجفن ملآنا

وإني موافيك ببديع الشعر وشجيه ، فيما يمثل حال المحب نأى عنه حبيبه ، او خلف احبابه وسار ، فمن الاول قول سبط التعاويذي :

اتعود ايامي برامةَ بعد ما   سكنت بجرعاء الحمى آرامها
وأحلها البين المشتُّ محِلةً   بَعُدت مراميها وعزَّ مرامُها
سارقتها نظر الوداع فما ارتوت   نفسٌ يزيد على الورود هُيامها
يا غادرين وغادروا بجوانحي   لبعادهم ناراً يُشب ضِرامها
بنتم فلا عيني تجفّ غروبُها   أسفاً ولا كبدي يُبلُّ أوامها
جودوا لعين المستهام بهجعةٍ   فعسى تمثلكم لها احلامها
لا تتلفوا بالبين مهجة عاشق   سيّان بينَ حميمها وحِمامُها
اعداه من هيف الخصور نحولها   يومَ النوى ومن العيون سقامُها

ولم اجد في هذا المعنى اشجى واوجع من قول بعض المتيمين :

لبكاء هذا اليوم صنت مدامعي   وكذا العزيز لكل خطب يُذخرُ
يا ساكني وادي العقيق فدتكم   عينٌ مدامعها عقيق احمر
بنتم فما استعذبت بعد حديثكم   لفظاً ولم يَحسُن لعينيَ منظر

والبيت الاخير مأخوذ من قول ابن ابي ربيعة :

لم يحبب القلب شيئاً مثل حبكم   ولم تر العين شيئاً بعدكم حسَنا

فأما شعر من نأوا عن احبابهم ، وخلوا معاهـــد انسهم ، فهو كثير ،ومن جيده قول الابيوردي يتشوق إلى احبابه وقد خلاهم ببغداد :

ألاليت شعري هل اراني بغيضة ابيت على ارجائهـا واقيل
هواءٌ كأيام الهوى لا يغبه نسيمٌ كلحظ الغانيات عليل
وعصر رقيق الطرتين تدرجت على صفحتيه نضرةٌ وقبول
وأرضٌ حصاها لؤلؤ وترابها تضوّع مِسكاً والمياه شمول
بها العيش غضٌّ والحياة شهيةٌ وليلي قصير والهجير اصيل
فقل لأخلائي ببغداد هل بكم سلوٌّ فعندي رنةٌ وعويل
ترنحني ذكراكمُ فكأنما تميل بيَ الصهباء حيث اميل
لئن قصرت أيام انسي بقربكم فليلي على نأي المزار طويل

وقال اعرابي من بني عُقيل:

احنُّ إلى ارض الحجاز وحاجتي خيامٌ بنجد دونها الطرف يقصر
وما نظري نحو الحجاز بنافعي بشيء ولكني على ذاكَ انظر
افي كل يوم نظرةٌ ثم عبرةٌ لعينيك يجري ماؤها يتحدّر
متى يستريح القلب إما مجاورٌ حزينٌ وإما نازحٌ يتذكرٌ

وقال آخر في الحنين إلى أيامه السوالف :

سقى الله اياماً لنا قد تتابعت وسقياً لعصر العامرية من عَصر
لياليَ اعطيتُ البطالة مِقودي تمرُّ الليالي والشهور ولا ادري

ومن شائق الحنين قول ابن الدمينة :

ألا لا أرى وادي المياه يثيب ولا النفس عن وادي المياه تطيب
أُحب هبوط الواديين وانني لمشتهرٌ بالواديين غريبُ
احقاً عباد الله ان لست وارداً ولا صادراً إلا عليَّ رقيب
ولا زائراً فرداً ولا في جماعةٍ من الناس إلا قيل انت مُريب
وهل ريبةٌ في ان تحنَّ نجيبةٌ إلى إلفها او ان يحنَّ نجيب
وان الكثيب الفرد من جانب الحمى إليَّ وإن لم آته لحبيب

لك الله اني واصلٌ ما وصلتِني ومُثنٍ بما اوليتني ومثيب
وآخذ ما أعطيتِ عفواً وإنني لأزوَرُ عما تكرهين هيوبُ
فلا تتركي نفسي شَعاعاً فانها من الوجد قد كادت عليكِ تذوب
وإني لأستحييك حتى كأنما عليَّ بظهر الغيب منك رقيبُ

وفي هذا المعنى يقول صاحب البدائع :

تجمّلْ بالسماح ودع ملامي وكن عَوْن المحبّ المستهامِ
ففي أسيوطَ لو تدري حبيبٌ هجرت لبعدهِ طيبَ المنام
أسيت له يحنّ إلى لقائي ودون مرامه كيد اللئام
إذا ما الليل جنّ ونام صَحبي مَشت نار التذكر في عِظامي
سلامٌ أيها النـــائي سلامٌ وهل يغني عن اللقيا سلامي

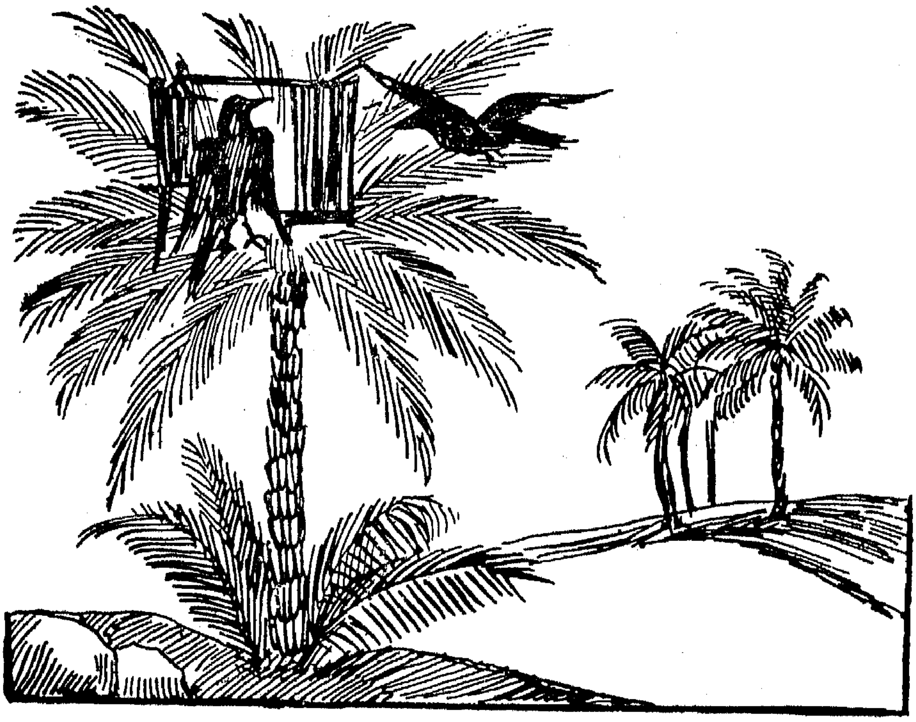

الرفق بالحبيب المريض

وهذا باب تتجلى فيه رِقّة القلوب ، فمن ذلك قول خالد الكاتب :

بجسمي لا بجسمك ياعليلُ ويكفيني من الألم القليلُ
تعدّاك السّقام إليّ إني على ما بي لشدّته حَمولُ
إذا ما كنت ياأملي صحيحاً فحالفني وسالمك النُّحول

وهذه أبيات ضعيفة ، لا تتناسب مع شاعرية من يقول :

وحسبُك حسرةً لك من حبيبٍ رأيت زمامَه بيديْ عدُوّ

وقد يتمنى المحب لو أعفى المرض محبوبه ، ورتــع كيف شاء في الاجسام الدميمة ، كما قال سُحيم :

ماذا يريد السّقام من قمرٍ كلُّ جمالٍ لوجههِ تَبَعُ
مايرتجى ،خاب من محاسنها أماله في القباحِ مُتسَعُ
لو كان يبغي الفداء قلت لهُ هاأنا دون الحبيب يا وجَع

وما أرقّ ما يقول ابن الاحنف :

إن التي هامت بها النفسُ عاوَدها من سُقمها نُكس
كانت إذا ما جاءها المبتلى أبرأهُ من راحِها اللمسُ
وا بأبي الوجه المليح الذي قد عشقته الجنُّ والإنس
إن تكن الحمّى اضرّت به فربما تنكسف الشمس

وانظر جمال الرفق في قوله :

أما والله لو تجدين وجــدي لقلقل ما وجدتِ إذاً حشاكِ
وقاكِ الله كل أذًى بنفسي وعجّل يا ظلومُ لنا شفاكِ

وأنشد أبو الحسن بن البراء :

فديتك ليلى مُذ مَرضتَ طويل ودمعي لما لاقيت فيك همولُ
أأشرب كأساً أم أسرُّ بلذةٍ ويعجبني ظبيٌ أغنُّ كحيل
وتضحك سِنّي او تجف مدامعي وأصبو إلى لهوٍ وانت عليل
ثكلتُ إذاً نفسي وقامت قيامتي وغالت حياتي عند ذلك غُول

وقال يوسف بن ابراهيم الغرناطي يخاطب الوزير ابن الحكم وقد اصابته حمى تركت على شفته بثوراً :

حاشاك ان تمرض حاشاكا قد اشتكى قلبي لشكواكا
إن كنت محموماً ضعيف القوى فانني أحسد حُمّاكا
ما رضيَت حُمّاك إذ باشرتْ جسمك حتى قبّلت فاكا

وهذا الشعر وإن كان خطاباً لوزير إلا أن فيه سِمات التشبيب !

الذبول والنحول

وقد يأسى الشعراء لما عانوا في الحب من الضمور والشحوب ، فيرى بعضهم أنه لم يبق له لحم ولا دم ، كما قال المؤمل :

حلمتُ بكم في نومتي فغضبتم ولاذنب لي إن كنت في النوم احلم
سأطرد عني النوم كيلا أراكم إذا ما أتاني النوم والناس نُوَّمُ
تُصارمني والله يعلم انني أبرُّ بها من والديها وأرحم
وقد زعموا لي انها نذرت دمي وما لي بحمد الله لحمٌ ولا دم
برى حبها لحمي ولم يُبق لي دماً وإن زعموا اني صحيحٌ مسلَّم
فلم أر مثل الحبِّ صحَّ سقيمُه ولا مثل من لم يعرف الحبَّ يسقم
ستقتل جلداً بالياً فوق اعظمٍ وليس يبالي القتل جلدٌ واعظم

ومنهم من يبلى جسمه ، ولا يبلى شوقه ، كما قال أبو تمام :

يا جفوناً سواهراً اعدمتْها لذةَ النوم والرُّقاد جُفونُ
بَليَ الجسمُ لكن الشوق حيٌّ ليس يبلى وليس تبلى الشجون
إن لله في العباد منايا سلطتها على القلوب العيون

ويقرب من هذا المعنى قول السري الرفاء :

فداؤك من أوردته منهل الردى وورْد الردى للعاشقين يَطيبُ
وما مات حتى أنحل الحبُّ جسمَه فلم يبق فيه للتراب نصيب

والأرّجاني يذكر ان طيفه لو زار حبيبه لحمل شخصه اليه لنحوله ويقول :

يُرَوّي ضاحيَ الوجنات دمعي ويعدل عن لهيب جوًى دخيلِ
وما نفعي وإن هطلت غيوثٌ إذا اخطأن أمكنة المحُول

هُمُ نقضوا عهودي يومَ بانوا ... وأبدَوا صفحة الطرف الملول
وفوا بالهجر لما أوعدوني ... وكم وعدوا الوصال ولم يفوا لي
وفي الركب الهلاليين خِشفٌ ... تعرّض يوم تشييع الحمول
أصاب بطرفه الفتان قلبي ... وكيف يصاب ماضٍ من كليل
بخلتَ وقد حظيتَ بصفو ودّي ... وان من العناء هوى البخيلِ
وبتّ لو استزرت اليوم طيفي ... لجرّ اليك شخصي من نحولي
ولكن لا سبيل إلى شفاءٍ ... إذا مال الطبيب على العليل

ومنهم من يذكر انه ضنَي حتى لو تعلق بعود ثُمامٍ ما تأوّد ، كما قال الحسين بن مَطير الاسدي :

خليليّ هل ليلى مُؤديةٌ دمي ... إذا قتلتني أو أميرٌ يُقيدها
وكيف تقاد النفس بالنفس لم تقلْ ... قتلت ولم يشهد عليها شهودها
ولن يلبث الواشون أن يصدعوا العصا ... إذا لم يكنْ صلباً على البريِ عودها
نظرت اليها نظرةً ما يسرني ... بها حُمْر انعام البلاد وسودها
ولي نظرةٌ بعد الصدود من الجوى ... كنظرة ثكلى قد اصيب وحيدها
فحتّا متى هذا الصدود إلى متى ... لقد شفّ نفسي هجرها وصدودها
فلو ان ماأبقيتِ مني معلقٌ ... بعود ثُمامٍ ما تأوّد عودها

وقال الحارثي في وصف آصار النحول :

سلبتِ عظامي لحمها فتركتها ... مجرّدةً تضحى لديك وتخصَرُ
وأخليتِها من مخها فكأنها ... أنابيب في أجوافها الريحُ تصفرُ
إذا سمعت باسم الفراق تقعقعت ... مفاصلها من هول ما تتنظّرُ
خذي بيدي ثم ارفعي الثوب تنظري ... بيَ الضرّ إلا انني أتستر
فما حيلتي إن لم تكن لكِ رحمةٌ ... عليّ ولا لي عنك صبرٌ فأصبر

ويقول ابن الاحنف :

انظر إلى جسدٍ اضرّ به الهوى ... لولا تقلب طرفه دفنوهُ

وتابعه المتنبي فقال :

كفى بجسمي نحولاً انني رجل   لولا مخــاطبتي إياك لم ترني

وفي مثل هذا المعنى يقول صاحب البدائع وقد ارسل صورتـــه إلى بعض احبابه :

سكنتَ الى النوى ونسيتَ صباً   نحيلا كاد يقتلهُ الحنــين
فلمّا لم يجــد في الحب صبراً   ولم ترحم جوانحه الشجون
تفانى في النحول فلو تبدّى   لما فطِنتْ لخطرَته العيونُ
وها هو كالخيال أتاك يسري   مخافة ان تُظنّ به الظنونُ
فأكرمْ نُزلهُ وارحم ضناه   فان فؤادك الحرم الامين

وقال بعض الشعراء :

إن الذي أبقيت من جسمهِ   يا متلفَ الصبّ ولم يشعر
صُبابةٌ لو أنهــا دمعةٌ   تجول في عينيك لم تقطُرِ (١)

(١) الصبابة بالضم هي البقية الطفيفة من الشيء .

أماني المحبين

وللمحبين امانٍ كثيرة ، لو تنفع الاماني ، فمنهم من يتمنى الكأس من يد جميل ، بين ندمان يُعاطونه اطايب الحديث ، كما قال العطوي :

وكم قالوا تمنَّ فقلت كأسٌ   يطوف بها قضيبٌ من كثيبِ
ونُدمانٍ تساقطني حديثاً   كلحظ الحبِّ او غضِّ الرقيب

وإنها لأمنيَّة عزيزة المنال !

ومنهم من يسامر الاماني حتى ليحسب محبوبه بين يديه ، كما قال ابن الزيات :

يا داني الدار في الاماني   ونازح الدار في العِيانِ
ذكرك دانٍ وانت ناءٍ   فأنت ناءٍ وانت دانِ
نفسك موصولةٌ بنفسي   وانت كالنجم من مكاني
لي فِكَرٌ فيك معجبات   في اللفظ صِفرٌ من المعاني
تجري ضروبٌ من التمني   في كل يوم على لساني
اقول حتى كأن عيني   تراك من حيث لا تراني

ويتمنى ابن الاحنف لو ينام ليرى طيف محبوبته ، ويقول :

مجلسٌ يُنسب السرور اليه   بمحبٍّ ريحانهُ ذكراكِ
كلما دارت الزجاجة زادتـ   ـهُ اشتياقاً وحُرقةً فبكاكِ
لم يَنلك الرجاء ان تحضريني   وتجافت أُمنيّتي عن سواكِ
فتمنيت ان يُغشّيني اللـ   ـهُ نُعاساً لعلَّ عيني تراكِ

وربما تمنى المحب لو أُعير سَلوة من قلب حبيبه ، كما قال البحتري :

ودِدْتُ وهل نفس امرىءٍ بملومةٍ   إذا هي لم تعطَ الهوى من ودادها
لو ان سُليمى اسمحت او لو انه   أُعير فؤادي سلوةً من فؤادها

وما اظرف النشوة التي تمناها البحتري حين قال :

هل لي سبيلٌ الى الظهران من حلب ونشوةٍ بين ذاك الورد والآسِ
امدُّ كفي لأخذ الكأس من رشأٍ وحاجتي كلها في حامل الكاس
بقرب انفاسه اشفي الغليل إذا دنا فقرَّبها من حرِّ انفاسي

ومن غريب التمني ما جاء في رائية ابي صخر الُهذلي ، فقد تمنى ان يجتمع بحبيبته فوق امواج البحر ، ومن دونها اللجج الخضر والاهوال ، واليك أروع هذه القصيدة البديعة :

لليلى بذات الجيش دارٌ عرفتها واخرى بذات البينِ آياتها سطْرُ
كأنما مِلآنَ لم يتغيَّرا وقد مرَّ للدارين من بعدنا عصْر
وقفت برسمَيْها فعيَّ جوابُها فقلت وعيني دمعها سَربٌ همْر
ألا ايها الركب المخبون هل لكم بساكن اجزاع الحمى بعدنا خُبرُ
فقالوا طويناذاك ليلافان يكن به بعض من تهوى فما شعَرالسَّفرُ

●

اما والذي ابكى واضحك والذي أمات واحيا والذي امرهُ الأمرُ
لقد كنت آتيها وفي النفس هجرها بتاتاً لأخرى الدهر ما طلع الفجر
فما هو إلا أن أراها فُجاءة فأبهتَ لا عُرفٌ لديَّ ولا نُكرُ
وانسى الذي قد كنت فيه هجرتها كما قد تُنسّي لُبَّ شاربها الخمرُ
وما تركت لي من شذاً اهتدي به ولا ضِلعٍ إلا وفي عظمها وَقر
وقد تركتني احسد الوحش أن أرى اليفين منها لا يروعها الذُّعْر
ويمنعني من بعض إنكار ظلمها إذا ظلمت يوماً وان كان لي عذر
مخافةُ اني قد علمت لئن بدا ليَ الهجر منها ما على هجرها صبر
واني لا ادري إذا النفس اشرفت على هجرها ما يبلغنَّ بي الهجر
تكاد يدي تَندى إذا ما لمستها وينبت في اطرافها الورق النضر
واني لتعروني لذكراك هِزةٌ كما انتفض العصفور بلله القطرُ
تمنّيت من حبي عُليَّة اننا على رَمثٍ في البحر ليس لنا وفر
على دائمٍ لا يعبر الفلك موجهُ ومن دوننا الاهوال واللجج الخضر

فنقضيَ همَّ النفس في غير رِقبةٍ ... ويغرق مـن نخشى نميمته البحرُ
عجبت لسعي الدهر بيني وبينها ... فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
فيا حبـــها زدني جوًى كلَّ ليلة ... ويا سَلوة الأيام موعدكِ الحشرُ
هجرتك حتى قلتِ لايعرف القِلى ... وزرتك حتى قلتِ ليس لهُ صبر
صدقتِ انا الصب المصاب الذي به ... تباريح حبٍّ خامرَ القلب اوسِحر
فيا حبذا الاحياء ما دمت فيهمُ ... ويا حبذا الاموات ما ضمَّك القبر

واليك شتى الاماني في قول جميل :

جزتكِ الجوازي يا بثين ملامة ... إذا ما خليلٌ بان وهو حميدُ
ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً ... بوادي القرى؟ إني إذاً لسعيد
فقد تلتقي الاهواءُ من بعد يأسة ... وقد تُطلب الحاجات وهي بعيد
ويحسبُ نِسوانٌ من الجهل انني ... إذا جئت إياهن كنت أريد
فأقسم طرفي بينهنَّ سويّة ... وفي الصدر بَونٌ بينهنَّ بعيدُ
فليت وشاة الناس بيني وبينها ... يدوف لهم سما طماطمُ سود
وليتهم في كلِّ مُمْسى وشارقٍ ... تُضاعف اكبالٌ لهم وقيودُ
إذا جئتها يوماً من الدهر زائراً ... تعرَّض منقوص اليدين صَدُود
يصدُّ ويغضى عن هواي وَيجتني ... ذنوباً علينا إنه لعنود
فأصرمها خوفاً كأني مُجانبٌ ... ويغفل عنـا مرةً فنعود
يقولون جاهد يا جميل بغزوةٍ ... واي جهاد غيرهن أريد
لكلِّ حديثٍ بينهن بشاشةٌ ... وكل قتيلٍ بينهنَّ شهيد

وغاية الغايات في هذا الباب قول ابي بكر بن عبد الرحمن الزهري :

ولما نزلنا منزلا طـلَّه الندى ... أنيقاً وبستاناً من النوْرِ حاليا
أجدَّ لنا طِيب المكان وحسنُهُ ... مُنى فتمنينا فكنتِ الامانيا

الهيبة والخضوع

والشعراء يهابون الحسن ، ويضلون سبيل الرشد حين يراجعون ارباب

وانظر قول ابي فراس :

أراميتي كل السهام مُصيبةٌ وانت لي الرامي فكلي مقاتلُ
وإني لِمقدامٌ وعندكِ هائبٌ وفي الحيِّ سحبانٌ وعندكِ باقل
يضلُّ عليَّ القول ان زرت دارها ويعزب عني وجه ما انا فاعل
وحجتها العُليا على كل حالةٍ فباطلها حقٌّ وحقيَ باطل

وما ارق قوله في عكس هذا المعنى :

ومُغضٍ للمهابة عن جوابي وإنَّ لسانه العضبُ الصقيلُ
أطلت عتابهُ عَنَتاً وظلماً فدَمَّعَ ثم قال : كما تقولُ !

ومن جيد الشعر في هيبة الحسن ، قول الحسن بن وهب :

أقول وقد حاولت تقبيل كفها وبي رعدةٌ أهتزُّ منها وأسكنُ
ليَهنِك أني أشجع الناس كلهم لدى الحرب إلا أنني عنك أجبنُ

وقول بعض الأعراب :

أهابكِ إجلالاً ومـــا بك قدرةٌ عليَّ ولكن ملءُ عـــينٍ حـ
وما هجرتك النفس أنك عندها قليلٌ ولكن قلَّ منك نه

وفي الخضوع للحبيب يقول الشريف :

كم ذميلٍ اليـــكمُ ووجيفٍ وصدودٍ عنا لكم وصُدوفٍ[1]

---

(١) الذميل والوجيف من ضروب السير

وغرامٍ بكم لو ان غرامـــاً جرَّ نفعاً للواجد المشغوف
صبوةٌ ثم عفةٌ ما أضر الحـ ـبُّ في كل خلوةٍ بالعفيف
هجرونا ولم يلاموا وواصلـ ـنا على مؤلم من التعنيف
وطلبنا الوفـاء حتى إذا عزَّ رضينا بالمطْلِ والتسويف
كيف يرجو الكثير من راضه الشو قُ إلى ان رضِي ببذل الطفيف

وانظر قول ابن الرومي :

أضعتني فرعـــيتُ وخنتني فوفيتُ
أطعتِ فيَّ الأعادي وكلهم قد عصيت
فكيف اصبحتِ غضْبى لمَّا رضاكِ أتيت

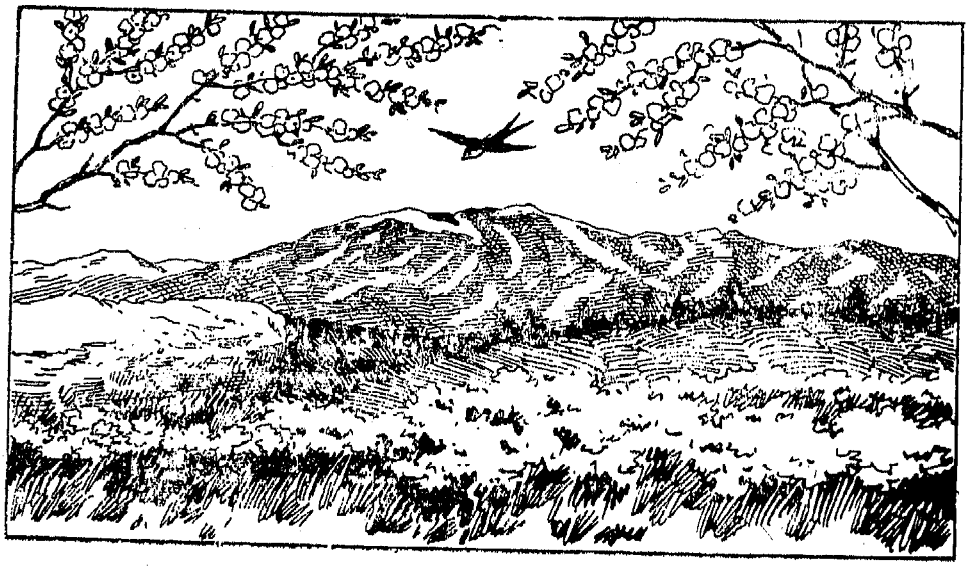

الرضى بالقليل

وقد يقنع المحب وهو راغم ، فيرضى بالوعد ، ويفرح بالأماني ، وهي كواذب لأن الوصل عزيز المنال ، فمن ذلك قول العباس بن الأحنف :

كفى حزناً أني وفوزاً ببلدةٍ مقيمانِ في غيرِ اجتماعٍ من الشملِ
أما والذي ناجى من الطُّور عبده وأنزل فرقاناً وأوحى إلى النحل
لقد ولدت حوّاءُ منكِ بليةً عليَّ اقاسيها وخبلاً من الخبل
أرى الناس لا يرضى ذوو العشق منهم بشيءٍ سوى حُسن المواتاةِ والبذل
واني ليرضيني الذي ليس بالرضى وتقنع نفسي بالمواعيدِ والمطل

وفي هذا المعنى يقول الشريف :

لكَ الله هل بعد الصدود تعطُّفٌ وهل بعد ريعانِ البعاد تدانِ
وما غرضي أني أسومك خُطةً كفاني قليلٌ من رضاك كفاني

وقال بعض الظرفاء :

أنا راضٍ منكم بأيسر شيءٍ يرتضيه من عاشقٍ معشوق
بسلام على الطريق إذا ما جمعتنا بالاتفاق الطريق

وقال توبة الحميري في ليلى الاخيلية :

وهل تبكيَنْ ليلى إذا مت قبلها وقام على قبري النساء النوائحُ
كما لو اصاب الموت ليلى بكيتها وجاد لها دمعٌ من العين سافح
وأُغبطُ من ليلى بما لا أنالهُ بلى كلُّ ما قرّت به العين صالح

وقد كثر القليل في قول ابن الطثرية :

أليس قليلاً نظرةٌ إن نظرتها اليكِ ؟ وكلا ليس منكِ قليلُ

وجاراه في هذا المعنى من قال :

إن ما قلَّ منك يكثر عندي وكثيرٌ ممـن تحبُّ القليلُ

وأبرع الشعر في هذا المعنى قول جميل :

واني لأرضى مـن بثينة بالذي لو ابصره الواشي لقرَّت بلابُلهْ
بلا ، وبأن لا أستطيع ، وبالمنى ، وبالامل المرُجوّ قـد خاب آمله
وبالنظرة العجلى ، وبالحول تنقضي أواخرهُ لا نلتقي وأوائله

وفي مقابل هذا يقول ابن الفارض :

وإذا اكتفى غيري بطيف خيالهِ فـأنا الذي بوصاله لا أكتفي

وأبدع منه قول ابن الرومي :

أعانقه والنفس بعـدُ مشوقةٌ اليه وهل بعد العِناق تدانِ
وألثم فـاهُ كي تزول حرارتي فيشتد ما ألقى من الهيَمان
ولم يكُ مقدار الذي بي من الجوى ليرويَه ما تلثم الشفتان
كأن فؤادي ليس يشفي غليلهُ سوى ان يرى الروحين يمتزجان

شفاء الحب

وقد يمرض المحب ، فيفتنُ الناس في وصف دوائه ، على انه لا يبرأ الا بقرب من يحب . وانظر قول عروة بن خزام وقد رأى عفراء :

وما هي إلا ان أراها فجاءة فأبهت حتى ما أكاد أجيب
وأصدف عن رأيي الذي كنت أرتئي
وأنسى الذي أزمعت حين تغيبُ
ويظهر قلبي عذرها ويعينها عليَّ فمالي في الفؤاد نصيب
وقد علمت نفسي مكان شفاءها
قريباً وهل ما لا يُنال قريب
فواكبدي أمست رفاتاً كأنما يُلذعها بالموقدات طبيب
عشية لا عفراء منك بعيدة فتسلو ولا عفراء منك قريب
لئن كان بردالماء حرّانصادياً إليّ حبيباً إنها لحبيب

وفي هذا المعنى يقول بعض الأعراب :

أيا زينة الدنيا التي لا ينالها مُناي ولا يبدو لقلبي صريمها
بعيني قذاة من هواك لو انها
تُداوى بمن أهوى لصحّ سقيمها
وبُرء قذاة العين ان لم يكن لها
طبيب يداوي نظرة تستديمها
فما صبرت عن ذكرك النفس ساعة
وإن كنت أحياناً كثيراً ألومها

ومن بديع الشعر في هذا الباب قول ابى العتاهية :

قل لمن لست أُسمِّي بأبي أنت وامي

بأبي انت لقد اصبحـ ـت من أكبر همي

ولقد قلت لأهلي إذ اذاب الحب لحمي

وارادوا لي طبيباً فاكتفوا مني بعلمي

من يكن يجهل ما ألـ ـقى فان الحب سقمي

ان روحي لبغدا د وفي الكوفة جسمي

القلب الخافق

نذكر هنا ألواناً من تصور الشعراء لخفوق القلب ، فمنهم من يشبهه بتنزي الكرة ، كما قال بشار :

يروّعه السِّرار بكل شيء مخافة ان يكون به السرارُ
كأن فؤاده ُكرَة تنزّى حِذار البين لو نفع الحذارُ

ومنهن من يشبهه بالوشاح القلِق ، فوق الخصر الدقيق ، كقول مسلم بن الوليد :

أزكى من المسك أنفاساً وبهجتها أرق ديباجة من رقة النفَس
كأن قلبي وشاحاها اذا خطرت وَقلبها ُقلبها في الصمت والخرس(١)
تجري محبتها في قلب عاشقهـــا جري السلامة في أعضاء منتكس

وابن الاحنف يشبه القلب الخافق بيد القينة الهوجاء تضرب بالدف ، ويقول :

يبين لساني عـــن فؤادي وربما أسرّ لساني ما يبوح به طرفي
أعيذك أن تشقى بقتلي فانني أخاف عليك الله ان سمتني حتفي
اذا القلب أوما ان يطير صبابة ضربت له صدري وألزمته كفي
كأن جناحيه اذا هاج شوقــــه يدا قينْةٍ هوجاء تضرب بالدُّفّ

ومنهم من يشبهه بجناح الطير حين ينتفض ، كقول احد الاعراب :

ألا بأبي من ليس والله نافعي بنيْل ومن قلبي على النأي ذاكره
ومن كبدي تهفو اذا ذكر اسمه كهفو جناح ينفض الطلّ طائره

وقد وضح هذا المعنى في قول ُنصيب :

(١) القلب بضم القاف هو السوار

كأن القلب ليلة قيل يُغدى ... بليلى العامرية أو يراحُ
قطاةٌ عزهـا شرَكٌ فباتت ... تجاذبه وقد علق الجناح
لها فرخان قـد تُركا بوكرٍ ... فعشُّهما تُصفقه الرياح
اذا سمعا هبوب الريح نصّا ... وقد اودى به القدر المتاح(١)
فلا في الليل نالت مـا ترجّي ... ولا في الصبح كان لها براح

وابن ميادة يذكر ان قلبه أمسى وكأن يداً خبثت به ، أي قبضت عليه وسامته العذاب ، ويقول :

كأن فؤادي في يدٍ ضبثت به ... محاذرة أن يقضب الحبل قاضبهْ
وأشفق من وشك الفراق وانني ... أظن لمحمول عليـه فراكبه
فوالله ما أدري أيغلبني الهوى ... اذا جدّ جِدّهُ البين أم أنا غالبه
فان أستطع أغلب وان يغلب الهوى ... فمثل الذي لاقيت يغلب صاحبه

(١) نص الطائر هم بالنهوض

مثال الحبيب

ومن العشاق من يرى مثال حبيبته كلما هبّ من نومه ، أو أوى إلى فراشه كالذي يقول :

أ آخر شيء أنت في كل هجعةٍ وأول شيء أنت عند هبوبي
مزيدكِ عندي ان أقيك من الردى وودٌ كماء المزن غير مَشوبِ

والمنى تمثل الحبيب في قول راشد بن أرشد :

تحيرت في أمري واني لواقف أجيل وجوه الرأي فيك وما ادري
أأعزم عزم اليأس فالموت راحة أو أقنع بالإعراض والنظر الشزرِ
وإني وان اعرضت عنك لمنطوٍ على حُرَقٍ بين الجوانب والصدر
اذا هاج شوقي مثلتكِ لي المنى فألقاكِ ما بيني وبينك في السر
فمن ذاك لم أصبر ولي فيك حيلة ولكن دعاني اليأس منكِ الى الصبر
تصبرت مغلوباً واني لموجع كما يصبر الظمآن في البلد القفر

وراشد بن أرشد هذا هو الذي يقول :

ضحكتِ ولو تدرين مابي من الهوى بكيتِ لمحزون الفؤاد كئيبِ
لمن لم تُرحْ عيناه من فيض عبرة ولا قلبه مـن زفرة ونحيب
لمستأنس بالهمّ في دار وحشة غريب الهوى باكٍ لكل غريب
ألا بأبي العيش الذي بان وانقضى وما كان من حسن هناك وطيب
وترداد مستور الأحاديث بيننا على غفلة مـن كاشح ورقيب
ليالي يدعـونا الصبا فنجيبه ونأخذ من لذاته بنصيب

الى ان جرى صرف الحوادث في الهوى فبدل منـــا مشهدٌ بمغيبِ

وقد ضاع شعر هذا الشاعر المجيد ، وحرَمنا منه صاحب زهر الآداب حين قال « وله مذهب استفرغ فيه أكثر شعره ، وصنت الكتاب عن ذكره » وبهذه الصيانة فقدت الآداب شعر هذا الشاعر ، وكم نتمنى ان لا يخلط المؤلفون بين الادب والاخلاق !

وأجود ما قيل في مثال الحبيب قول كثيّر :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تُمثلُ لي ليلى بكل سبيلِ

أهوال الصدود

ولقد أطال الشعراء في شكوى الصد ، وما يقاسون فيه من أهوال ، فمن ذلك قول الشريف :

وبين ذوائب العقدات ظبيٌ	قصير الخطو في المِرط المذالِ
ربيبٌ إن أُريغ إلى حديث	نوار إن أُريد الى وصال
فهل لي والمطامع ُمرديات	دنوٌ من لمى ذاك الغزال
لقد سلبت ظباءُ الدار لبّي	ألا ما للظباء بها ومالي
تنغصني بأيام التلاقي	معاجلتي بأيام الزيال
تحيفني الصدود وكنت دهراً	أروّع بالصدود فلا أبالي
وكيف أفيق لا جسدي بناءٍ	عن البلوى ولا قلبي بسالي
يرنحني اليك الشوق حتى	اميلَ من اليمين الى الشمال
كما مال المعاقر عاودته	ُحميا الكأس حالا بعد حال
ويأخذني لذكركم ارتياحٌ	كما نشط الاسير من العقال

وعبد الله بن مصعب يأسى على ان لم يعدُه احبابه في مرضه ، مع أنه يعود كلبهم اذا مرض ! ولهذا لقّب (عائد الكلب) حين قال :

مالي مرضت فلم يعدني عائدٌ	منكم ويمرض كلبكم فأعودُ
وأشد من مرضي عليّ صدودكم	وصدود عبدكم عليّ شديد

ويرى أبو النواس ان قرب الدار لا ينفع مع الصدود ، ويقول :

لقد عاجلت قلبي جنانٌ بهجرها	وقد كان يكفيني بذاك وعيدُ
رأيت تداني الدار ليس بنافع	اذا كان ما بين القلوب بعيد

وابن الاحنف يترك العتب على الصدأ ، لئلا يُرز بصدٍ جديد ، ويقول :

تركت صدودها وصبرت نفسي   بطول تجرُّع الغيظ الشديدِ
مخافة ان تجدد لي صدوداً   وكنت حديث عهد بالصدود

وقد وضح هذا المعنى من قبل في قول ابي صخر الهُذلي :

ويمنعني من بعض إنكاري ظلمها   إذا ظلمت يوماً وان كان لي عذرُ
مخافة أني قد علمت لئن بـــدا   لي الهجر منها ما على هجرها صبر

والبحتري يمزج الشكوى بالعتاب في قوله :

ظلمتني تجنباً وصدوداً   غير مرتاعة الجنـــان لظلمي
ويسير عند القتول اذا ما   أثمت فيَّ ان تبـــوء بإثمي
أجد النار تستعار من النا   ر وينشو[1] من سقم عينيك سقمي
لعب ما أتيتِ من ذلك الصدّ   فنرضاه أم حقيقة عزمِ
وبحقٍ ان السيوف لتنبو   تارة والعيون باللحظ تُدمي

ويروقني الندم على الصدود في قول صاحب البدائع :

لقد صددناكم كما صددتم   فهل ندمتم كما ندمنا

---

(١) يقال : نشأ ينشأ ونشؤ ينشؤ : أي قوي وزاد .

التلفت الى معالم الوجد

ومن أوجع ما تحدث به المتيمون ، تلفتهم الى معاهد الحب : عند الوداع ، وبعد الفراق .

قال بعض الرواة : مررت بحمى الربذة فاذا صبيان يتقاسمون [١] في الماء ، وشاب جميل الوجه ملوّح الجسم قاعد ، فسلمت عليه فرد عليّ السلام . وقال : من أين وضح الراكب ؟ قلت من الحمى ! قال ومتى عهدك به ؟ قلت رائحاً. قال وأين كان مبيتك ؟ قلت : أدنى هذه المشاقر [٢] . فألقى نفسه على ظهره ، وتنفس الصعداء . فقلت تفسأ [٣] حجاب قلبه ، وأنشأ يقول :

سقى بلداً أمست سُليمى تحله ... من المزن ما تُروى به وتسيمُ
وان لم اكن من قاطنيه فانه ... يحلّ به شخص عليّ كريم
ألا حبذا من ليس يعدل قربه ... لديّ وان شط المزار نعيم
ومن لامني فيه حبيب وصاحبٌ ... فرد بغيظٍ صاحبٌ وحميمُ

ثم سكت سكتة كالمغمى عليه ، فصحت بالأصبية ، فأتوا بماء فصببته على وجهه فأفاق وأنشأ يقول :

اذا الصب الغريب رأى خشوعي ... وأنفاسي تزين بالخشوعِ
ولي عينٌ أضرّ بها التفاني ... الى الاجزاع مطلقة الدموع
الى الخلوات تأنس فيك نفسي ... كما أنِس الوحيد الى الجميع

والشاهد في الابيات الاخيرة

---

(١) يتقاسمون : يتغاطون . يقال قمسته في الماء غطته فيه (٢) المشاقر منابت العرفج
(٣) تفسأ : تشقق وانصدع

وما أوجع تلفت القلب بعد العين في قول الشريف :

تلفتُ حتى لم يبن من بلادكم — دخان ولا من نارهن وقودُ
وان التفات القلب من بعد طرفه — طوال الليالي نحوكم ليزيد
ولما تدانى البين قال ليَ الهوى — رويداً وقال القلب اين تريد
أتطمع ان تسلو على البعد والنوى — وانت على قرب المزار عميد
ولو قال لي الغادون ما انت مشتهٍ — غداة جزعنا الرمل قلت أعود[1]
أأصبر والوعساء بيني وبينكم — وأعلام خبتٍ ، انني لجليد !

وانظر قوله من كلمة ثانية :

ترحلت عنكم لي امامي نظرة — وعشرٌ وعشر نحوكم من روائيا
ومن حذرٍ لاأسأل الركب عنكم — واعلاق وجدي باقيات كما هيا
ومن يسأل الركبان عن كل غائب — فلا بد ان يلقى بشيراً وناعيا

(١) جزع من باب منع : تقال جزع الارض قطعها

الصد والنوى

يأسى العشاق للصد ، حتى إذا راعتهم مرارة النوى ، علموا ان الصد كان حلو المذاق . وفي هذا المعنى يقول ابن الخياط :

كفى حزناً أنى أبيت معذباً ... بنار هموم ليس يخبو سعيرها
وان عدوي لا يُراع وانني ... أبيت سخين العين وهو قريرها
واني لرهن الشوق والشمل جامع ... فكيف إذا حثّ الحداة اميرها
وما زلت من اسر القطيعة باكياً ... فمن لي غداة البين أني اسيرها
وكنت ارى ان الصدود منيّة ... يكون مع الليل التمام حضورها
فلما قضى التفريق بالبعد بيننا ... وجدت الليالي كان حلواً مريرها
هوى ونوى يستقبح الصبر فيهما ... وحسبك من حال يُذمّ صبورها

وقد اصاب في تشبيه النوى بعد الهجر ، بالجرح بعد الجرح حين قال :

احنّ الى سقمي لعلك عائدي ... ومن كلفٍ أني أحن الى السقمِ
وحتامَ استشفي من الداء ما به ... سقامي وأستروي من الدمع ما يُظمي
فراق اتى في إثر هجر وما أذىً ... بأوجعَ من كلمٍ اصاب على كلمِ

وحنين المحب الى سقمه ، املا في ان يعودَه حبيبه ، يذكرنا بقول كثيّر :

يود بأن يُمسي سقيا لعلها ... إذا سمعت عنه بشكوى تراسله

القريب والبعيد

هو الحبيب الذي يجاورك ، او يساكنك ، ثم لا تملك وصله ، ولا حديثه . وقد تزوره بلمح العين . كما قال ابن الدمينة :

ألا حبّ بالبيت الذي أنت هاجره وانت بتلماحٍ من الطرف زائره
فيا لك من بيتٍ لعينيّ معجبٍ واحسن في عيني من البيت عامره
أصدّ حيـاءً أن يلجّ بيَ الهوى وفيك المنى لولا عدوٌّ أحاذره

وفي هذا المعنى يقول ابراهيم بن العباس :

تدانت بقومٍ عن تناء زيارةٌ وشطّ بليلى عن دنوٍّ مزارها
وإن مقيماتٍ بمنعرَج اللوى لأقرب من ليلى وهاتيك دارها

والشعراء يشبهون الحبيب الممنوع في قربه ، بالماء يمنع من وروده الظمآن ، فنجد منهم من يقول :

إني وإياكِ كالصادي رأى نهـلا ودونـه هوةٌ يخشى بها التلفا
رأى بعينيه مـاءً عزّ مورده وليس يملك دون المـاء منصرفا

ومن يقول :

وإني على هجران بيتك كالذي رأى نهلا ريّا وليس بنـاهلِ
يرى برْد ماءٍ ذيد عنه وروضةً برود الضحى فينانةً بالأصائل

وقد صوّر جميل هذا المعنى حين قال :

وما صاديات حمْنَ يومـاً وليلةً على الماء يخشينَ العصيّ حواني
حوائم لم يصدرن عنـه لوجهةٍ ولا هنّ من برد الحياض دواني
يرَيْنَ حباب الماء والموت دونه فهنّ لأصوات السُّقـاةِ روانى
بأكثر مني غلةً وصبابةً اليكِ ولكنّ العدوّ عراني

وقال ابو حية النميري او العباس بن الاحنف :

كفى حزَناً أني أرى الماء بادياً لعيني ولكن لا سبيل إلى الورْدِ
وما كنت أخشى ان تكون منيتي بكفّ أعز الناس كلهم عندي

حلاوة الملام

ومن المحبين من يستعذب اللوم ، لذكر الحبيب ، كما قال ابو نواس :

احب اللوم فيها ليس إلا لترداد اسمها فيما ألام
ويدخل حبها في كل قلب مداخلَ لا تغلغلها المدامُ

وفي هذا المعنى يقول محمد بن ابي امية :

وحدّثني عن مجلس كنتِ زَيْنَهُ رسولٌ امينٌ والنساء شهودْ
فقلت له رُدَّ الحديث الذي مضى وذكرك من بين الحديث أريـد

وقد ظرُف البها زهير حين قدم رضى الحبيب على رضا العذول ، وقال :

يا من يهدّد بالصدو دِ نعم تقولُ وتفعلُ
قدصح عذرك في الهوى لكنني أتعلل
قل للعذول لقد أطلـ ـت لمن تلوم وتعذل
عاتبت من لا يرعوي وعذلت من لا يقبل
غضب العذول اخف من غضب الحبيب واسهل

وما ابدع قول ابي فِراس :

أساءَ فزادته الاساءة حُظوةً حبيبٌ على ما كان منه حبيبُ
يَعدّ عليَّ العاذلون ذنوبَــه ومن اين للوجه المليح ذنوب ؟

والرقيب اخو اللائم في تنغيص حياة العشاق ، ومن طريف الشعر في الالم لقرب الرقيب قول ابن المعتز :

وآبلاني في محضرٍ ومغيبٍ من حبيب مني بعيدٍ قريبِ
لم تَرِدْ ماء وجهه العين إلا شرِقتْ قبل ريّها برقيبِ

وقوله :

قد دنت الشمس للمغيبِ وحان شوقي الى الحبيبِ
طوبى لمن عاش عُشر يومٍ لهُ حبيبٌ بلا رقيبِ

وما اظرف من يقول :

لسهم الحب جرحٌ في فؤادي وذاك الجرح من عين الرقيبِ
يوكّل ناظريه بنا ويحكي مكان الكاتبين من الذنوب
فلو سقط الرقيب من الثريّا لصُبَّ على محبٍّ او حبيب

وانظر كيف ضُرب المثل بغفلة الرقيب في قول احد الظرفاء :

يسقيك من كفهِ مُداماً ألذّ من غفلة الرقيبِ
كأنها إذ صفَت ورقّت شكوى محبٍّ الى حبيب

وقد كلِف سعيد الورّاق بغلام من الرهبان فأصبحوا و كلهم رقباء ، وفيهم يقول :

بربك يا حمامة دير زكّى وبالانجيل عندكِ والصليبِ
قِفي وتحمّلي مني سلاماً إلى قمرٍ على غُصنٍ رطيب
حماه جماعة الرهبان عني فقلبي ما يقرُّ من الوجيب
وقالوا رابنا إلمام سعدٍ ولا والله ما أنا بالمريب
وقولي سعدك المسكين يشكو لهيب جوًى احرٌ من اللهيب
فصِله بنظرةٍ لك من بعيدٍ إذا ما كنت تمنع من قريب
وإن أنا مُتُّ فاكتب حول قبري محبٌّ مات من هجر الحبيب
رقيبٌ واحدٌ تنغيص عيشٍ فكيف بمن لهُ ألفا رقيب ؟

انه لا بد مقتول ، كما قتل صاحب هذه الابيات !!

رؤية الضمير

ومن المحبين من يرى محبوبه في ضميره ، كلما اشتاق اليه ، كما قال الحكم بن قنبرة :

ان كنت لست معي فالذكر منك معي ... يرعاك قلبي وان غُيّبت عن بصري

العين تبصر من تهوى وتفقده ... وناظر القلب لا يخلو من النظر

وقال آخر :

أما والذي لو شاء لم يخلق الهوى ... لئن غبت عن عيني ما غبت عن قلبي

تُرينيكَ عين الوهم حتى كأنني ... اناجيك من قرب وان لم تكن قربي

وقال ابو عثمان الناجم :

لئن كان من عيني احمدُ غائباً ... فما هو عن عين الضمير بغائب

له صورة في القلب لم يقصها النوى ... ولم تتخطفها اكف النوائب

إذا ساءني يوماً شحوط مزاره ... وضاقت بقلبي في نواه مذاهبي

عطفت على شخص له غير نازح ... محِلته بين الحشا والترائب

ويقرب من هذا المعنى قول الآخر في الاستعانة باسم الحبيب :

وليل وصلنا بين قطريه بالسُّرى ... وقد جد شوق مُطمع في وصالك

أطلت علينا من دجاه حنادس ... أعدن الطريق النهج وعر المسالك

فناديت يا أسماء باسمك فانجلت ... واسفر منها كل أسود حالك

بنا أنت من هادٍ نجونا بذكره ... وقد نشبت فينا اكف المهالك

منحتك اخلاصي واصفيتك الهوى ... وإن كنتِ لما تخطريني ببالك

وفي مثل هذا المعنى يقول اسحق الموصلي :

صب يحث مطاياه بذكركمُ ... وليس ينساكمُ إن حلّ أو سارا

لو يستطيع طوى الايام نحوكم ... حتى يبيع بعمر القرب أعمارا

يرجو النجاة من البلوى بقربكم ... والقرب يُلهب في احشائه النارا

القلب والكبد

موطن الحب هو القلب ، في حديث الشعراء ، وقد اثبت اخيراً احد الاطباء الالمان ان موطن الحب هو الكبد ، ونريد ان نذكر هنا طرفاً من حديث العرب عن الكبد ، وقرار الحب فيه ، مما يماثل هذا الرأي الجديد .. قـــال بعض الاعراب :

فيا كبداً يُحمى عليها وانهـا ... مخافة َ هيضات النوى لخفوقُ
أقام فريق من أُناسٍ يودُّهم ... بذات الغضا قلبي وبان فريق
بحاجة محزونٍ يظلُّ وقلبه ... رهينٌ ببَضّات الحِجال صديق

وجرى ذكر القلب والكبد في كلمة صردر حين قال :

لا الحمى بعدكم مَناخٌ ولا ما ... ءُ اللوى إذ هجرتموه بوردِ
والفؤاد الذي عهدتم جَموحاً ... راضه طول جَوركم والتعدّي
ما تريدون من دلائل شوقي ... غير هذا الذي أُجنُّ وأُبدي
كبدٌ كلما وضعت عليه ... راحتي قال انت قادح زندي
وجفون جرين مداً وماء البـ ... ـحر يرتاح بين جَزْرٍ ومدٍّ

وكذلك جمع بينهما البحتري حين قال :

وما كبدي بالمستطيعة للأذى ... فأسلو ولا قلبي كثير التقلبِ

وابن الاحنف حين قال :

ما للكلوم التي بالقلب من اسى ... فاصبر على اليأس يا مستقبل الياسَ
ما اسمج الناس في عيني واقبحهم ... إذا نظرت فلم ابصرك في الناس
حتى متى كبدي حرّى معطشةٌ ... ولا يلين لشيء قلـــبك القاسي
ياموريَ الزّند قد اعيت قوادحُه ... اقبسْ إذا شئت من قلبي بمقباس

بكاء الملاح

نذكر للقارىء شذرات من الشعر في بكاء الملاح ، وما أغزر الدمع في بكاء المليح ، حين يظفر بحسنه التراب :

قال ابن عبد ربه : كان لمعلّى الطائي جارية يقال لها (وصْف) وكانت أديبة شاعرة ، فأخبر محمد بن وضّاح قال : أدركت معلّى الطائي بمصر واعطي بجاريته وصف أربعة آلاف دينار فباعها . فلما دخل عليها قالت له : بعتني يا معلّى ؟ ! قال نعم . فقالت : والله لو ملكت منك مثل ما تملك مني ما بعتك بالدنيا وما فيها !! فرد الدنانير واستقال صاحبه ثم اصيب بها إلى ثمانية أيام . فقال يرثيها :

يا موتُ كيف سلبتني وصْفا ... قدّمتها وتركتني خلفا
هلاّ ذهبت بنا معاً فلقد ... ظفرت يداك فسُمتني خسْفا
وأخذتِ شقّ النفس من بدني ... فقبرتــــه وتركت لي النصفا
فعليك بالباقي بـــلا أجل ... فالموت بعد وفاتها أعفى
يا موت ما أبقيت لي أحــداً ... لما رفعت إلى البـــلى وصفا
هلاّ رَحمت شباب غانية ... ريّا العظام وشعْرَهاالوحفا(١)
ورحمت عينيْ ظبيةٍ جعلت ... بين الرياض تناظرُ الخِشفا
تقضي إذا انتصفت مرابضه ... وتظل ترعاه إذا أغفى
فاذا مشى اختلفت قوائمــــه ... وقت الرضاع فينطوي ضعفا
متحيراً في المشي مُرتعشاً ... يخطو فيضرب ظِلفهُ الظلفا
فكأنها (وصْفٌ) إذا جعلت ... تحوي تحيرُ محاجراً وُطفا (٢)

---

(١) الوحف : الاسود

(٢) وطف جمع اوطف ووطفاء وهو الماء الكثير أو الدمع : توصف به السحب والعيون .

يا موت انت كذا لكل اخي ... إلفٍ يصون ببرّه الإلفا
خلفتَني فرداً وبنت بها ... ما كنت قبلك حاملا وكفا[1]
أسكنتها في قعر مظلمةٍ ... بيتاً يصافح تُربه السقفا
بيتاً اذا ما زاره أحدٌ ... عصفت به أيدي البلى عصفا
لا نلتقي أبداً معاينةً ... حتى نقوم لربنا صفا
لبستَ ثياب الحتف جاريةٌ ... قد كنت ألبس دونها الحتفا
فكأنها والنفس زاهقة ... غصن من الريحان قد جفا
يا قبر أبقِ على محاسنها ... فلقد حويت البر والظرفا

وكتب أبو نواس على قبر جارية هذه الابيات :

أقول لقبر زرته متلثما ... سقى الله بَرْدَ العفو صاحبة القبر
لقد غيبوا تحت الثرى قمر الدجى ... وشمس الضحى بين الصفائح والقفر
عجبت لعين بعدها ملت البكا ... وقلبٍ عليها يرتجي راحة الصبر

وقال ابو تمام وقد ماتت جارية له :

جفوفَ البلى اسرعت في الغصُنِ الرطب ... وخطب الردى والموت ابرحت من خطب
لقد شرقت في الشرق بالموت غادة ... تبدلتْ منها غربة الدار بالقرب
اقول ، وقد قالوا استراحت لموتها ... من الكرب روح الموت شرٌّ من الكرب
لها منزل تحت الثرى وعهدتها ... لها منزل بين الجوانح والقلب

وما اجمل قوله من كلمة ثانية :

يقولون هل يبكي الفتى لخريدة ... اذا ما أراد اعتاض عشراً مكانها
وهل يستعيض المرء من خُمس كفهِ ... ولو صاغ من حُرّ اللجين بنانها

وقال ابن الرومي في بستان وكانت من المجيدات في الغناء :

ما أولع الدهر في تصرّفهِ ... بكل زينٍ لهُ ومفتخر
اطار قمريّة الغناء عن الأر ... ض فأي القلوب لم تطِر

---

(١) الوكف : الظلم

بستان يا حسرتا على زهرٍ ... فيك من اللهو بل على ثمرِ
بستان اضحى الفؤاد في ولهٍ ... يا نزهة السمع منه والبصرِ
بستان مامنك لامرىءٍ عوض ... من البساتين لا ولا البشر
ان لم اكن مت فانقرضت فكم ... من موتةٍ للفؤاد في الذكر

وما ارق قوله في هذه القصيدة :

يا غضة السن يا صغيرته ... امسيت احدى المصائب الكبَرِ
أني اختصرت الطريق يا سكني ... الى لقاء الاكفان والحفر
أبعد ما كنت باب مبتهج ... للنفس اصبحت باب معتبر
كل ذنوب الزمان مغتفر ... وذنبه فيك غير مغتفر
لله ما ضمنت حفيرتها ... من حسن مرأى وطيب مختبر
اضحت من الساكني حفائرهم ... سكنى الغوالي مداهن السرر
لو علم القبر من أتيح له ... لانحفر القبر غير محتفر

واحب لو تأمل القارىء ما في هذا الشعر من سمو الخيال .

وكان مرة بن عبد الله مغرماً بفتاة من قومه يقال لها ليلى بنت زهير ، وتزوجت من غيره بالرغم منه ، ثم نقلت مع زوجها الى راذان وماتت هناك ، فقال مرة فيها كثيراً من الشعر الموجع . كقوله :

أيا ناعيي ليلى أما كان واحد ... من الناس ينعاها الي سواكما
ويا ناعيي ليلى لجلت مصيبة ... بنا فقد ليلى لا أمرت قواكما
ولا عشتما الا حليفي بليةٍ ... ولا مت حتى يشترى كفنا كما
فأشمت والايام فيها بوائق ... بموتكما اني احب زدا كما

وقوله .

كأنك لم تفجع بشيءٍ تعده ... ولم تصطبر للنائبات من الدهر
ولم تر بؤساً بعد طول غضارةٍ ... ولم ترمك الأيام من حيث لا تدري
سقى جانبي راذان والساحة التي ... بها دفنوا ليلى ملث من القطرِ
ولازال خصب حيث حلت عظامها ... براذان يسقي الغيث من هطل غمر

وان لم تكلمنا عظامٌ وهامةٌ هناك واصداءٌ بقينَ مع الصخر

وكان لاسحق الموصلي غلام جميل يقال له زياد ، وهو الذي يقول فيه :

اذا ما زيادٌ علّني ثم علني ثلاث زجاجات لهن هديرُ
خرجت أجرّ الذيل زهواً كأنني عليك امير المؤمنين امير

ثم مات زياد هذا ، فقال اسحق يبكيه :

فقدنا زياداً بعد طول صحابةٍ فلا زال يسقي الغيثُ قبرَ زياد
ستبكيك كأسٌ لم تجد من يديرها وظمآن يستبطي الزجاجة صادي

وكان محمد بن مناذر يعشق عبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفي ، وكان عبد المجيد هذا من اجمل الفتيان وآدبهم واظرفهم ، وله مع ابن مناذر حديث طويل ذكره صاحب الاغاني، ثم مات عبد المجيد بعد مرض قصير وهو في سن العشرين فقال فيه ابن مناذر قصيدة طويلة نختار منها هذه القطعة الباكية :

كلُّ حيٍّ لاقى الحِمام فمودي ما لحيٍّ مؤمّل من خلودِ
لا تهاب المنون شيئاً ولا تبـ ـقي على والدٍ ولا مولود
ولقد تترك الحوادث والايا م وهياً في الصخرة الصيخودِ[1]
ولو ان الايام اخلدن حياً لعلاءٍ اخلدن عبد المجيدِ
ما درى نعشهُ ولا حاملوه ماعلى النعش من عفافٍ وجودِ
ويحَ أيدٍ جثت عليه وايدٍ دفنتهُ ! ما غيّبت في الصعيد!
وأرانا كالزرع يحصده الدهـ ـرُ فمن بين قائمٍ وحصيد
وكأنا للموت ركبٌ مخبّو ن سراعاً لمنهلٍ مورود
ان عبد المجيد يوم تولّى هدّ ركناً ما كان بالمهدود
هدّ ركني عبد المجيد وقد كنـ ـتُ بركنٍ أنوء منه شديد

---

(١) الصيخود : الشديدة

وبعبد الجيد تامور نفسي عثرت بي بعد انتعاش جدودي[1]
وبعبد المجيد شلَّت يدي اليمـ نى وشلَّت بـه يمين الجود
حين تمَّت آدابهُ وتردّى برداءٍ من الشباب جديد
فسقاه مـاء الشبيبة فاهتزَّ اهتزاز الغصن الندي الأملود[2]
وكأني ادعوه وهو قريبٌ حين ادعوه من مكان بعيد
فلئن صار لا يجيب لقد كا ن سميعاً هشاً اذا هو نُودي
يا فتى كان للمقامات زَيْناً لا أراه في المحفل المشهود
لهف نفسي! أما أراك وما عنـ دك لي ان دعوت من مردود
كان عبد المجيد سم الاعادي مل‌ء عين الصديق رغم الحسود
عاد عبد المجيد رُزءًا وقد كا نَ رجاءً لريب دهرٍ كنود
خنتك الودَّ لم أمت كمداً بعـ دكَ اني عليك حقٌّ جليد
لو فدى الحيُّ ميتاً لفدت نفـ سك نفسي بطارفي وتليدي
ولئن كنت لم أمت من جوى الحز ن عليه لأبلغنْ مجهودي
لأقيمنَّ مأتمـاً كنجوم الليـ ل زُهراً يلطمن حُرّ الخدود
موجَعات يبكين للكبد الحرّ ى عليه وللفؤاد العميد[3]
ولعينٍ مطروفةٍ ابداً قا لَ لها الدهر لا تقرّي وجودي
كلما عزَّكِ البكاء فأنفـد تِ لعبد المجيد سَجْلا فعودي
لفتىً يحسن البكاء عليه وفتىً كان لامتداح القصيد
فبرغمي كنت المقدَّم قبلي وبكرهي دُليتَ في الملحود
كنت لي عصمةً وكنت سماءً بك تحيا ارضي ويخضرُّ عودي

(١) تامور النفس حياتها

(٢) الاملود : الناعم الرقيق

(٣) العميد الذي صرعه الحزن

وأُغرمَ يعقوب بن الربيع بجارية تسمّى (مُلك) ومكث في طلبها سبعِ سنين ، حتى رق مالهُ ، وجاهه ، ثم ملكها ، فأقامت عنده ستة اشهر وماتت فقال يبكيها :

لله آنِسةٌ فُجِعْتُ بها	ما كان ابعدها من الدّنسِ
اتت البشارة والنعيُّ معاً	يا قُربَ مأتمِها من العُرسِ
يا مُلكُ ! نال الدهر فرصتهُ	فرمى فؤاداً غير محترسِ
أبكيك ما ناحت مُطوّقةٌ	تحت الظلام تنوح في الغَلسِ

وقال فيها :

ليت شعري بأيّ ذنبِ المُلكِ	كان هجري لقبرها واجتنابي
ألذنبِ حقدته كان منها	أم لعلمي بشغلها عن عتابي
أم لأمني لسخطها ورضاها	حين واريت وجهها في التراب
إنما حسرتي إذا ما تذكّر	ت عنائي بها وطول طِلابي
لم أزل في الطلاب سبع سنينٍ	أتأتّي لذاك من كل باب
فاجتمعنا على اتفاقٍ وقدْرٍ	وغنينا عن فرقةٍ باصطحاب
اشهراً ستةً صحبتك فيها	كنَّ كالحلم او كلمع السراب
وأتاني منك النعيُّ مع البشـ	رى فيا قرب اوبةٍ من ذهاب

وما أروع قوله في وصف احتضار هذه الجارية :

حتى إذا فترَ اللسانُ واصبحت	للموت قد ذبلت ذبول النرجسِ
وتسهّلت منها محاسنُ وجهها	وعلا الأنين تحثّهُ بتنفّسِ
رجعَ اليقينُ مطامعي يأساً كما	رجع اليقين مطامع المتلمّس(١)

وقد وصف غربته من بعدها فقال :

فُجعتُ بمُلكٍ وقد أينعتْ	وتمّتْ فأعظِمْ بهامن مصيبهْ

(١) المتلمس هو صاحب الصحيفة التي يضرب بها المثل في الخيبة

فأصبحت مغترباً بعدها واضحت بحلوانَ ملكٌ غريبه
أراني غريباً وان اصبحتْ منازل أهـــليَ مني قريبهْ
عطفت على اختـــها بعدها فصادفتها ذات عقلٍ أديـبهْ
فأقبلتُ أبكي وتبكي معي بكاء كئيبٍ بحزن كئـــيبه
وقُلتُ لها مَرحباً مَرحباً بوجه الحبيبة أُخت الحبيبه
سأصفيك ودي حِفاظاً لهـا فذاكِ الوفـــاء بظهر المغيبَه
أراكِ كمُلكِ وان لم تكن لملكٍ من الناس عندي ضريبه[٢]

والشعر في بكاء الملاح كثير ، ولكن حب الايجاز يحملنا على الاكتفاء بهذا المقدار ، وما هو بالقليل .

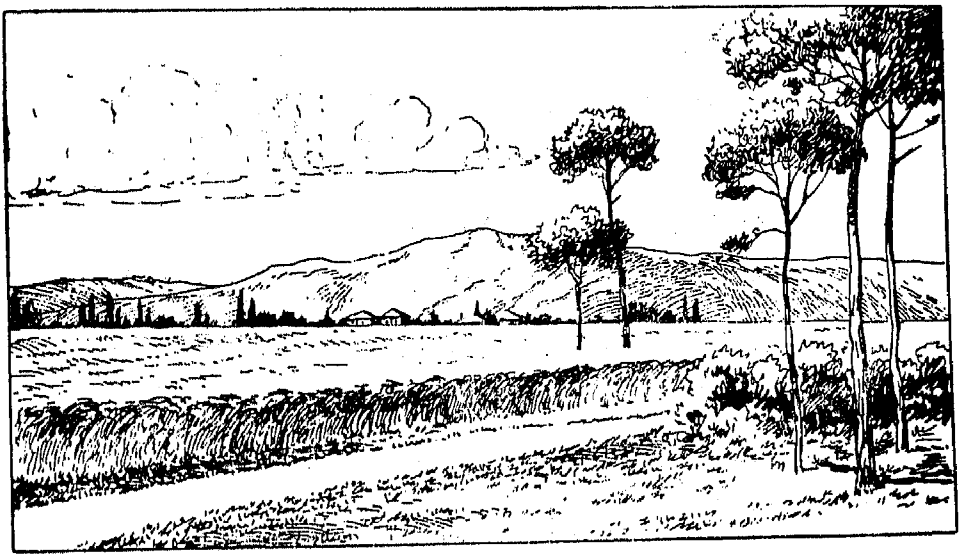

(١) ضريبة : شبيهة

بكاء الحلائل

واوجع ما يكون بكاء الملاح إذا كن حلائل ، والحليلة المعشوقـــة متاع عزيز ! فمن ذلك قول احد الفتيان في بكاء امرأته ، وكان بها من المغرمين:

أطأ التراب وانت رهن حفيرة   هالت يداي على صداك ترابها
اني لأغدر من مشى ان لم أطأ   بجفون عيني ما حييت جنابها

قال ابن رشيق : ومن جيد ما رُثِيَ به النساء واشجاه ، واشده تأثيراً في القلب ، واثارة للحزن ، قول محمد بن عبد الملك الزيات في ام ولده :

ألا من رأى الطفل المفارق أُمَّه   بعيد الكرى عيناه تبتدران
رأى كل أمٍّ وابنها غير أُمّه   يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيداً في الفراش تحثه   بلابل قلبٍ دائم الخفقان

يقول فيها بعد ابيات :

ألا ان سَجلاً واحداً قد أرقته   من الدمع او سَجلين قد شفياني
فلا تلحياني ان بكيت فانما   أداوي بهذا الدمع ما تريانِ
وان مكاناً في الثرى خطّ لحدُهُ   لمن كان في قلبي بكل مكان
أحق مكان بالزيارة والهوى   فهل انتما إن عجت مُنتظران

ومن اشجى الشعر رثاءً قوله في هذه القصيدة :

فهبني عزمت الصبرَ عنها لانني   جليدٌ فمن بالصبر لابن ثمانِ
ضعيف القوى لا يعرف الاجر حسبة   ولا يأتسي بالنـــاس في الحدثان
ألا مـن أمنّيه المنى وأُعِدُّه   لعثرة أيامي وصرف زماني
ألا من اذا ما جئت اكرم مجلسي   وان غبت عنهُ حاطني ورعاني

ولم أر كالاقدار كيف يصبنني ولا مثل هذا الدهر كيف رماني

ومن موجع الشعر قول امرأة شريفة ترثي زوجها ولم يكن دخل بها :

أبكيك لا للنـــعيم والانس بل للمعالي والرمح والفرَس

ابكي على فارسٍ فجعتُ به أرمَلني قبل ليلة العُرُسِ

يا فارساً بالعراء مُطرَّحــاً خانته قوّادُه مع الحرَس

ما لليتامى اذا همُ سغبوا وكل عــانٍ وكلّ محتبس

واني لآسف على قلة هذا النوع من الشعر في الآداب العربية ، مع انه مـن دلائل الوفاء ، لو يعلم الشعراء !

لوعة الشوق

نمتع القارىء في هذا الباب بألوان من سحر الحديث عن تغلغل الشوق في طيّات الفؤاد . فمن ذلك قول احد الشعراء وقد اشتاق الى ارض جِلق ، وتمنى لو كحل اجفانه بترابها :

وان اصطباري عن معاهد جِلقٍ ... غريبٌ فما اجفى الفراقَ واجفاني
سقى الله ارضاً لو ظفرت بتربها ... كحلت بها من شدة الشوق اجفاني

وقال ابو بكر بن سعادة يتشوق الى قرطبة :

اقرطبة الغراء هل ليَ اوبةٌ ... اليكِ وهل يدنو لنا ذلك العهدُ
سقى الجانبَ الغربيَّ منك غمامةٌ ... وقعقع في ساحات دوحاتك الرعدُ
لياليك اسحارٌ وارضك روضةٌ ... وتربك في استنشاقه عنبرٌ وردْ

واني ليبكيني قول الشريف :

ذكرت الحمى ذكر الطريد محلّهُ ... يُذادُ ذيادَ العاطشات ويُرجعُ
واين الحمى لا الدار بالدار بعدهم ... ولا مربَعٌ بعد الاحبّةِ مربَع
سلامٌ على الاطلال لا عن جنابةٍ ... ولكنَّ يأساً حين لم يبق مطمعُ
نشدتكمُ هل زال من بعد اهلهِ ... زرودٌ وهل زالت طلولٌ واربُع
نعم عادني عيد الغرام ونبَّهتْ ... عليَّ الجوى دارٌ بميثاءَ بلقعُ
وطارت بقلبي نفحة غضَويّة ... تنفسّها حالٍ من الروض مُمرِع
نظرت الكثيب الاعين اليوم نظرة ... تردُّ اليَّ الطرف يَدمى ويَدمَعُ
وايقظت للبرق اليماني صاحباً ... بذات النقا يخفى مِراراً ويلمَع
أأنت معيني للغليل بنظرةٍ ... فنبكي على تلك الليالي ونجزع
مَعاذالهوى لو كنت مثليَ في الهوى ... اذاً لدعاك الشوق من حيث تسمع

هناك الكرى، إني من الوجد ساهرٌ — وبُرءُ الحشا، إني من البين موجَعُ
فلا أُبَّ لي إلا تماسك ساعةٍ — ولا نوم لي إلاّ النعاسُ المروَّعُ
ألا ليت شعري كل دارٍ مُشتةٌ — ألا موطنٌ يدنو بشملٍ ويجمعُ

وانظر كيف يقول :

وما حائماتٌ يلتفتنَ من الصدى — إلى الماء قد مُوطِلنَ بالرَّشفان
إذا قيل هذا الماءُ لم يملكوا لها — مَعاجاً بأقرانٍ ولا بثانٍ
بأظما إلى الأحباب مني وفيهم — غريمٌ إذا رمتُ الديون لواني
فيا صاحبيْ رحلي اقِلاَّ فانني — رأيت بليلى غير ما تريانِ
ويا مُزْجي النِّضو الطليح عشيةً — تُراكَ ببطن المأزمين تراني
وهل أنا غادٍ أنشد النبلة التي — بها عَرَضاً ذاك الغزال رَماني

وانظر كيف يستمطر الدمع حين يقول :

خذوا نظرةً مني فلاقوا بها الحمى — ونجداً وكثبان اللوى والمطاليا
ومُرُّوا على أبيات حيٍّ برامةٍ — فقولوا لديغٌ يبتغي اليوم راقيا
وقولوا لجيرانٍ على الخيف من منى — تراكم من استبدلتمُ بجواريا
ومن حل ذاك الشعب بعدي وأرشقت — لواحظهُ تلك الظباء الجوازيا
ومن ورد الماءَ الذي كنت وارداً — به ورعى الروض الذي كنت راعيا
فوالهفتي ! كم لي على الخيف شهقةٌ — تذوب عليها قطعة من فؤاديا
صفا العيش من بعدي لحيٍّ على النقا — حلفت لهم لا أقرب الماء صافيا
فيا جبل الريان إن تعرَ منهم — فاني سأكسوك الدموع الجواريا
ويا قرب ما أنكرتمُ العهد بيننا — نسيتم وما استودعتم الود ناسيا
أأنكرتمُ تسليمنا ليلة النقا — وموقفنا نرمي الجمارَ لياليا
عشيَّة جاراني بعينيه شادنٌ — حديث النوى حتى رمى بي المراميا
رمى مقتلي من بين سجفيْ غبيطهِ — فيا رامياً لا مسك السوءُ راميا
فيا ليتني لم أعلُ نشزاً اليكم — حراماً ولم أهبط من الأرض واديا
ولم أدر ما جمعٌ وما جمرتا منىً — ولم ألق في اللاقين حياً يمانيا
ويا ويح نفسي كيف زايدت فيهما — بذي البان لا يُشرَيْنَ إلا غواليا

ويقول الابيوردي يصف شوقه الى حبيبته :

وأُقسمُ بالبيت الرحيب فنـــاؤه   وبالحجَر الملثوم والحِجْرِ والرُّكن
لأنتِ إلى نفسي احب من الغنى   وذكركِ أحلى في فؤادي من الأمْن

ويصور الحارث بن خالد شوقه الى عائشة بنت طلحة بشوق الغريق إلى النجاة ، ويقول :

يا أمَّ عمران ما زالتْ وما برحتْ   بنا الصبابة حتى مسَّنا الشفقُ
القلب تاق اليكم كي يلاقيكم   كما يتوق إلى مَنجاته الغرِقُ

وانكَ لتلمس حرارة الشوق في قول العذري :

لو جُزَّ بالسيف رأسي في مودتكم   لمرَّ يهوي سريعـــاً نحوكم رأسي
ولو بَلِي تحت أطباق الثرى جسدي   لكنت أبْلى ومـــا قلبي لكم ناسي
أو يقبض الله روحي صار ذكركم   روحاً اعيش به ما عشت في الناس
لولا نسيمٌ لذكراكم يُرَوِّحني   لعدت محترقاً من حَرِّ أنفاسي

والشوق يحمل ابن الدمينة على ان يحمدلحبيبته ذكرها له بالمساءَة ويقول:

أرى النـــاس يرجون الربيع وانما   ربيعي الذي ارجو نوالُ وصالكِ
أرى الناس يخشون السنين وانمـــا   سنيَّ التي اخشى صروفُ احتمالكِ
لئن ساءني أن نلتيني بمساءةٍ   لقد سرَّني أني خطرت ببالكِ
ليَهنِك إمساكي بكفي على الحشا   ورقراق عيني رهبةً من زِيالك

وانظر لوعة الشوق في قول احد المتيمين :

اقول لاصحابي وهم يعذلونني   ودمع جفوني دائم العبرات
بذكر مِنىً نفسي فبلوا إذادنا   خروجي من الدنيا جُفوفَ لهاتي

راحة السلوان

ومن العشاق مـن يستريح إلى السُّلوّ ، ولكن اين الى السُّلوّ السبيل ؟ فمن ذلك قول العديل بن الفرخ .

صحا عن طِلاب البيض قبل مشيبه وراجع غضّ الطرف فهو خفيض
كأنيَ لم أرْعِ الصّبا ويروقني من الحيّ احوى المقلتين غضيضُ
دعاني له يوماً هوًى فأجابه فؤادٌ إذا يلقى المِراضَ مريضُ
لمستأنِساتٍ بالحديث كأنه تهلّل غُرّ برقهنّ وميض

وقال الشريف :

هي سلوةٌ ذهبت بكل غرامِ والحب نَهب تطاوُل الايام
ولقـد نضحت من السلوّ وبرده حرّ الجوى فبردْتُ أيّ ضرامِ
من بعد ما أظما الغليل جوانحي وأطال من ملل الزّلال أُوامي
لا يدّع العذّال نزع صبابتي بيدي حسرت عن الغرام لثامي
قد كانت الصَّبَوات تعصف مقودي فالآن سوف أطيل من إجمامي
هيهات يخفضني الزمان وانما بيني وبين الذل حدّ حسامي

وظاهر هذا الشعر ان اصحابه نزعوا عن الحب طائعين . وفي مقابل هـذا المعنى يقول ابراهيم بن العباس :

وعلمتني كيف الهوى وجهـالته وعلمكم صبري عـلى ظلمكم ظلمي
واعلم مالي عندكم فيردني هوايَ الى جهلي فأرجع عن علمي

ويقول ابن الاحنف في اليأس من السلوان :

تجنب يرتاد السلوّ فلم يجد لهُ عنكِ في الارض العريضة مذهبا
فعاد الى ان راجع الوصل صاغِراً وعاد إلى ما تشتهين وأعتبا

ويقول من كلمة ثانية :

كم قدتجرّعت من غيظٍ ومن حُرَقٍ إذا تجدّد حُزْنٌ هوّن الماضي
وكم سخِطت وما باليتُ سَخَطي حتى رجعت بقلبٍ ساخطٍ راضي

ويقول ايضاً ابراهيم بن العباس :

لمن لا ارى اعرضت عن كل من أرى وصرت على قلبي رقيباً لقــاتِلِه
أُدافعهُ عن سلوةٍ وأردُّه حنيناً الى اوصابه وبلابله

ويقول ابن أُذينة :

ان التي زعمت فؤادك ملّــها خُلقتْ هواك كما خُلقتَ هوًى لها
بيضاءُ باكرها النعيم فصاغها بلباقةٍ فأدقّها واجــلها
حجبت تحيتها فقلت لصاحبي ما كان أكثرهــا لنا واقلّــها
واذا وجدت لهــا وساوس سلوةٍ شفع الضمير الى الفؤاد فسلّها

ويقرب من هذا المعنى قول صاحب البدائع :

ولما نسيتم ودّنا وغرامنا ولم تحفظوا بعد الفراق لنا عهدا
جعلنا نغضُّ الطرف عنكم وعندنا من الشوق نارٌ لا نُطيق لها وَقدا

غدر الغواني

ولا بد من ذكر شيء مما تألم له الشعراء في حياة الحب ، التي طالما يغدر فيها النساء . وانا لنجد من بينهم من يحسب الغواني جميعاً غادرات ، ويقول :

فلا تحسبنْ هنداً لها الغدر وحدها   سجيّة نفس ، كلُّ غانيةٍ هندُ

ويقول كثيِّر في السُخر من عهود النساء :

ألا انمــا ليلى عصا خيزرانةٍ   اذا غمزوهــا بالاكفّ تلين

تمتع بها ما ساعفتك ولا تكن   عليك شجاً في الحلق حين تبين

وان هي اعطتك الليان فانها   لآخرَ مــــن خلانها ستلينُ

وان حلفت لا ينقض النأي عهدها   فليس لمخضوب البنــان يمين

وقال الشريف يشكو المطل والتسويف :

يا ظبية البان ترعى في خمائله   ليَهنِكِ اليومَ ان القلب مرعاك

الماء عندك مبذولٌ لشاربه   وليس يرويك الامدمع الباكي

وعدٌ لعينيك عندي ما وفيت به   يا قرب ما كذّبت عينيّ عيناك

انتِ النعيم لقلبي والعذاب له   فما أمرّك في قلبي وأحلاكِ

عندي رسائل شوقٍ لست أذكرها   لولا الرقيب لقد بلغتها فاك

هامت بك العين لم تتبع سواك هوى   من علم العين ان القلب يهواك

واني ليشجيني قوله من كلمة ثانية :

تهفو الى البان من قلبي نوازعه   وما بيَ البانُ من داره البانُ

اسدُّ سمعي اذا غنى الحمام به   كيلا يُبيِّن سر الوجد اعلانُ

وربَّ دارٍ اولّيها مجانبةً   وبي الى الدار اطرابٌ واشجان

اذا تلفتُّ في اطلالها ابتدرت   للقلب والعين امواهٌ ونيران

كلمٌ بقلبي أُداويه ويَقرفـهُ ... طول ادكاري لمن لي منه نسيان[1]

لا للوائم اقصار بلائمة ... عن العميد ولا للقلب سلوان

على مواعيدهم خلف اذا وعدوا ... وفي ديونهم مَطل وليّان

هم عرّضوا بوفاء العهد آونة ... حتى اذا عذبوني بالمنى خانوا

وابن الرومي يجعل الغدر من طبائع الحسان ، اذ يشبههنّ بالحديقة ، تحمل الثمر حيناً وتعرى من الورق حيناً ، واليك قوله من قصيدة طويلة :

يُولينَ ما فيه اغرام وآونة ... يُولين ما فيه للمعشوق سلوان

ولا يَدُمنَ على عهدٍ لمعتقدٍ ... انى ؟ وهنّ كما شُبهن بستانُ

يميل طوراً بحملٍ ثم يُعدمُه ... ويكتسي ثم يُلفى وهو عُريان

تغدو الفتاة لهاخلٌ فان غدرتْ ... راحت ينافس فيها الخل خُلان

ما للحسان مسيئات بنا ولنا ... الى المسيئات طول الدهر تحنان

وان تبعن بعهد قلن معذرةً ... انا نسينا وفي النسوان نسيان

يكفي مُطالبنا بالذكر ناهية ... ان اسمنا الغالب المشهور نسوان

لا نلزم الذكر انا لم نسمّ بـه ... ولا مُنِحناه بل للذكر ذكران

فضل الرجال علينا ان شيمتهم ... جود وبأس واحلام واذهان

وان فيهم وفاءً لا تقوم بـه ... ولن يكون مع النقصان رجحان

صدقنَ ما شئن لكنا تقنصنا ... منهن عِين تلاقينا وأُدمان[2]

انكى واذكى حريقاً في جوانحنا ... خلق من الماء والالوان نيران

اذا ترقرقن والاشراق مضطرم ... فيهنّ لم يملك الاسرار كتمان

ماءٌ ونار فقد غادرن كل فتىً ... لابسنَ وهو غزير الدمع حرّان

---

(١) الكلم : الجرح . وقرف الجرح اصابته من جديد

(٢) عين جمع عيناء وهي جميلة العين ، والادمان الظباء

تخضلُ منهنّ عين فهي باكية ويستحر فؤاد وهو هيمان

وقال فتى في ابنة عمه ، وقد تجنت عليه وغدرت به :

أأحبابنا لو تعلمون بحـــالنا لما كانت اللذات تشغلكم عنا
تشاغلتمُ عنـــا بصحبة غيرنا وابديتم الهجران ماهكذا كنا
وآليتمُ ان لا تخونوا عهودنا فقد وحياة الحب خنتم وماخنا
غدرتم ولم نغدر وخنتم ولم نخن وحُلتم عن العهد القديم وماحلنا
وقلتم ولم توفوا بصدق حديثكم ونحن على صدق الحديث الذي قلنا

وكان صخر بن عمرو ، اخو الخنساء ، يحب سلمى بنت عوف ثم تزوجها ؟ وتعاهدا على ان لا يتزوج واحد منهما بعد صاحبه ، ثم طُعن في احد الايام . فمرض سنة كاملة . فقصرت زوجه في السهر عليه ، والرفق به . ولا كذلك امه الرءوم . قالوا : وسمع يوماً امرأة تقول لامه : كيف حال صخر ؟فقالت: نحن بخير ما دمنا نرى وجهه . وسمع اخرى تقول لامرأته كيف حال صخر ؟ فقالت : لا حيٌّ فيرجى . ولا ميت فينعى !! وحكي انه جلس يوماً ليستريح وقد رُفع له سَجف البيت ، فرأى سلمى واقفة تحادث رجلا من بني عمها وقد وضع يده على عجيزتها ، فسمعه يقول لها : ايباع هذا الكفل ؟ فقالت عن قريب ! فقال صخر لامه : علي بسيفي ، لأنظر هل صدىء ام لا . فأتته به فجرّده ، وهم بقتل سلمى . فلما دخلت رفع السيف فلم يستطع حمله . فبكى وقال :

ارى أمّ صخر لا تملُّ عيادتي وملت سُليمى مضجعي ومكاني
فأي امرىء ساوى بأم حليلةً فلا عاش الا في شقاً وهوانِ
اهمُّ بأمر الحزم لو استطيعه وقد حيل بين العَير والنزوان
وماكنت اخشى ان اكون جنازة لديك ومن يغترُّ بالحدثان

ويذكرون ان غسان بن جهضم كان مفتونا بابنة عمه ، ثم تزوجها ، فلما حضره الموت حلفت لا تتزوج من بعده ، ثم حنثت في يمينها ، فأنشدها في نومها ليلة الزفاف :

غدرتِ ولم ترعَيْ لبعلك حرمةً ولم تعرفي حقاً ولم تحفظي عهدا
ولم تصبري حولاً حِفاظاً لصاحب حلفتِ له يوماً ولم تنجزي وعدا
غدرتِ به لما ثوى في ضريحه كذلك يُنسى كل من سكن اللحدا

ويذكرني هذا الشعر بقول ابي العتاهية :

اذا ما انقضت عني من العيش مدتي فإن غناء الباكيات قليل
سيُعرَض عن ذكري وتُنسى مودّتي ويحدث من بعد الخليل خليل

وهذه طبيعة العالم يا صاح ، فاقض من اوطارك ما انت قاض ، واترك الوهم للمجانين !!

ميزان الحب (١)

ميزان الحب فيما يرى جميل ان يهب المحب لمحبوبه دمه وماله ، وانظر كيف يقول :

لحا الله من لا ينفع الود عندهُ	ومن حبْلهُ إن مُدّ غير متينِ
ومن هو ذو لونين ليس بدائمٍ	على ثقـــةٍ خوان كلّ آمين
فلو ارسلت يوماً بثينة تبتغي	يميني ولو عزت عــليّ يميني
لأعطيتها ما جاء يبغي رسولها	وقلت لها بعد اليمين سليني
سليني مالي يا بثين فانما	يُبيَّنُ عند المال كل ضنين
فمالك لما خبّر الناس أنني	أسأت بظهر الغيب لم تسليني
فأبلى عذراً أو أجيء بشاهدٍ	من الناس عدْلٍ انهم ظلموني
فليت رجالا فيك قد نذروا دمي	وهمّوا بقتلي يا بثين لقوني
إذا ما رأوني طالعاً من ثنيةٍ	يقولون من هذا؟ وقد عرفوني !

---

(١) في كتاب « الاخلاق عند الغزالي » بحث مفصل عن الحب من الوجهة الفلسفية، فليرجع اليه القارىء إن شاء

الليالي الخوالي

وما أكثر حنين الشعراء إلى الايام السوالف ، والليالي الخوالي !!

ويذكرون ان المتوكل احب ان ينادمه الحسين بن الضحاك ، ليرى ما بقي من ظرفه ، وشهوته لما كان عليه . فأحضره وقد كبر وضعف ، فسقاه حتى سكر وقال لخادمه شفيع : اسقه ! فسقاه وحيّاه بوردة . وكانت على شفيع أثواب موردة . فمد الحسين يده إلى درع شفيع . فقال المتوكل : اتجس غلامي بحضرتي؟ فكيف لو خلوت به ! ما احوجك يا حسين الى ادب ! وكان المتوكل غمز شفيعاً على العبث به ، فقال الحسين : يا سيدي ! اريـــد دواة وقرطاساً . فأمر له بها فكتب :

وكالوردة البيضاء حيّا بأحمر ... من الورد يسقى في قراطق كالورد
له عبثات عند كل تحية ... بكفيه يستدعي الخلي إلى الوجد
تمنيت ان أسقى بكفيه شربة ... تذكرني ما قد نسيت من العهد
سقى الله عيشاً لم ابت فيه ليلة ... من الدهر إلا من حبيب على وعد

فطرب المتوكل لهذا الشعر ، وهم بتقديم الغلام اليه ، لو كان مما تسمح بمثله النفس !!

وانظر ما يقول ابن هانيء في ذكرى أيامه السوالف :

قمن في مـــأتم على العشاق ... ولبسن السواد في الاحداق
وبكين الفراق بالعنم الرطـ ... ـب المقنا وبالخدود الرقاق
ومنحن الفراق رقة شكوا ... هن حتى عشقت يوم الفراق
ومع الجيرة الذين غدوا دمـ ... ـع طليق ومهجة في وثاق
حاربتهم نوائب الدهر حتى ... آذنوا بالفراق قبل التلاقي

ودنوا للوداع حتى ترى الأجـ   ـيادَ فوق الاجيادِ كالأطواق
يوم راهنتُ في البكاء عيونـاً   فتقدّمتُ في عنان السّباق
أمنع القلب ان يذوب ومن يمنـ   ـع جمر الغضى عن الاحراق
ربّ يوم لنا رقيق حواشي اللهـ   ـو حُسناً جوّال عقد النطاق
قد لبسناه وهو من نفحات الـ   ـمسْكِ درع الجيوب درع التراقي

وما أوجع قول ابن الرومي في البكاء على لياليه الخوالي :

أأيام لهوي هـل مواضيك عُوّدُ   وهل لشبابٍ ضلّ بالأمس مُنشِدُ
رُزِئتُ شبابي عودةً بعد بدأةٍ   وهنّ الرزايا بادئاتٌ وعُوّد
سُلبتُ سواد العارضين وقبلهُ   بياضهما المحمـود اذ انا أمرد
وبُدّلتُ من ذاك البياض وحُسنه   بياضـاً ذميماً لا يزال يُسوّد
لشتان ما بين البياضين : معجبٌ   أنيق ومنشوءٌ إلى العـين انكد
وكنت جلاءً للعيون من القذى   فقد جعلت تقذى بشيبي وترمَد
هي الاعين النُّجل التي كنت تشتكي   مواقعها في القلب والرأس أسود
فمالك تأسى الآن لمـا رأيتها   وقد جعلت مرمى سواك تَعمّد
تشكى اذا ما اقصدتك سهامهـا   وتأسى اذا نكبن عنـك وتكمد
كذلك تلك النبل من وقعت بهِ   ومن صُرفت عنه من القوم مُقصد
اذا عدلت عنا وجدنا عدولهـا   كموقعها في القلب بل هو اجهد
وبيضاء يخبو دُرُّها من بياضها   ويذكو له ياقوتهـا والزبرجد
اذا ما التقى السُّكران: سكر شبابها   واكوابها ، كادت من اللين تعقد
لهوت بهـا ليلا قصيراً طويلُهُ   وما ليَ الا كفها مُتوسّد
وكم مثلها من ظبيةٍ قد تفيأتْ   ظِلالي واغصان الشبيبة مُيّدُ

ليالي سنتريس [١]

وقد اكثر صاحب البدائع من الحنين الى سنتريس ، وهي مهوى قلبه ، ومُنيةُ روحه ، اذ كانت ملعب صباه ، وميدان لهوه ، في أيامه السوالف ، ولياليه الخوالي !

وانظر كيف يقول :

ليالىَ النيل واللذات ذاهبةٌ	وجدي عليكنّ اشجاني فأضناني
لو يرجع الدهر لي منكنّ واحدةً	في سنتريسَ ويُدني بعض خُلاني
إذاً تبيّن دهري كيف يرحمني	من ظلم همي ومن عدوان احزاني
كم ليلةٍ لي بذاك النهر سالفةٍ	قضيتها بين غاداتٍ ووِلدانِ

* * *

وذي دلالٍ هو الدنيا وزينتها	يُردي الأسود بطرفٍ منه نعسانِ
كأنما فعل عينيهِ بعاشقهِ	فعل المدامة في اعطاف نشوان
شربت من ريقه راحاً مشعشعةً	بخالص الوُدّ لم تُمزج بسُلوان
وكم حبيبٍ براح الريق أسكرني	وكم جميلٍ بورد الخد حيّاني

* * *

يا مُوقد النار في قلبي مؤججةً	وقاطناً بين أنهار وريحانِ
عرِّجْ عليَّ فما نفسي بصابرةٍ	على نواك وما طرفي بوسنان

واليك قوله من كلمة ثانية :

إيهِ يا فتنة الوجود سلامٌ	من مَشوقٍ متيّم القلب عانِ

---

(١) في مقدمة كتاب (حب ابن ربيعة وشعره) وصف شائق لهذا البلد الطيب الجميل

لو يشاء الهوى حوتكِ ضلوعٌ حانياتٌ على صِباكِ حواني
فارحمي فانياً من الوجد يشقى بغرامٍ مؤجّجٍ غــير فان
رنّقتْ وِردَهُ الليالي فأمسى يرقب الصفوَ من خِلال الأماني

• • •

آه لو يسمح الزمــان ونلقى من طوى قربهم عِناد الزمانِ
وترى سِنتريس والدهر غافٍ ما قضينا من الليالي الحسان
حين كنا من السرور نشاوى في نجاةٍ من النوى وأمانِ
نتساقى الحديث عذباً شهياً وقطوف المنى رِطابٌ دواني

• • •

يا خليليّ والرفيق معينٌ أسعفاني ببعض ما تملكانِ
أبتغي آسياً فقد عيلَ صبري من توالي الوَجيب والخفقان
أبتغي صاحباً توّلهَ قبلي وشجاه من الجوى ما شجاني
فلقد يُسعف الجريح أخــاهُ ويواسي الزميل في الاحزان

• • •

وقد لحّن هذه القصيدة البلبل الغرّيد الشيخ عبد السميع عيسى الباجوري وما أروع شعر الوجدان إذا غُنيَ بمثل صوته العذب الجميل !!

صبا نجد

وما أشوق القلب الى شميم صَبا نجد ! فقد حببه الينا الشعراء حتى لنجد (صردُر) يرى المرور بنجد شركا من أشراك الهوى ، حين يقول :

النجاءَ النجاءَ من أرض نجدِ — قبل ان يعلق الفؤاد بوجدِ
إن ذاك الثرى لينبت شوقاً — في حشا ميِّت اللبابات صَلْد
كم خليٍّ غدا اليه وأمسى — وهو يهذي بعَلوةٍ أو بهندِ
وظباءٍ فيه تُلاقي المُوالي — والمعادي من الجمال بجُند
بشتيت من المباسم يغري — وسقامٍ من المحاجر يعدي (١)
وبنانٍ لولا اللطافة ظُنت — لجناياتها براثن أُسْدِ
وحديث إذا سمعناه لم نـ — ـدرِ بخمرٍ نضحتنا أم بشهد
أنِفَتْ من براقع الخزّ والقز — خدودٌ قد برقعوها بوردِ

ويقول الطغرائي :

يا حبذا نجدٌ واعراق الثرى — لدنٌ وانفاس النسيم رقاقُ
فهواؤه خَصِرُ النسيم وتربُه — حالي الأديم وماؤه رقراق
وبساكنيه ان استقربنا النوى — تشفي النفوس وتُمسك الارماق

ويقول ابن الخياط :

خذا من صبا نجدٍ أماناً لقلبه — فقد كان ريّاها يطير بلبه
وإياكما ذاك النسيم فانه — إذا هب كان الوجد أيسر خطبه
خليليّ لو احببتما لعلمتما — مكان الهوى من مغرم القلب صبه

---

(١) المراد بالمبسم الشتيت الثغر المفلج

تذكر والذكرى تشوق وذو الهوى يتوق ومن يعلق به الحب يصبه
غرامٌ على يأس الهوى ورجائه وشوق على بعد المزار وقربه

وقال ابن التعاويذي :

يا رفيقي هــــل لذاهب أيّا مٍ تقضّتْ حميدةٌ من مَرَدّ
أنجداني بوقفة في مغاني الـ حيّ إن جزتمــا بأعلام نجدِ
وابكياها بمقلتي واسألاهــا من سقاها ماء المدامع بعدي
جنّبا عندها مصارع من ما ت بداء الغرام فالشوق يعدي
فبأكنافها جاذرُ رملٍ بين اثوابهــا براثن أسْد

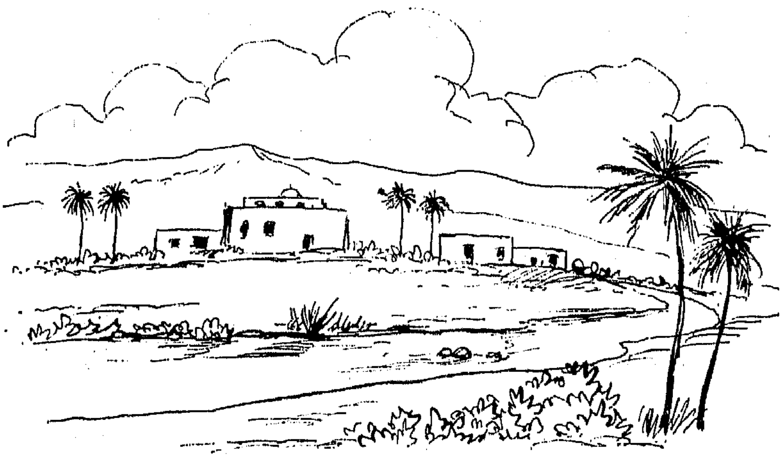

جناية العين والقلب

من الشعراء من يرى ان عينه سبب بلائه ، كقول خالد الكاتب :

أعان طرفي على جسمي واحشائي بنظرةٍ وقفت جسمي على دائي

وكنت غِرًّا بما يجني على بدني لاعلم لي ان بعضي بعض ادوائي

ومثله قول الارجاني :

تمتعا يا مقلتيّ بنظرةٍ وأوردتما قلبي امرّ المواردِ

أعينيّ كفا عن فؤادي فانه من البغي سعي اثنين بي قتل واحد

ويرى الشريف الرضي ان قلبه سبب شجاه ، ويقول :

قلب كيف علقت في اشراكهم ولقد عهدتك تُفلت الاشراكا

أكثبتَ حتى اقصدتك سهامهم قد كنت عن امثالها انهاكا

إن ذبت من كمد فقد جر الهوى هذا الذي جرت عليّ من جرّاكا

لا تشكونّ إليّ وجداً بعدهـا هذا الذي جرت عليّ يداكا

لاعاقبنك بالغليل فانني لولاك لم اذق الهوى لولاكا

ويأمى صرّدر على ان كانت اجفانه حجاب قلبه ، ويقول :

لواحظنا تجني ولا علم عندها وانفسنا مأخوذةٌ بالجرائر

ولم أر أغبى من نفوس عفائفٍ تصدق اخبار العيون الفواجر

ومن كانت الاجفان حجاب قلبه أذنّ على احشائه للفواقر

وقال ابن الاحنف يشكو ظلم قلبه وحبيبه :

بهم بجيران الجزيرة قلبهُ وفيها غزال فاتر الطرف ساحره

يؤازره قلبي عـلـيّ وليس لي يدان بمـن قلبي عليّ يؤازره

قضاء الله

ونختم هذا الكتاب بقول صاحب البدائع :

قالوا عشقت فقلت كم من فتنة   لم تغن فيها حكمة الحكماءِ
إن الذي خلق الملاحة لم يشأ   إلا شقائي في الهوى وبلائي

ولله الامر من قبلُ ومن بعد !

الفهرس